جولي مين

Shangahailanders

أبناء شانغهاي

رواية

ترجمة: هزار مخايل

مكتبة عصير الكتب

كل عام ٤٠ وأنت بخير

Shangahailanders

أبناء شانغهاي

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

عصير الكتب
للنشر والتوزيع

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: Shanghai landers
- العنوان العربي: أبناء شانغهاي
- حقوق النشر:
Copyright © 2024 by Juli Min
- الطبعة الأولى: يناير 2025م
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب
- تأليف: جولي مين
- ترجمة: هزار مخايل
- تحرير: أحمد حسين
- تدقيق لغوي: آلاء الشربيني
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- رقم الإيداع: 2024/26867م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-447-2

مكتبة
t.me/soramnqraa

جولي مين

Shangahailanders

أبناء شانغهاي

رواية

ترجمة: هزار مخايل

مكتبة
t.me/soramnqraa

عصير الكتب

إهداء

إلى أُمي،
وإلى هايدونغ.

كلُّ هذا الحديث كان مجرد ستارٍ من دُخان.
وخلف هذا الستار، كان يمسك بيدها.
ذلك الإحساس لا يمكن التعبير عنه بالكلمات.

- إيلين تشانغ، «حبٌّ دام نصف عُمر»

(Half a Lifelong Romance)

لا يمكننا العودة إلى الوراء.

- إيلين تشانغ، «حبٌّ دام نصف عُمر»

(Half a Lifelong Romance)

مكتبة
t.me/soramnqraa

رجلٌ شانغهاييٌّ أصيل

يناير / كانون الثاني 2040

خطا ليو على منصة القطار المغناطيسيِّ المُعلق، وكانت الرحلة رقم 2,025,659 المتوجِّهة إلى شانغهاي في حينها. يسير هذا القطار طوال أيام السنة، ذهابًا وإيابًا، من المطار إلى مركز المدينة، ومن مركز المدينة إلى المطار، وتستغرق كلُّ رحلةٍ باتجاهٍ واحد ثماني دقائق. أجرى ليو حسابًا سريعًا بعد أن تفحَّص جدول القطار وساعات عمله، إذ درجَ على تحديث الرقم في كل مرةٍ يركب فيها القطار. بدأ استخدامه المُتكرر للقطار منذ عام 2036، ليتزامن ذلك مع التحاق ابنته الوسطى، يوكو، في مدرسةٍ داخليةٍ في بوسطن -وتبعتها بعد فترةٍ وجيزةٍ أختها الكبرى، يُومِي، للالتحاق بالجامعة- حيث يسافر حول نصف الكرة الأرضية ويعود مرتين في السنة.

شغله التفكير بزوجته وفتاتيه اللاتي تركهنَّ عند نقطة أمن المحطة، سيصلْنَ الآن إلى الصالة (تحقَّق من ساعته) لتسجيل بطاقات

الصعود الخاصة بهنَّ للبوابة 26B, PVG–BOS. حالما تضع الفتاتان حقيبتَيهما الفضيتين المتطابقتين، ستذهب يُومِي إلى التسوق، بينما تتَّجه يوكو إلى البوفيه، فهي من الأشخاص الذين كلما زاد توترهم زادت شهيتهم للطعام، أما زوجته، إيكو، ستكون منشغلةً بهاتفها، ببطاريته المنخفضة، التي تكون دائمًا على وشك النفاد. تخيَّل سيداته الثلاث، كل واحدةٍ منهنَّ تؤدي مهامها الضرورية بهدوءٍ وبمفردها، وتجسَّدت في ذهنِهِ خريطةٌ للمحطة، ببواباتها، ومتاجرها، ومساراتها المُتحرِّكة.

وصل القطار المغناطيسيُّ إلى المحطة، وتوقف منتظرًا صعود الركاب، مُصدِرًا صوتَ أزيز. كان ليو يعلم أن دقيقةً كاملةً ستمرُّ قبل أن تُصدر الأبواب صوت صافرةٍ وتُفتح. في الداخل، واجهتْ ليو مضيفةٌ شابة ولكنها ليست شابةً تمامًا، إلا أنها لم تكن تنظر إليه، بل كانت تفكر في تقدُّم سنِّها، وخسارتها لرشاقتها وهي ترفع سحاب سترةٍ بدت ضيقةً عليها للغاية، وهو بدوره لم يكن ينظر إليها، بل كان يفكر في أنه لم يرغب أن ترافق إيكو الفتيات. هو الذي بدأ الشجار، يعلم ذلك، لكن زوجته صعَّدت الأمر. إنه خطؤها، ثم خطؤه، ثم خطؤها. يا لها من قصةٍ قديمةٍ مملة!

قال ليو: «تستطيع الفتاتان فعل ذلك بمفردهما».

ليست هذه رحلتهما الأولى، وبالتالي لا تحتاج يُومِي ويوكو إلى والدتهما لترافقهما في الطائرة المتوجِّهة إلى المدرسة، ولا تحتاجانها لترتب لهما سريريهما الطويلين المُتشابهين. توقَّع ليو أفضل من ذلك. هل هما عاديتان وتقليديتان إلى هذا الحد؟ وسخيفتان إلى هذا الحد؟ عندما كان ليو في سنهما، كانت قد مضت على استقلاله بنفسه سنوات، بل ربما قرابة عقدٍ من الزمن. ومع ذلك، فقد عقدت إيكو العزم، بعنادٍ غير مفهوم، على مرافقتهما، وتركِه في المنزل وحيدًا مع الرضيعة

كيكو، بل وأصرَّت أيضًا على أن يودعهما في المطار، ضاغطةً عليه، متلاعبةً بضميره ومشاعره بإخباره أن تقاعسه عن أخذهما إلى آخر نقطةٍ ممكنة قبل الفراق، سيشعرهما بنقصٍ في حُبه، وجهده، ورعايته. استمرت في الحديث باسمهما بهذا الشكل، مما جعله يشعر بالذنب. حول ماذا؟ إحجامه عن مرافقتهما في كلِّ خطوة؟ ربما كانت إيكو نفسها هي التي تريد أن يرافقها أحد، وأن يُمسك بيدها حتى النهاية. يتطلب جانبها اليابانيُّ لفتة، لفتةٌ غير ضرورية، وغير عقلانية، لكنها قالت الكلمات، ووجَّهت الاتهام. وحالما قيلت تلك الكلمات، وخرجت من فمها إلى العالم، وجبَ عليه أن يذهب، أليس كذلك؟ لأنه وإن كان كلامها صحيحًا ولو بنسبةٍ ضئيلة، فكيف يمكنه أن يعيش مع شعوره بالذنب؟

عندما وجد ليو مقعدًا في القطار، تخيَّل يُومِي ويوكو تستقران في مقعديهما، في الصف الأول والثاني من الطائرة وكلاهما بجانب النافذة، في المقعدين اللذين كان يحجزهما لهما دائمًا. ستشاهدان شانغهاي وهي تذوب بعيدًا، وستريان المدينة من الأعلى، بامتدادها، وأنهارها، والمياه التي كانت تتسلل عبر حدودها البريَّة ببطءٍ على مدى المائتي عام الماضية، ثم بسرعةٍ خلال العشرين عامًا الماضية.

كانت المدينة عموديَّة وثلاثية الأبعاد، تنمو فقط إلى الأعلى، إلى السُّحب، بينما يزحف الماء في كل مكان، مثل الحديد المُذاب، ويتسلَّل بين تجمعات المباني. لقد بنى قومه وأجداده هذه المدينة «المُستنقعيَّة»، وكان دمه يجري في تُربتها.

سبق وأجرى ليو اختبارًا جينيًّا قبل عشرِ سنواتٍ مع إيكو والفتاتين، وبالكاد كشف عن أصولٍ أخرى، إذ إنَّ أجداده كانوا جميعهم نقاطًا ورديةً متركزة حول شانغهاي على خريطة العالم. أصابته النتيجة بالإحباط، فالشيء الوحيد الذي كشفه الاختبار هو نوع الصلع الذكوري

الذي يعانيه -صلعٌ على شكل هالة- واحتماليةٌ عالية للإصابة بفقدان الذاكرة في أواخر حياته. أما إيكو فكانت جيناتها يابانيَّة في الغالب، مع القليل من الجينات الصينيَّة، والكوريَّة، والسيبيريَّة، وذاكرتها حديديَّة، ستحتفظ إلى الأبد بكل شيء، باستثناء كيفية شحنِ هاتفها المحمول.

أما الفتاتان، الآسيويتان عمومًا، فكانت نتائج اختبارهما متوقعة؛ على الطيف بينه وبين إيكو. صحَّح ليو لنفسه: ليستا فتاتين، بل شابَّتين. كان يعلم أن هذا المصطلح يُقلل من شأنهما، خاصةً أنه هو من كان يدفعهما للنضوج.

قالت إيكو: «لديهما حريتهما واستقلالهما».

فأجاب ليو: «آه، لكن هذين أمران مختلفان. الدقة في اللغة، من فضلك. تفعلان ما تريدان، لكنكِ تتعاملين معهما كأطفال».

- لا تزالان صغيرتين، يا ليو. لا يتحتَّم على الجميع أن ينضج بسرعةٍ كما فعلتَ. وهل فكَّرت يومًا أنني ربما أريد أن أكون معهما أيضًا؟

ثم تجرأت وقالت له إنه هو من يحتاج إلى أن يدع الأمور وشأنها. كلُّ ما كان يفعله طوال حياته هو أن يدع الأمور وشأنها.

***

كانت شانا أقدمَ مُضيفة على القطار المغناطيسي، وربما كانت أيضًا الأسمن. سمح لها مديرها السابق بالعودة إلى العمل بعد أن شرحت له وضعها، إذ تُوفِّي زوجها، وأُرسل طفلها إلى أجداده في الريف، وبالتالي كانت عودتها إلى العمل بمنزلة نوعٍ من الراحة. رغم أنها لطالما حلمت بحياةٍ زوجيةٍ، وبتربية طفلٍ، فإنها اكتشفت أنَّ ذلك كله صعبٌ للغاية، فزوجها، الذي نشأ في فرنسا، والذي كان ذكيًّا وعبقريًّا منذ الطفولة، لم يتمكن أبدًا من منحها الحياة التي تخيَّلاها.

التقت زوجَها على متن القطار السريع بين شانغهاي وبكين. وكانت آنذاك -أي قبل عشر سنوات- شابةً جميلة في الثانية والعشرين من عمرها. كانت تسير في ممرات القطار، تُوزِّع المناشف الساخنة على الركاب، وتتلقَّى نظرات الإعجاب، والمجاملات حول شعرها الكثيف الطويل فاحم السواد. كان الرجال يديرون رؤوسهم ليلقوا نظرةً عليها من الخلف بعد أن تمر بجانبهم، بينما تلمحهم من زاوية عينها وهي تُسلِّم المناشف الساخنة واحدةً تلو الأخرى على طول الخط.

- ما اسمكِ؟

- منذ متى تعملين على متن هذا القطار؟

- من أين أنتِ؟

«شانا. أربع سنوات. كونشان». كان نيلسون أكبر منها بكثير، ولكنه مرحٌ ويجيد المُزاح، استمرَّ في طرح الأسئلة عليها، وطال حديثه معها أكثر من المُعتاد، طارحًا عليها أسئلةً لم تعتدْ عليها من الركاب الرجال الذين يكونون بمفردهم ويبادرونها بالحديث من وقتٍ لآخر، ثم بقي على متن القطار عندما وصلوا إلى بكين، رافضًا أن يترجَّل ما دامتْ هناك، مُعرِبًا عن رفضه المغادرة إلا إذا جاءت معه. أحدث مشهدًا كبيرًا، ممسكًا بمسند المقعد بينما كان صديقه يحاول سحبه بعيدًا. قابلَتْه في تلك الليلة، وأقنعها بترك وظيفتها والانتقال إلى العيش معه. تزوجا خلال ستة أشهرٍ، وانتظرا سنتين قبل محاولة الإنجاب، للتأكد من خلو جسمها من أي تسمُّم إشعاعي مُحتمل من العمل على متن القطار، ليُرزَقا بمايكل على الفور.

لم يكن رئيسها سعيدًا عندما تواصلت معه قبل بضعة أشهر، باحثةً عن فرصةٍ للعودة إلى العمل على متن القطار، وأجابها: «لم يعد لدينا شواغر في قطار الدرجة الأولى على خط شانغهاي-بكين».

سألته: «وماذا عن القطار البطيء؟».

وبعد صمتٍ طويل، أجاب أخيرًا: «ثمَّة شاغرٌ على قطار مطار بودونغ المغناطيسي المُعلَّق».

لم تكن وظيفة قطار المطار من الوظائف المرموقة، فرحلته عبارةٌ عن رحلةٍ سريعة، ذهابًا وإيابًا إلى وسط المدينة، ولم يكن قطار المطار لافتًا مثل قطار شانغهاي-بكين المغناطيسي المُعلَّق، أو قطار شانغهاي-هونغ كونغ المغناطيسي المُعلَّق، الرحلات الحديثة التي تستغرق ساعتين فقط. كانت تكنولوجيا قديمةً الآن، بدت بدائية. كان قطارًا عديم الفائدة في الحقيقة- فخًّا للسُّياح، حالةَ اختبارٍ. الجميع محمَّلون بحقائب كبيرة، مرتبكون بشأن ما يجب فعله.

أصبحت شانا اليوم أسمن، وكانت هناك فتياتٌ جميلات يعملن في كلِّ عربة، ستراتهنَّ تُناسب خصورهنَّ الصغيرة بخفَّة، أما سترتها فكانت ضيقةً وقصيرة وتتجمَّع حول مُنتصف جسدها. كانت تفتقد حياتها قبل نيلسون، وتفتقد بعض جوانب حياتها معه. الآن عادت إلى العمل مرةً أخرى، الآن عادت لتكون فتاة القطار مرةً أخرى. عدَّلت قبعتها الزرقاء وسحبت سترتها للأسفل بينما كان المسافرون يتدفقون من حولها، يصعدون إلى العربة.

***

ما السبب الحقيقي الذي دفعَ إيكو إلى السفر رفقة الفتاتين؟ ففي النهاية، كانت قد وافقت على أن ابنتيهما قد تجاوزتا مرحلة الطفولة. كانتا تسافران طوال الوقت إلى كيوتو، وطوكيو، وباريس، كانتا مسافرَتَين مخضرمتَين. ما الذي تُخفيهِ إذًا؟ ما الدافع الحقيقي للرحيل؟ سألها ليو مرةً، ومرتين، وثلاث مرات، وكان يعلم أنه مع كل سؤالٍ

تتناقص احتمالية الحصول على إجابةٍ صريحة، فدائمًا ما كانت إيكو تتشبَّث بموقفها على هذا النحو، ولكنه كان عنيدًا أيضًا. اعتادت إيكو أن تتجنب البوح بالحقيقة، أن تلفَّ وتدورَ حولها دون النطقِ بها، لكن ليو يجيد اصطياد الحقائق، يجيد استخراجها من الأعماق الكامنة تحت السطح.

خطرت له الفكرة وهو جالسٌ على متن القطار المغناطيسي: فكرةٌ بسيطة، وفي الوقت نفسه قاسيةٌ وقبيحة، لكنه سيواجهها وجهًا لوجهٍ بلا خوف. لم تكن إيكو تذهب لمساعدة ابنتيهما حقًّا، بل لتبتعد عنه. ربما لتجد شيئًا جديدًا. وربما حتى شيئًا أو شخصًا ليس بجديدٍ تمامًا.

اجتاحته موجةٌ من الذُّعر والغضب مثل تيارٍ كهربائيٍّ، فأغمض عينيه وعدَّ إلى العشرة، مركِّزًا على تنفُّسه، كما أخبره معالجه الجديد، الدكتور زو. «وماذا في ذلك؟» سؤالٌ آخر تعلَّمَ كيف يطرحه. كيف ستختلف الحياة اختلافًا جذريًّا؟ وما الدليل الذي يملكه؟ ما البرهان؟

ماذا في ذلك؟ ماذا في ذلك؟

توقَّفْ للحظة، وثبِّتْ تركيزك على الحاضر، على شيءٍ سعيد.

***

يتحرَّك القطارُ المغناطيسيُّ، بمقاعده الزرقاء الباهتة، ذهابًا وإيابًا، ذهابًا وإيابًا. إلى متى ستستمرُّ حركته؟ حتى يُنحَّى عن الخدمة، ويُصبح نسيًا. تذكَّر ليو حصانه القديم، باي، الذي لا بدَّ من أن تُنهى حياته هو أيضًا قريبًا. كان الحصان يعيش في الفندق المُجاوِر للمنزل على أرض المزرعة التي ابتاعوها عام 2032، عندما كان في ذروة -ماذا كان الدكتور وين يحب أن يسميها؟- نعم، ذروة «ارتيابه الهَوسِي».

لكن، رغم ذلك، لم تعتره ذرَّة ندم. المزرعة، والمنزل في جبال فانكوفر، والقارب الراسي على شاطئ جزيرة تشانغشينغ، والمنزل القَروي في تشجيانغ مع قبوٍ مملوءٍ بالماء، وسبائك الذهب، والمهور، والكروم في فرنسا، ومع ذلك لا يزال يشعر، في أعماق عقله، أن العالم على وشك الانهيار في المُستقبل القريب. كل الأساسات التي تدعم الحياة كما يعرفونها ستنهار تمامًا وعلى نحوٍ مفاجئ.

يجب أن يبقى هو وهم -البنات وإيكو- على قيد الحياة. إنهم مهمُّون جدًّا. «لمن؟» سأل الدكتور وين. لنفسهِ، بالطبع. ومن يعلم؟ ربما للعالم، لمُستقبل البشرية.

كان القطار المغناطيسي يمتلئ، ودخلت امرأةٌ شابَّة وسارت في الممر وصولًا إلى المقعد المقابل لليو. كانت يداها تعبثان بقبعةٍ حمراء تتماشى مع معطفها الأحمر وأحمر شفاهها -كما شعر ليو بدلًا من رؤيته من خلال نظرةٍ خاطفةٍ سريعة- وكانت متوترة.

***

لم يسبق لماري السفر على متن القطار المغناطيسي، كما لم يسبق لها أن زارت شانغهاي. في الواقع، كانت هذه أول رحلةٍ لها على الإطلاق بعيدًا عن المنزل. كانت في طريقها لمُقابلة رجل. تواصلت مع هذا الرجل أول مرةٍ عبر برنامج «وي تشات» WeChat قبل عام، وقد أرسل إليها المال لتغطية نفقة تذكرة الطائرة، وبطاقة ركوب القطار المغناطيسي، كما لو أن ركوبها القطار السريع من المطار إلى المدينة -حيث يُفترض أن ينتظرها- كان فيه نوعٌ من المتعة، لكنها لم تهتم كثيرًا بالقطار المغناطيسي، بل تمنَّت لو أنه أرسل إليها بعض المال للتسوُّق. ألن يكون من الأفضل لو قابلها مباشرةً في المطار؟ سيطر عليها شعورٌ بالتوجُّس. نظرت حولها، ورأت رجلًا جالسًا على الجانب

الآخر من الممر، وسيم الهيئة يرتدي معطفًا كشميريًّا يبدو باهظ الثمن، وشعره المتموِّج الكثيف مرصَّعٌ بشيبٍ خفيف عند الصدغين. رجلٌ شانغهاييٌّ بحق!

صدرت رنَّةُ تنبيهٍ من أبواب القطار المغناطيسي، ثم أُغلِقت، وانطلق القطار. تزايدت سرعتُه بسلاسةٍ وهدوء، وأظهرت الشاشة في مقدمة العربة عدادًا رقميًّا تسارعت أرقامه بالتزايُد من 1 إلى 400 كم/س. رغم قلقها بشأن الرحلة بأكملها، لم تستطع أن تمنع نفسها من الإعجاب بسرعة هذا القطار.

مرت مناظر شانغهاي بسرعةٍ خارج النافذة، بسرعةٍ كبيرة لدرجةٍ أصبحت معها مجرَّد طمسٍ من الألوان. لم تستطع ماري رؤية الكثير. كانت تنتظر رؤية المباني الشاهقة، واندفاع السيارات، والناس الأنيقين الذين يمشون متشابكي الأيدي على طول الواجهة البحريَّة لطريق البوند.

لكنهم كانوا لا يزالون في المناطق الخارجية من بودونغ. رأت ماري منظرًا مألوفًا يتألف من المنازل، وقطع الأراضي الزراعية، والمزارعين المجهولين الذين يمشون هنا وهناك. وجدت المنظر مشابهًا تمامًا لبلدتها، حيث درج والداها على زراعة الكرنب وإرساله إلى السوق، ليصل بعضه حتى شانغهاي. وفي أثناء تعبئة الكرنب في صناديقه الصغيرة، غالبًا ما راودت ماري هذه الفكرة: حتى هذا الكرنب سيرى شانغهاي قبلي.

كانت ماري ستشاهد أطول مبنى في العالم، وستلتقط الصور على البوند، وستركب الفقاعة العائمة أسفلَ برج ترانكويليتي، وسترتدي زيَّ حورية البحر وتسبح مع السلاحف في الحوض. كل الأشياء التي دفعت نقودًا لقاء رؤيتها والشعور بها وفِعلها على الشاشة، ستصبح حقيقيَّة في القريب العاجل.

لطالما راودتها الرغبة في الرحيل عن القرية، بل يمكن القول إن هذه الرغبة قد وُلدت معها، وكانت متأصلةً فيها واستثنائيةً كحالِ جمالها، وقد رعتهما على حدٍّ سواء. عندما زوَّدتهم الحكومة قبل خمس سنوات بشاشةٍ منزلية، ازدادت الأمور سوءًا، فمنذ ذلك الحين، أمضت ماري ساعاتٍ وساعاتٍ من يومها مسمَّرةً أمام الشاشة، تتجول افتراضيًّا في شوارع شانغهاي، وتحتسي القهوة الافتراضية، وتتحدث مع الغرباء في الحانات على طول البوند. في شانغهاي، لن يهتم أحدٌ بأنها تبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا، فقد سمعت أن النساء في المدينة يتزوجن حتَّى وهنَّ في سن الأربعين. لا يزال أمامها خمسة عشر عامًا، يمكنها أن تعيش حياةً كاملةً أخرى في خمسة عشر عامًا.

تركت ماري رسالةً صوتيَّة لوالدَيها على شاشة الأُسرة. لم يتعلم والداها القراءة قط، وبالكاد كانا يعرفان كيفية استخدام الشاشة، لكنهما سيريان ضوءها الأخضر الوامض، ويعرفان أن عليهما الضغط على الزر، ليتدفق صوت ماري قويًّا ومجردًا من العاطفة: «أمي، أبي، أنا ذاهبةٌ إلى شانغهاي. لا تبحثا عني. سأرسل المال إلى المنزل». وحزمت حقيبةً صغيرة مليئة بأجمل ملابسها.

ليست ماري سوى فتاةٍ من آنهوي، لكنها كانت تعلم أنها جذابة، بقامتها القصيرة، ووجهها القريب من الكمال، طالما أنها حدَّدت عينيها، الأمر الذي لا يتطلَّب سوى قطْع شرائط رقيقة من الشريط الشفاف القابل للذوبان وتثبيتها على جفونها الفردية، مما يزيد حجم عينيها ويمنحها جفونًا مزدوجةً. وقد أتقنت، على مر السنين، الزوايا ووضع الشريط المثالي لخلق الشكل المناسب، حيث كانت تفضِّل العين حادَّة الزوايا بدلًا من العين المُستديرة. ألقت ماري نظراتٍ خاطفة من النافذة، مُلاحِظةً حركة القطار السلسة. آه، ها هو القطار الآن ينعطف، ويمكنها

أن تشعر بارتفاعه إلى يسارها، مائلًا وهو يدخل في مُنعطف. شعرت أنها على وشكِ السقوط في الممر. هل سيساعدها الرجل الوسيم على العودة إلى مقعدها؟

تفحَّصت ماري وجهها في مرآةٍ صغيرةٍ، كانت عيناها تبدوان جيدتَين اليوم، حيث تتراوح حالتهما بين الجيدة والسيئة بتبدُّل الأيام. اعتادت كلَّ ليلةٍ قبل النوم أن تغسل بقايا الشريط اللاصق، بينما يدفع جلد جفونها السميك ببطءٍ التجاعيد الغريبة مُتخلِّصًا منها. سبق وقرأت عن حالاتٍ حيث أدَّى التدريب على استخدام الشريط على مدى سنوات إلى الحفاظ على تجعيدةٍ ثابتة إلى الأبد في جفون المُمارِس، ولكن بحلول الصباح كانت دائمًا تطلُّ على نفسها من عينيها الصغيرتين المُغطاتين بِطيَّتَين، وتعبيرهما الطبيعي الباهت والمُمِل.

كانت ماري تكره الصباح، ويرجع ذلك جزئيًّا إلى مظهرها، هيئتها الأصلية. إذ كثيرًا ما كانت تتأخر عن عملها في الفندق، لتجد وقتًا كافيًا لتثبيت شريطها. في حمامها الصغير، كانت المرآة، المحاطة بحلقةٍ من الضوء، مزينةً بقطعٍ صغيرةٍ من الشريط اللاصق التي لم تؤدِّ الغرض المطلوب منها كما يجب، وبالتالي، وعندما تشغِّل ضوء المرآة تبدو وكأنها شمسٌ بأشعةٍ كثيرة، أو أسدٌ ذو لُبدةٍ كثيفة، أو حبةُ خوخٍ حفر جوفَها جيشٌ من الديدان.

عندما تصل إلى شانغهاي وتقابل أخيرًا شين، سيمرُّ بعض الوقت قبل أن يقضيا الليل معًا. قرَّرت أن تُخضِع عينيها لجراحةٍ تجميليَّة في مستشفى الشعب التاسع، المشهور بجراحات التجميل. لا مزيد من استخدام الشريط اللاصق، ستتحرَّر من الشريط اللاصق! أثارتها الفكرة، أكثر حتى من فكرة مقابلة شين. ألقت نظرةً خاطفةً على الرجل بجانبها، وأدركت أنه يمكنها حتى أن تطمح للأفضل منه.

عندما نظرت من النافذة بعد ذلك، تغيَّرَ المشهد. كانوا الآن يندفعون بجوار كتلٍ شاهقةٍ من المباني السكنية، لا يزال بعضها قيد الإنشاء، وقد رفعت الرافعات أعناقها المعدنية نحو السماء.

***

ميَّزت شانا الرجل الجالس في المقعد 14C وتراجعت قليلًا. خلال سنوات عملها في القطارات لطالما صادفت بعض الركاب الودودين المعتادين، ولكن لم يحدث أن التقت أحدًا من معارفها الشخصيَّة. أنزلت سحَّاب سترتها لأسفل وسوت التجاعيد التي حُفِرت في بشرتها. كان وجه الرجل مألوفًا، لكن اسمه غاب عن ذهنها. ثم، فجأةً، تذكرت كيف قابلته. كان صديقًا لنيلسون من الجامعة، وقد انطلقا من النقطة ذاتها، لكن نيلسون خرج عن المسار، ووصل إلى حتفه في نهاية الأمر. راحت تراقب الرجل وهي تشقُّ طريقها في الممر. لقد تقدَّم في السن، لكنه لا يزال وسيمًا. عندما مرت بجانبه، أدارت وجهها بهدوءٍ بعيدًا، راغبةً في التواري عن أنظاره. تذكرت حديث نيلسون عن هذا الرجل؛ ليو. نعم، الآن عاد إليها كلُّ شيء، الاسم وكلُّ شيءٍ آخر. لقد حالف الحظ ليو بوصفهِ مستثمرًا مبكرًا في العقارات، حيث اشترى عدة شققٍ عندما كانت الأسعار في شانغهاي لا تزال رخيصة. سبق وزارت عائلته المكونة من زوجته اليابانية الفرنسية، المتعالية والجميلة، التي تتحدث دائمًا الفرنسية، وبناتهما الثلاث الصغيرات. منزلهم في أنفو لو مرةً للعشاء، ذلك المنزل الجميل المصنوع من الحجر والطوب الذي استأجره نيلسون عندما مُنحوا المال التأسيسي لمقهى «جوتيم Je t'aime». كان ذلك المنزل أيضًا مكتبهما، وكان ظليلًا وسريًّا، دائمًا ما يخرج شخصٌ ما من غرفة، يدور حول زاوية، يُنهي اجتماعًا، أو يسترخي في الفناء. دائمًا تجده عابقًا برائحة القهوة الطازجة، حيث مُلِئ كل شقٍّ من كل

طاولةٍ وكل مكتبٍ ببقايا القهوة، بالإضافة إلى الفراغات الموجودة في لوحات المفاتيح.

تتذكَّر شانا من المرة التي أحضر فيها ليو وزوجته بنتيهما للعشاء في منزلها ملاحظتها لعادتهما في مسك الأيادي، إذ ظلت يدا الزوج والزوجة في تلامسٍ مستمر، تلفُّ أصابع أحدهما أصابع الآخر، ولكن لم تكن تلك الملامسة غريبة، بل كانت لطيفة، وذلك لأن يدَي الزوجة كانتا لطيفتَين، أنيقتَين وطويلتَين، وقد جرى الاعتناء بهما على نحوٍ جميل، كما أن يدَي ليو كانتا مليحتَين أيضًا، كبيرتَين وذوَي راحتَين مُربَّعتَين. أمكنها أن تتخيل أن عناقهما يتميَّز بالدفء والتحفُّظ والرقة. أما الفتاتان فكانتا فاتنتَين، بوجهَيهما الجميلين مبكرَي البلوغ اللذين يعلوان جسديهما الطفوليَّين. كانوا يسافرون كمجموعةٍ واحدة، وكان حضورهم يشعُّ بالثراء، وبالطبع، وفي تلك المرحلة، حيث كان نيلسون قد خسر شركتَين بالفعل، بدأت شانا بإدراك حدود قدرات زوجها، وأنه لن يتمكَّن يومًا من منحها ما تملكه هذه العائلة.

في نهاية تلك الليلة، وبعد أن تبادلوا عبارات الوداع، كانت شانا في طريقها لرمي القمامة خارج المنزل عندما سمعت صوت ليو وإيكو، ورأتهما واقفَين تحت عمود إنارة على بعد بضعةِ مبانٍ. كان ليو يصرخ، وإيكو تحدق إليه بغضب، وكان وجهيهما واضحين، أنارتهما إضاءة الشارع. أين طفلتاهما؟ تذكرت شانا ذَيْنِك الوجهين، وتذكرت قلقها على الفتاتَين، ورأت كل تلك الأحداث الآن في مخيلتها.

***

نظر ليو من النافذة بينما كان القطار يعبر فوق جسر، كان في طريق عودته إلى منزله الخالي، وقد كره المنازل الخالية من سكانها. لسنواتٍ عديدة انتهت رحلات العمل الخاصة به باندفاعاتٍ من الطاقة

والإشراق، تمثَّلت بدخوله إلى المنزل بكل سرورٍ وحيوية، بينما تركض فتاتيه نحوه، وترتميان بين ذراعيه المفتوحتين، وبصرخات البهجة عندما يُخرِج من جيب معطفه هدايا صغيرة، فضلًا عن القُبلات الدافئة التي تطبعها زوجته على خده، وذلك بالرغم من النموِّ الحتمي للحيته خلال أيام سفره.

لكنَّه عَلِم ما ينتظره الآن، فالفتاتان الأكبر سنًّا كانتا بعيدتين، ويوكيكو في الخارج مع أصدقائها، أو ببساطة تشعر بفتورٍ شديدٍ تجاهه يعطِّلها عن السهر انتظارًا لعودته، وعَلِم أنه سيجد طبقًا من الفاكهة المقطَّعة تركته مدبِّرة المنزل ملفوفًا بغطاءٍ بلاستيكيٍّ على طاولة الطعام، وعُلبة «بيبسي» باردةً في الثلاجة. هذه الكولا السُّكرية هي مصدر الدلال الليليِّ الوحيد، وحفلة الترحيب بعودته إلى المنزل.

وبالتالي، أصبح ليو يفضِّل التجوُّل خارج المنزل بين الناس، ليحلَّ مشكلاته داخل رأسه، قضايا تتعلَّق بالعمل، وأُخرى بالإدارة، وتلك هي القضايا التي لا يُفضِّلها كثيرًا، ثمَّ المسائل الرياضيَّة مصدر راحته وسلواه. ورغم أن الرياضيات قد أصبحت مجرد هواية الآن، فإنه يقضي أوقاتًا طويلة منغمسًا فيها. شرع قبل عدَّة سنوات في مراجعة أُسس إطاره الفكري، ووصلَ إلى قناعةٍ مفادها أن ارتقاء الحدسيَّة[1]، والطبيعة اللاحتميَّة للكون، وعجزنا عن تصوُّر اللامتناهي، والانهيار الحتمي للنسبية... كلُّ ذلك يُنبئ بأن الماضي لم يعد قادرًا على التنبؤ بالمستقبل، كما لا يستطيع المستقبل التنبؤ بالماضي.

---

(1) الحدسيَّة أو الحدسيَّة الجديدة (على عكس ما قبل الحدسيَّة) في فلسفة الرياضيات، هي نهجٌ تُعتبر فيه الرياضيات مجرد نتيجة للنشاط العقلي البنَّاء للبشر، بدلًا من اكتشاف المبادئ الأساسية التي يُزعم وجودها في واقع موضوعي. (المترجمة)

وجبَ عليه أن يشكر يوكو، أو ربَّما أن يلومها. إذ كانت هي، ابنته الوسطى، الوحيدة التي أظهرت اهتمامًا بالأرقام والنَّظريات. عندما أهداها كتاب «تاريخٌ موجز للزمن» (A Brief History of Time)[1] في عيد ميلادها العاشر، استنشقتْهُ، تمامًا كما فعل هو عندما كان شابًّا. كانت يوكو تشبهه إلى حدٍّ كبير، وقد أيقظت فيه شغفًا قديمًا منسيًّا بكل تلك الأسئلة الجوهريَّة: سهم الزمن، وحدود فهمنا، ومسألة اللانهاية. لقد عملا معًا في الصيف الماضي على تحليل كتاب «الأصول» (Elements[2]) لإقليدس.

وجد ليو نفسه مؤخرًا يفكر في إعادة صياغة تخصُّصه في الهندسة والفيزياء من خلال عدسةٍ حدسيَّة، إذ أصبح واضحًا بالنسبة إليه أن الميكانيكا التقليدية لا تُمثِّل حقيقة العالم، وحقيقة الكون. كلُّ ما كان يؤمن به فيما يتعلَّق بالدقة اللامتناهية بحاجةٍ إلى إعادة التفكير، عندها فقط قد يفهم كيف تنشأ المعلومات عِوضًا عن مجرد الكشف عنها، أو كيف يمكن التنبؤ بالتغيير، أو حتى كيفيَّة التخلِّي عن التنبؤ به. عندما كانت يوكو أصغر سنًّا كانت تعمل على حلِّ مسائل الصف المتوسط في مكتبه، بينما يُعالج هو مسائله الخاصة، وقد درج الذين يدخلون

(1) «تاريخ موجز للزمن: من نظرية الانفجار العظيم إلى الثقوب السوداء» كتابٌ علميٌّ فيزيائيٌّ فلكي، من تأليف الفيزيائي البريطاني الشهير ستيفن هوكينغ. نُشر الكتاب للمرة الأولى في عام 1988، وقد استهدف هوكينغ فيه القرَّاء غير المتخصصين الذين لا يملكون معرفةً سابقة عن النظريات العلمية. (المترجمة)

(2) الأصول أو العناصر: هي مجموعةُ أطروحاتٍ رياضية تتكونُ من ثلاثة عشر كتابًا تُنسب إلى الرياضيَّاتي الإغريقي إقليدس في الإسكندرية، المملكة البطلمية عام 300 ق.م. تضمُّ الأطروحاتُ عددًا من التعاريف، والمُسلَّمات، والمبرهنات، والإنشاءات، والبراهين الرياضيَّة. تغطي الكتب الثلاثة عشر مواضيع الهندسة الإقليدية والنسخة القديمة من نظرية الأعداد الابتدائية. (المترجمة)

المكتب ويجدونهما في حالتهما تلك جنبًا إلى جنبٍ غارقَين بالصمت على ممازحتهما قائلِين: «أبي ويوكو، يفكِّران إلى الأبد في اللانهاية».

الآن عادت يوكو إلى المدرسة، حيث كانت تدرس بمفردها تحت إشراف الأساتذة. شعر ليو بألم الخسارة، إذ كانت يوكو بالنسبة إليه شخصًا مُميزًا، بالطبع كانت بناته جميعهن مميَّزات عنده، لكنها هي، هي ربما ستفهم كُلَّ شيء. مَن التي ترمقه بنظراتها؟ شعر ليو أنه كبير السن على هذه الألعاب، لكن رغم ذلك، تلاشى الإجهاد من عقله. لم يستطع منع نفسه من التحديق إلى الشفاه الحمراء المكتنزة، والعينين المُكحَّلتين، والساقين النحيلتَين المكشوفتَين اللتين تنبسطان من تحت التنورة القصيرة والمعطف الأحمر. يا للنساء! ثمَّة الكثير من النساء في هذا العالم. التقت أعينهما للحظة، ثم أشاح كلٌّ منهما نظره بعيدًا. أطلَّت نافذة ليو على منظر مكون من الحديد والفولاذ والسماء والسُّحب، ثنى راحتيه وشدَّ فكَّيه، وشعر الحيوان القديم في داخله بالمُتعة في أن يكون مُراقَبًا ومُقدَّرًا. لا يزال جذابًا وهو في أواخر سن منتصف العمر، ومرغوبًا من قِبل نوعٍ مُعين من الفتيات.

لا يشمل ذلك النوع الفتيات الصغيرات، بل النساء اللواتي يتمتَّعن بروح الشباب، النساء اللواتي يعرفن أنفسهنَّ حقَّ المعرفة، الفتيات الخبيرات. أدار ليو بصره إلى الممر، لكن الفتاة ذات الرداء الأحمر لم تكن تعاينه، بل كانت تحدق خارج نافذتها. وفي طَرفة عين، مرَّ قطارٌ مغناطيسيٌّ آخر من قُربها، فاهتزَّ القطار الذي يستقلُّونه كردٍّ فعل، مما أفزعها، فنظرت حولها في حالةٍ من الذُّعر.

التقت عيناها عينيه مجددًا، والخوف بادٍ على وجهها، مترافقٌ مع سؤالها: هل هذا أمرٌ طبيعي؟ هل هذه هي الطريقة الصحيحة لسير

الأمور؟ إذًا هذه هي أول مرةٍ لها على متن القطار، ابتسم ليو ابتسامةً هادئة مُطمئِنة.

كان القطار المغناطيسي يتحرك بسرعة، وعاجلًا سيبدأ الناس في حزم أمتعتهم، والتحرُّك ذهابًا وإيابًا على المنصة، ومُوازنة الحقائب على السلالم الكهربائية، وفي المصاعد. خلال تلك الحركة، حركة ذلك الفيض من الناس، ستتبدَّد الكهرباء الموجودة في الهواء.

لكن بعد ذلك، وعلى نحوٍ غير مُتوَّقعٍ بدأت حركة القطار بالتباطؤ، راقب ليو تضاؤُل الرقم الموجود على الشاشة أمامه، إذ انخفض وانخفض إلى أن أصبح رقمًا من خانة الآحاد فقط، ليتوقَّف أخيرًا عند الصفر. نظر الركاب حولهم، أحدهم نحو الآخر، لم يكن ما حدث صحيحًا، وقفَ ليو مُستطلِعًا الممر، بينما كان آخرون أيضًا يتطلعون حولهم، وينظرون عبر النوافذ، وبدأت الهمهمة تتصاعد. «ما الذي يجري؟» اجتاحت ذهن ليو فكرة أن الحرب قد اندلعت، الحربُ التي ستُخضِع كافة البلدان، بداية نهاية العالم، نهاية الأزمان. لكنَّه دفع تلك الفكرة بعيدًا، إذ إنَّ نهاية الأزمان لم تصل قط، وقد قرَّر قبل سنواتٍ عديدة أن يُخرِج هذه الفكرة من ذهنه.

شعر ليو برغبةٍ عارمة بالتقاط صورةٍ للمشهد، أراد أن يوثِّق هذه اللحظة، كما كان يحبُّ أن يفعل في الماضي، أراد أن يريها لزوجته، ويخبرها عنها، أراد أن يتكلم، لطالما شعر بالرغبة في التكلُّم، أما المشكلة فتكمن في كون إيكو لم تعدْ تُصغي إليه، إذ كان يتحدث لسنواتٍ بعيدًا عن أخذ رغبتها بالاستماع بعين الاعتبار، وفي النهاية، توقَّف عن التحدُّث معها توقُّفًا تامًّا تقريبًا، ولم يكن ذلك من باب معاقبتها، لكنها فقدت الاهتمام، وهو بدوره فقد الاهتمام أيضًا.

هل كان ينبغي لهما أن يعودا إلى فرنسا؟ هل كان ينبغي لهما أن يقضيا وقتًا أطول في كيوتو؟ من كان ليتصوَّر أنه -وأنهم- سيظلُّ في شانغهاي بعد كل هذه السنوات، وأنه وعائلته سيعيشون بقية حياتهم في مدينته الأم؟ من أجل عمله ظاهريًّا، نعم. ولكن هل أبقاهم جميعًا هنا دون غاية؟ هل كانوا ليشكِّلوا عائلةً مُختلِفة في فرنسا أو في اليابان؟ أيُّ نوعٍ من العائلات؟

***

تقدَّمت شانا وسارت في الممر، مُتجنِّبةً الرؤوس التي كانت تبرز على طول طريقها، وحشرت نفسها في مقصورة السائق، لتجد جمهرةً من الأشخاص المُحتشدِين في المقصورة.

- لقد اصطدمنا بشيءٍ ما، وكانت سرعة القطار أكبر من أن نتمكَّن من رؤيته.

- حسنًا، ما هو ذلك الشيء؟ على السكَّة؟

سألت شانا: «لا يمكن أن يكونَ إنسانًا، أليس كذلك؟».

بعد أن صمتَ قليلًا، هزَّ السائق رأسه قائلًا: «لا أعتقد ذلك».

- لكنك لم ترَ الشيء الذي صدمتَه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- كيف كان صوت الاصطدام؟

- مثل صوت فرقعةٍ صغيرة.

- مَن سيترجَّل مِن القطار ليتحقَّق من حقيقة الأمر؟

تواصل السائق مع هيئة المواصلات عبْر الهاتف، وكانوا في طريقهم إليه، إذ يجب أن يفحصوا القطار قبل أن يُتابع رحلته.

لم يسبق لشانا أن تعرَّضت لحادثة سيرٍ في القطار، عندما بدأت عملها كمضيفةٍ تلقَّت تدريبًا منتظمًا لمواجهة مثل هذه المواقِف، لكنها

شاركت في التدريبات بفتورٍ وتراخٍ، لم تواظب يومًا وتجتهد، بل اعتمدت على شبابها وجمالها في حينها.

بدت كلُّ تلك التدريبات كأنها حدثت منذ زمنٍ بعيد للغاية، قبل نيلسون، وقبل البداية الصعبة لموته. تسارعت نبضات قلبها، كانت متحمِّسة ومتوتِّرة وخائفةً أيضًا، لكنها رغم ذلك ستتمكن من إحكام السيطرة على عربتها. اعتراها الشعور ذاته الذي يعتريها عادةً كلَّما ركض ابنها على الصخور التي تُرصِّع النهر، عابرًا إلى الضفَّة الأُخرى، إذ يناديها: «أُمي!»، فتحبس أنفاسها، وتُجبر نفسها على القفزِ من صخرةٍ إلى أخرى بثقةٍ مُماثِلة. لم ترغب أن تُعلِّم ابنها الخوفَ من أيِّ شيء.

قالت عائدةً إلى عربتها: «هدِّئوا من روعكم. كلُّ شيءٍ على خيرِ ما يُرام. سنُجري تحقُّقًا سريعًا من النظام، وسنعود لمتابعة الرحلة بلمح البصر. نشكر لكم صبركم».

رأت ليو يرفع بصره محدقًا إليها، ثم يعيد النظر إلى ساعته. لم يتعرَّف عليها. رأت الفتاة الشابَّة في الجهة المقابلة له من الممر ترتعش خوفًا، وهي تنظر حولها بعينَين مفتوحتَين على اتساعهما، ونظرة عجز، كأن لسان حالها يقول بصمتٍ: ساعدوني! بدت فتاةً اعتادت تلقِّي المُساعدة طوال حياتها، بدت مليحة الهيئة، لا بل جميلة، كأنها لعبةٌ صغيرة. أرهق شانا النظرُ إليها، أصبحت مؤخرًا تشعر بالإرهاق دائمًا.

***

عندما توقَّف القطار، تخيَّل ليو الأبواب تنفتح، بحيث يمكنه أن يخرج، ويهبط المسارات الشاهقة، وصولًا إلى العُشب. لم يشعر بالسعادة منذ سنوات، وبالتالي فكَّر في اصطحاب الشابة الجميلة، والهروب من القطار. عاد إلى ذاكرته المنزل القديم في ضواحي المدينة، الأراضي الزراعية، والهياكل الزجاجية التي تمتدُّ نحو السماء. تذكَّر عطلات نهاية

الأسبوع التي كان يقضيها مع الحيوانات، وألعاب الطاولة، وركوب المُهور مع فتياته على الجبل.

تخيَّل ليو نفسه يركض عبر الحقول، ويستوطن هناك، فبناته قد كبرنَ عمليًّا، وأصبحت إيكو تكسب مالها الخاص الآن. تلك الأيام التي عاشها في المزرعة كانت أسعد أيام حياته، ويمكنه أن يعيد خلقها الآن مع شخصٍ جديد. لا تزال الأرض ملكه، ويعتني بها مزارعٌ محليٌّ، يرسل أسبوعيًّا صندوقًا كبيرًا من الخضراوات إلى منزلهم في شانغهاي.

سيختبئ هناك، كم سيستغرقهم الأمر للعثور عليه؟ هل سيبذلون جهدًا جماعيًّا في البحث عنه؟ سيربِّي ابنًا، صبيًّا، بالطبع، وسيعلِّمه في المنزل، وكل شيء، هذه المرة سيضع الأمور في نصابها الصحيح. يمكنه أن يفعل كلَّ شيءٍ مرةً أخرى، يمكنه أن يخلق حياةً جديدة مُستدامة بالكامل.

فتَّشت الفتاة الشابة في حقيبتها، وأخرجت مرآةً صغيرة، عدَّلت أحمر شفاهها، ووخزت جفونها باستخدام ظفرها الصغير، شادَّةً جلدها بحركاتٍ أظهرتها بمظهرٍ غير طبيعيٍّ، وغير إنساني. رأى ليو الأمر بوضوحٍ عندها: الفتاة الشابة، وانعدام الأمان في مرحلة الشباب. ما أصعب السنوات الأولى من التشارُك! سنوات التكيُّف والتفاوض، ثم اللين في النهاية. هنا تكمنُ مشكلة ليو، إذ تتملَّكه الحاجة إلى فعل الأشياء بالتمام والكمال وعلى نحوٍ صحيح. لا يمكن أن يتمحور الأمر حول الجنس فقط، بل لا بدَّ أن يقودَ إلى حياةٍ كاملة، طفلٌ ومزرعةٌ ونظامٌ كاملٌ قائمٌ بنفسه. وكذلك لن يستطيع أن ينسى مَن هو، ومَن هم، وكيفَ شكَّلوه. بالنسبة إلى علاقته بعائلته، فهي الآن علاقةٌ قوية لا يمكن حلُّ روابطها، ففي النهاية، قد أحبَّهم جميعهم، ولا يزال يُحبِّهم، كما أن إيكو لا تزال تجذبه بأسرارها، وصمتها، وجمالها الصارم.

بدأ القطار بالتحرُّك، تصاعدت الأرقام الظاهرة على الشاشة ببطءٍ بدايةً، ثم بسرعة. راحت امرأةٌ تهدهد طفلها الرضيع الذي اهتاج، بينما مدَّد شابٌّ ساقيه الطويلتين في الممر، مرتدِيًا شورت وصندل، وتابعت امرأةٌ كبيرةٌ بالسن حديثها مع أمها الأكبر منها سنًّا، هذا الحديث الذي لم يتوقَّف من الأساس. عاد جميع الرُّكاب واستقرُّوا في مقاعدهم، ونظروا حولهم قبل أن تتركَّز أنظارهم مجددًا على النوافذ. كادوا أن يصلوا الآن، كادوا أن يبلغوا المنزل.

جاذبيَّةٌ حمراء

يناير/ كانون الثاني 2040

وقفت الفتاتان جنبًا إلى جنبٍ في السوق الحرَّة، وقد أدارتا ظهريهما لوالدتهما، كأنهما تعملان على مشروعٍ صعب، أو تتبادلان الأسرار.

تغيَّر شيءٌ ما في يوكو، شيءٌ لم تستطع إيكو تحديده، ربما ظهر لديها حديثًا وعيٌ بالذات. أما ابنتها الثانية فكانت مختلفةً على نحوٍ ما.

ولكن، ما الذي توقَّعته؟ من المؤكَّد أن عيش المرء بمفرده سيغير أشياءَ كثيرة. ألم تتغيَّر هي نفسها بعد أن غادرت منزل أهلها بغرض الدراسة في الكُليَّة؟ ثم ألم تتغير مرةً أخرى بعد وصولها إلى شانغهاي؟ شعرت إيكو أنها، لسنواتٍ عديدة، قد غيَّرت شكلها وتكيَّفت وتحسنت، ودفعت حدود شخصيتها ومعالمها، لدرجة أنها تمدَّدت وأصبحت بلا

شكل، نحيفةً، أميبيَّة[1]. يمكن تشكيل الشيء وإعادة تشكيله، ولكن ما هو جوهره وشكله الأساسي؟ ربما الأُم فقط يمكنها أن تعرف.

أملت إيكو أن تجد فتاتاها رجالًا يحبونهما لِما هُما عليه، بحيث يعتزُّون بماهيتهما الحقيقيَّة ويصقلونها، دون أن يحملوهما على التغيُّر. حسنًا، ربما تحتاج شخصية يُومِي إلى بعض التعديلات، بحيث تصبح أقلَّ لؤمًا، وأقلَّ خشونة.

متى شرعت يوكو بوضع المكياج؟ ما الذي اعتراها خلال الفصل الدراسي الأخير في المدرسة الداخلية، في الأشهر بين الصيف والشتاء؟ هل بدأ الفتيان، وأخيرًا، يثيرون اهتمامها؟ لطالما كانت يوكو غافلةً عن جمالها، وقد كانت الأجمل بين أخواتها، وذلك بالرغم من أن يُومِي قد وضعت جهدًا أكبر في محاولة إبراز جمالها. فكَّرت إيكو باحتمال أن هذا الأمر بالتحديد هو مصدر قسوة يُومِي على مر السنين.

أرادت إيكو لهذه اللحظة أن تستمر، وأملت أن تكون لمحةً عن المستقبل، مستقبلٌ حيث تنسجم ابنتاها الأكبر سنًّا معًا. استدارتا ونظرتا إلى أمهما، حيث كانتا قد وضعتا لون أحمر الشفاه ذاته على شفتيهما، أحمر فاقع ولامع. شهقت إيكو من هول صدمة اللون، إذ بدت الفتاتان للحظةٍ متشابهتين إلى حدِّ التطابق تقريبًا. فوجئت إيكو بالشبه بينهما، إذ إن شفتَي يُومِي مثلَّثتان وصغيرتان، بينما شفتا يوكو فممتلئتان ومُستديرتان، ولكن لون أحمر الشفاه المُطابق طغى على الاختلافات جميعها. اعتادت عند النظر إلى بناتها على المقارنة بينهنَّ؛

---

(1) الأميبا أو المتحوِّلة: كائنٌ حيٌّ وحيد الخلية، غير منتظمة الشكل، لديها بروزات في جسمها تُعرف بالأقدام الكاذبة حيث تظهر وتختفي من منطقة إلى أخرى في جسمها، وبالتالي ليس لها شكلٌ مُحدَّد. استخدمتها الكاتبة في هذا السياق للإشارة إلى التحوُّل المستمر. (المترجمة)

فيُومِي نسخة عنها من ناحية الهيئة، ويوكو ورثت أنف والدها المرفوع، أما كيكو فجميلة، لكنها غالبًا تجرِّب أيًّا ما يصدُر من صيحاتٍ جديدة.

اقتربت إيكو من مكان وقوفهما، أمام كشكٍ لبيع المكياج باهظ الثمن من بين العديد من أكشاك المكياج الأخرى، حيثُ عُرِضت المنتجات بدوائر حمراء ووورديَّة وبرتقاليَّة. فكَّرت إيكو بحقلٍ من الزهور، وبلوحةٍ لسورا[1] يظهرُ فيها مقعدُ حديقةٍ في فصل الخريف.

قالت يُومِي: «سأشتري هذا». لقد توقَّفت عن طلب الأشياء منذ أن غادرت المنزل للالتحاق بالكلية، منذ أن منحوها حساب ائتمانٍ خاصٍّ بها. تصلهم الفاتورة مرَّةً في الشهر، وعادةً ما تُظهِر صرفًا يفوق العاديَّ على القهوة، والوجبات الجاهزة، والطعام المكسيكي في وقتٍ مُتأخِّرٍ من الليل، والتسوُّق في أسواق نيوبيري وبويلستون. تضاربت مشاعر إيكو فيما يتعلَّق بأسلوب إنفاق بناتها، فمن ناحية كان إنفاقهنَّ بلا حساب، وشعورهنَّ بالأمان الماديِّ الدائم مصدرَ راحةٍ لها، بل ومنحها أيضًا إحساسًا مجنونًا بالغرور. انظروا على ماذا حصلن، انظروا إلى حريتهن. ومن الناحية الأخرى تجد نفسها أحيانًا تتساءل ما إن كانت قد أخطأت في منحهنَّ هذه الحرية، ما إن كان خيارها قد أفسدهنَّ، وما إن كانت قد ارتكبت خطأً فادحًا.

مسحت يُومِي الرمز لتدفع، وشعرت إيكو بنوبةٍ من الحزن عند رؤيتها لفتاتيها على هذا النحو، مستقلتان، فذلك يعني أنها قريبًا ستتركهما، لقد اتَّخذت قرارها. إنهما كبيرتان بما فيه الكفاية، أجل، بأحمر شفاههما، وبطاقاتَي الائتمان خاصتيهما، ليستا بحاجةٍ إليها

(1) سورا: فنانٌ فرنسي اشتُهر بتصوير الضوء وانعكاساته باستعمال لطخاتٍ صغيرةٍ متضادة الألوان.

بعد الآن. ولكن اضطرارها إلى تقاسُم العُطل والرحلات، ولاحقًا الحيوات والعائلات والأحفاد مع ليو، سيكون أمرًا محزنًا، أليس كذلك؟

لقد تواصلت إيكو -لا، هذه ليست الكلمة المناسبة، فالأصح القول إنها قد أعادت التواصل- مع صديقٍ قديم، صديقٌ سبق وواعدته في عامها الأوَّل في الكلية، قبل أن تلتقي بليو.

يُدعى ذلك الصديق ديفيد، وقد فعلت الكثير من الأشياء لأول مرةٍ معه، فمعه تجرَّعت التكيلا ورقصت حتى فقدت الوعي، ومعه وشَمَت الرسم الصغير على شكلِ دائرة، والذي أخفته على مؤخرةِ عنقها. كان ديفيد أول فتًى يصحبها في رحلةٍ خارج باريس، حيث ذهبا في عطلة نهاية أسبوع إلى لاهاي، وكانت رحلةً مجانية، حصل عليها لقاء النقاط التي جمعها من استخدام بطاقته الائتمانية. اليوم، لا يمكنها أن تتخيَّل مكانًا أكثر مللًا منه، لكنه كان رائعًا في ذلك الوقت، أليس كذلك؟

مَن كانت في حينها؟ ذكيةً للغاية، ولطيفةً للغاية، وغير معتادةٍ على المواجهة. بعض الأشخاص يُخرِجون أفضل ما فيك، بينما يُبرِز آخرون أسوأ ما لديك. لماذا لم تنجح علاقتهما قبل سنواتٍ عديدة؟ لم تجده إيكو جذابًا بما فيه الكفاية، ولكن في النهاية فهمت كم أن هذا كلَّه مجرد شيءٍ عابر، وكم أنه زائف، وغير ضروري.

رأت إيكو الصور القليلة التي نشرها ديفيد على مر السنين، صورٌ تظهر فيها المرأة التي تزوَّجها، والابن الذي ربَّاه، ثم الاختفاء التدريجي لصور المرأة، لقد تطلَّقا.

بعد ذلك أنشأ زميلٌ من زملاء دراستها مجموعةً على موقعٍ إلكترونيٍّ ما، ودعا إليها زملاء دراسته جميعهم، وأصدقاءهم ليجتمعوا من جديد، بغرض الدردشة واسترجاع الذكريات والتواصل. لم يُدعَ ليو إلى المجموعة لأنه كان في كلية الدراسات العُليا. عندما التقى ليو وإيكو

كانت هي بعمر العشرين، وبدا ليو أكبر منها بكثيرٍ، وحكيمًا بما يتجاوز سنَّه الحقيقيَّة.

أما ديفيد -الذي راحت الآن تُقلِّب بين صوره، ومقاطع الفيديو التي نشرها، وتعيد قراءة الرسائل المُتبادَلة بينهما- لم يكن فيه ما يُخالِف المألوف لعمره، لكنه كان ودودًا للغاية، ودون داعٍ للطف. عندما عرِف أنها قد ترافق بناتها إلى بوسطن، اقترح عليها أن يطير إلى نيويورك في رحلة عمل، واتفقا على اللقاء من أجل غداء لمِّ شملٍ وديٍّ في متحف الفن الحديث.

انتهت يُومِي من شراء مكياجها، وكانت تنتظر، ونادت: «ماما». رفعت إيكو عينيها، ثم حاجبيها، وأجابت: «نعم؟».

- سأذهب لإلقاء نظرةٍ على بعض المتاجر، سألتقيكِ عند البوابة. اتفقنا؟

- حسنًا.

- يوكو، هل ستأتين معي؟

- لا، أعتقد أنني سأُلقي نظرةً على أحمر الخدود.

حدجت يُومِي أختها بنظرة، وقالت: «ستظلين دومًا غريبة الأطوار، ولن يستطيع كل هذا الكمِّ من المكياج إخفاء ذلك». ثم غادرت، وهي تلوِّح بيدها في الهواء، قائلةً: «وداعًا، يا غريبة الأطوار».

شعرت إيكو بوخزةِ ألم، وهو ألمٌ اعتادت الشعور به نيابةً عن يوكو التي كانت دائمًا موضع سخرية يُومِي، ولكن ذلك لم يكن بشيءٍ يُذكر، إذ يمكن أن يكون أسوأ، بل أسوأ بمراحل. واصلت يوكو استعراض ألوان أحمر الشفاه، وهي تفتح وتُغلق غطاءً تلو الآخر. أعادت إيكو تركيز

نظرها على هاتفها، وتوقَّفت عن التقليب عند صورةٍ لديفيد في مزرعة، مُرتديًا ما بدا كأنها قبَّعة رعاة البقر، فابتسمت.

- أوكاسان[1].

سمعت إيكو الكلمة، وتجمَّدت في مكانها، إذ لم ينادِها أحدٌ بهذا اللقب منذ سنواتٍ. كانت اليابانية لغة الطفولة بالنسبة إلى بناتها، ثمَّ حلَّت محلها الفرنسية والصينية، ثم الإنجليزية. وضعت هاتفها جانبًا، ونظرت على وجه ابنتها في المرآة.

كانت الدموع تتدحرج على وجنتَي يوكو وهي تقول: «أوكاسان، أُمي». نظر الوجهُ في المرآةِ بعيدًا، وتمتمَ بكلماتٍ لم تتوقَّع إيكو سماعها من ابنتها الوسطى، بل من أيٍّ من بناتها بهذه السرعة: «ماما، أنا حُبلى».

طنَّت طائرةٌ بلا طيار فوق رأسيهما، فأدارت إيكو ظهرها لها، ولفَّت يوكو بين ذراعيها لتُجنِّبها الظهور في الكاميرا الخاصة بالطائرة. لا يمكنها تذكُّر آخر مرةٍ احتضنت فيها يوكو، إذ إن ابنتها هذه لم تكن تهوى العناق، وهي بهذا الجانب تختلف عن يُومِي التي ما تزال حتى الآن تسمح لإيكو بمداعبة شعرها في أثناء مرورها، وكيكو التي اعتادت الجري إلى حضن أمها بعد انتهاء كل عرضٍ من عروض الرقص، وبعد كلِّ إسدالٍ لستارة المسرح. مع يوكو، ومنذ وقتٍ طويلٍ الآن، لم تجد إيكو دعوةً من طرفها، أو عذرًا مقبولًا لأي اتصالٍ جسديٍّ بينهما، وفي بعض الأحيان شعرت إيكو أن ابنتها تشمئزُّ من حضورها حتى، تُحرِّك ساقها بعيدًا إذا حدث ولامست ساق والدتها على الأريكة، كما أنها اكتفت بإيماءة رأسٍ سريعة عندما هنأتها إيكو على المركز الذي أحرزته في مسابقة الروبوتات أو الرياضيات. لطالما اعتقدت إيكو أنها ميالةٌ إلى أبيها، وقررت أن تمنحه ذلك.

---

(1) أوكاسان (okaasan) كلمة يابانية تعني الأم. (المترجمة)

أخذت إيكو وقتها كاملًا في احتضان يوكو، وكانت رائحتها تشبه رائحة أختها الكُبرى -جوز الهند والحليب- إذ تشاركتا الحمَّام ذاته، واستعملتا الشامبو نفسه. تحوَّل بكاء يوكو إلى شهيقٍ الآن، حيث كانت إيكو تهمس في أذنها عبر شعرها الناعم: «كلُّ شيءٍ على ما يُرام، لا تقلقي. سوف أساعدكِ».

سقط أحمر الشفاه الذي كان بيد يوكو على الأرض، فأفلتتها إيكو من بين ذراعيها لتلتقطه، وكان أحمر شفاه فاخر من ماركة شانيل «جاذبيَّة الأحمر».

- لا تُخبري أحدًا، أرجوكِ يا أمي. لا أبي، ولا يُومِي، ولا كيكو. لا أحد، رجاءً!
- حسنًا، لن أخبر أحدًا. دعينا نذهب لنجلس على مقعدٍ، ما رأيكِ؟
- ماما، أريد هذا...
- أوه، قلم الحُمرة؟ بالتأكيد.

التقطت إيكو قلم الحُمرة، ثم واحدًا آخر مثله، وأحضرتهما إلى منضدة الحساب. لقد أصبحت هذه العادة قديمةً بحلول الآن، فمنذ زمن اعتادت إيكو على شراء قطعةٍ لكل فتاةٍ من كل شيء. ارتعشت يداها وهي تستلم حقيبة التسوُّق. كانت ابنتها حاملًا خلال العُطلة الشتوية، على طاولة العشاء، في السيارة، تحت السقف ذاته، بل ربما أيضًا اكتشفت يوكو هذا الاكتشاف المُدمِّر في المنزل. سحبت إيكو نَفَسًا عميقًا، وراحت تُفكِّر بالخيارات المُتاحة: الولايات المُتحدة الأمريكية؟ لا، سيكون من الصعوبة بمكانٍ إجراء الأمر على نحوٍ غير قانوني، ربما الحلُّ بالعودة إلى شانغهاي، أو اليابان، أو باريس، أي الأماكن التي يعرفونها أكثر.

أومأت إلى يوكو لتنضم إليها، ومشيتا معًا إلى البوابة. لا يزال هناك متَّسعٌ من الوقت قبل الصعود إلى الطائرة، وبالتالي ستستمرُّ يُومِي

بالتسوُّق حتى آخر دقيقةٍ ممكنة، تستطيع إيكو أن تتخيلها وهي محتارة ومترددة، تجرب الأشياء مرارًا وتكرارًا غير راضيةٍ عن تفصيلةٍ صغيرة هنا أو هناك.

- إذًا، ماذا حدث؟

أرادت إيكو أن تبدأ كلامها بقولٍ أكثر مواساةً، لكن الكلمات خرجت من فمها قبل أن تستطيع التفكير بما يجب قوله، وبالتالي حاولت مرةً أخرى، وقالت: «هل ترغبين بالحديث عن الأمر؟».

كانت عينا يوكو منتفختَين قليلًا، وشفتاها ما تزالان تلمعان باللون الأحمر، لكنها استعادت رباطة جأشها، وعادت إلى طبيعتها، وبدأت حديثها بالقول: «ثمَّة شابٌّ في المدرسة». كانت تشيح بنظرها عن والدتها وهي تتكلم، مركِّزةً بصرها على المحطة. جلست إيكو بجانبها، وفصلت بينهما ذراع المقعد المعدني، وشعرت أنها بعيدةٌ عنها مجددًا. قالت يوكو وهي تهزُّ رأسها: «لا أعرف ماذا أقول، لقد تخلَّينا عن الحذر».

لم يسبق لإيكو أن تحدَّثت مع بناتها صراحةً حول العلاقات الجسدية، أو الفِتيان، أو وسائل منع الحمل، لقد خذلتهنَّ في هذا الصدد. أعلنت مكبِّرات الصوت عن النداء الأخير للرحلة المتوجِّهة إلى لندن، استمعت كلاهما إلى النداء إلى أن انتهى بنسخته الصينيَّة، ثم الإنجليزية.

سألتها إيكو: «هل هو خليلكِ؟».

- أعتقد ذلك، أجل.

أومأت إيكو وهي تشعر بالارتياح، فعلى الأقل لم يحدث ذلك بالإكراه. وسألتها: «هل يعلم؟».

- لا، لا أريده أن يعرف.

نظرت يوكو بعينَي والدتها، وتابعت: «إنني بحقٍّ وبجدٍّ لا أريد أن يعرف أحد».

- حسنًا، إنني أتفهَّم ذلك.

أرادت إيكو أن تُمسك يد ابنتها، فهذا بالضبط ما كانت لترغب به هي لو أنها في مكانها، لكن اللحظة المناسبة بدت كأنها ولَّت الآن، وضاعت الفُرصة.

- ماما، إلى أين سنذهب؟

- سنطير بدايةً إلى بوسطن، إذ علينا أن نوصل يُومِي إلى المدرسة، وبعدها يمكننا أن نفعل الأمر. ما رأيك؟

أومأت يوكو. قالت إيكو: «لا يمكن أن نُجري العملية في الولايات المتحدة، فالوضع خطِرٌ للغاية هناك. ما رأيك بأن نعود إلى شانغهاي؟

- مستحيل. مستحيل.

- يمكننا الحذر، ونختبئ في بودونغ أو شيء من هذا القبيل.

- لا، ليس في شانغهاي.

- حسنًا، فلنذهب إلى باريس. أجل، باريس. يمكننا الإقامة في الشقة القديمة، والرحلة ستكون أسهل. ما قولك؟

- بالطبع، باريس.

- سأتواصل مع المدرسة لإبلاغهم بأنك ستغيبين بضعة أيام، لأنكِ لستِ على ما يُرام.

- هل سيكون الأمر مؤلمًا؟

كذبت إيكو قائلةً: «ليس كثيرًا».

- ماذا ستقولين لأبي؟

- لن يعرف أنكِ تغيَّبتِ عن المدرسة، لن يسأل البتَّة. أما بالنسبة إليَّ، فسأقول إن طارئًا ما قد استجدَّ مع جدتكِ، بل يمكننا حتى أن نذهب إلى زيارتها معًا إن رغبتِ بذلك، لنرى منزلها الجديد، فالمكان جميلٌ هناك، وليس بعيدًا عن باريس.

- لا أعرف، ربما.

- حسنًا، فلنتهاون بالأمر، وندع القرار إلى وقتٍ لاحق.

- ماما، أنا آسفة.

- يوكوشان، لا داعي للاعتذار البتَّة.

- ماذا بشأن تمريني؟

- سيتثنَّى لكِ حضوره، لا تقلقي. سأخبر المُدرِّب أنكِ ستصلين بالقريب العاجل. أنتِ نجمةُ الفريق، ولن يحلَّ مكانكِ أحد.

كانت يوكو، ومنذ الصيف الماضي تتدرب لأولمبياد الرياضيات، وقد ضمنت مكانها في الفريق الأمريكي الوطني. أرسلتها إيكو وليو إلى الولايات المتحدة على وجه الخصوص لتتمكن من الدراسة في واحدة من المدارس الثانوية التي تُدرِّس أفضل برامج رياضيات في العالم. وفي العام التالي، انضمت يُومِي إلى أختها في منطقة بوسطن، جامعة هارفارد.

اشترت إيكو التذاكر إلى باريس باستخدام العملات الرقمية، تلك العملات التي حوَّلتها من مُدَّخراتها من العمل بالتطريز. سمعتا الإعلان عن بدء صعود الركاب إلى الطائرة.

مشت يُومِي نحوهما، وهي تحمل بضعة أكياس تسوُّق، وقالت وهي تضع حقيبةً صغيرة في حضن إيكو: «ماما، لقد اشتريتُ هذا لكِ، سيبدو أجمل عليكِ مما يبدو على يوكو!». لقد كان طلاء الشفاه الأحمر.

***

وصلوا إلى بوسطن قبل وقتٍ قصيرٍ من إعلان إغلاق المطار لمدة أربع وعشرين ساعة، وبعد أن ذابت الثلوج الناجمة عن العاصفة الثلجية. وبينما كانوا يستقلُّون سيارتهم، محاولين بحذرٍ تخطِّي البرك المائية، شاهدوا مجموعةً من العملاء المسلَّحين يتدفقون عبر الأبواب الأمامية للمبنى، تذكرت إيكو حينها مدى كراهيتها لأمريكا. وبعد أن استقرت يُومِي في غرفتها بالسكن الجامعي، وقضتا ليلةً في فندق تشارلز، طارت إيكو ويوكو إلى باريس، هبطت رحلتهما في المساء، وهو الوقت المفضل لإيكو. كانت شوارع المدينة تتلألأ بأضواء المصابيح المتوهِّجة، وأشعة الشمس الصفراء الغاربة.

خطَّطت إيكو لاصطحاب يوكو إلى الطبيب النسائيِّ في الصباح الباكر، وذلك لتحديد موعد ووقت الإجراء الطبي. أخبرت ليو أنها ستتأخر بالعودة إذ عليها التعامل مع بعض الأمور المُتعلِّقة بوالدتها، وأن دافني مريضة، لذا ستتوقَّف في طريق العودة لزيارتها. أدركت إيكو أن كذبتها هذه شنيعة، لكنَّ ذهنها عجز عن الإتيان بحجةٍ أفضل.

ساد الصمت في السيارة التي أقلَّت إيكو ويوكو إلى الدائرة الخامسة عشرة، فيوكو من عاداتها أن تظلَّ صامتة، ولطالما، ومنذ البداية، كانت مختلفة، إذ عجزت عن التعبير عن نفسها لفظيًّا حتى سن الخامسة، مما دفع والديها إلى تأخير التحاقها بالمدرسة مدةَ عامٍ لتتمكن من تلقِّي علاجٍ مُكثَّف للنطق. وفي مرحلةٍ ما من مراحلِ دراستها أصاب يوكو، الوحيدة غالبًا، هوسٌ بزميلةٍ من زملاء الدراسة، وهي فتاةٌ من جنوب إفريقيا، تُدعى آنجل، وقد حدث ذلك ما بين الصف السابع والثامن. أصرَّت يوكو على مُصادقة آنجل، وعلى شراء الهدية المثالية لها في عيد الميلاد، لدرجةٍ جعلت إيكو تتساءل ما إن كانت ابنتها، ببساطةٍ،

مهووسة، لكن آنجل، في الواقع، لم تُبدِ اهتمامًا بمصادقة يوكو، وبالتالي انتهى الأمر بهدوءٍ، وتلاشى.

تقع الشقَّة في الطابق العُلوي من بنايةٍ غير مُجهَّزةٍ بمصعد، حالما تعرَّف جهاز المسح بالأشعة على وجهيهما، ودخلتا إلى الشقة، أغلقت يوكو الحمَّام على نفسها لمدة عشرِ دقائق، مصدرةً صوتَ تقيؤ بين الحين والآخر.

اعتبرت إيكو هذه الشقة المكوَّنة من غرفة نومٍ واحدة في الدائرة الخامسة عشرة منزلها منذ أن كانت في الثانية عشرة وحتى العشرين من عمرها. كانت والدتها قد اشترتها في أوائل الألفية، بعد قرابةِ عقدٍ من الكفاح في باريس، وحيدةً مع إيكو، وبعيدةً عن كلِّ ما سبق وعرفته في اليابان موطنهما الأم، وقد دفعت ثمنها ببطءٍ وعلى مر السنين.

لم تطرأ على الشقة تغييرات منذ زمنٍ طويل، إذ احتفظت بأسلوب والدتها الغريب والانتقائي، وبكلِّ ما أحبَّته دافني، واشترته من المتاجر المحليَّة رخيصة الأسعار: سجادةٌ من الموهير تعود لسبعينيَّات القرن الماضي، ومصباحٌ من ماركة تيفاني مُثبَّت على مُكعب زجاجي لطاولةٍ جانبيَّة، وأريكةٌ من المخمل الأخضر الداكن، ورفٌّ كُتبٍ يصل ارتفاعه إلى السقف، مملوء بالأحذية الملوَّنة ذات الكعب العالي. وعلى طاولة القهوة الواطئة، بجانب منفضة السجائر الكرستاليَّة، تجد كتب إيكو الخاصة بالتطريز الطبيعي جميعها.

في إحدى زوايا غرفة المعيشة، وعلى الطاولة المستديرة المُخصَّصة لها، ثمَّة ماكينة خياطة قديمة من نوع سينجر، استخدمتها إيكو في فترة المدرسة الثانوية لحياكة فساتين قطنيةٍ بسيطة، ولإصلاح الدَّرزات المفتوقة في ملابسها. احتفظت إيكو وأمها بكميةٍ كبيرةٍ من نماذج الخياطة في صندوق قبعاتٍ دائريِّ الشكل، وكبير الحجم، من بينها:

نماذج ماكول، ونماذج فوغ الباريسية الأصلية، وباتريك، وسمبليسيتي. وعلى سبيل المرح والفكاهة، جرَّبتا ذات مرة صناعة فُستانٍ إليزابيثيٍّ باستخدام النماذج المُتاحة في Reconstructing History. تذكَّرت إيكو ذلك كله الآن، وتساءلت: أين ذهبت كل تلك الفساتين؟ وكيف تختفي الملابس هكذا بطريقةٍ سحريَّة؟

بعد أن تركت إيكو المنزل، عاشت دافني وحيدةً لعشرين عامًا، ثم انتقل للعيش معها نحاتٌ يابانيٌّ، التقت به خلال العمل، وظلَّا معًا مدةَ خمس سنواتٍ.

بعد أن انتقل من عندها، تقاعدت دافني وأخيرًا من عملها كمُساعِدة في المُلحَق الثقافي في السفارة اليابانية، وعندما بدا لها أنَّها لن تواعد أحدًا في المُستقبل، سمحت لإيكو وليو بنقلها إلى دار سانت كلير للرعاية في الجنوب.

اعتادت إيكو، في الرحلات السابقة إلى فرنسا، أن تصطحب الفتيات لزيارة جدَّتهنَّ، لكنهنَّ لم يكنَّ يُفضِّلنَ المكوث في منزل دافني، بل يفضِّلن الإقامة في مزرعة بوردو، إذ إنَّ الشقة صغيرةٌ للغاية، وغير مريحة. أما بالنسبة إلى رحلةٍ كهذه، حيث تسافر إيكو وحدها ظاهريًّا، فالشقة مناسبةٌ للغاية.

خلال نشأتها، اعتادت إيكو النوم في غرفة النوم، بينما تنام دافني على الأريكة، حيث وضعتا سريرًا قابلًا للطَّي. راحت إيكو تحاول فتح السرير، وقد أزاحت طاولة الطعام الزجاجية الصغيرة، ودفعت الأريكة أكثر باتجاه الحائط المُقابل، لتجد أن السرير لا يزال يعمل، حيث أصدر صوت صريرٍ، ونزل، ليتبيَّن أنه لا يزال مفروشًا بالكامل أيضًا. استلقت إيكو عليه، مستنشقةً الرائحة العفِنة المُنبعثة من الملاءات القديمة المُعطَّرة بعطرٍ قديم. حاولت تذكر الإجراء الطبي الذي خضعت له هي

بدورها، لكن التفاصيل ظلَّت ضبابية في عقلها، كل ما أمكنها تذكُّره هو استلقاؤها وحيدةً على سريرها في غرفة السكن بعد الخضوع لعملية الإجهاض، والألم يعتصر بطنها. لم يسبق أن باحت بالأمر لأحد، ما الذي يهم بذلك الآن؟ يمكنها أن تُخبر يوكو، فقد يساعدها ذلك. أغمضت عينيها للحظة.

بعيدًا عن حقيقة فقرها، لطالما أحبت والدة إيكو الظهور بمظهر السيدة الثريَّة، إذ كانت دافني ترتدي ملابس أنيقة دائمًا، وتتمتَّع بوجهٍ نظيف، مُزيَّنٍ بالبودرة، كما اعتادت على تجعيد شعرها الطويل بتجعيداتٍ لطيفة، حيث أطلقت على هذه التسريحة اسم «تسريحة بأسلوب الصالونات»، إلا أن إيكو لم ترَ والدتها يومًا تقصد صالونًا لتصفيف الشعر، بل كانت تقصُّ وتصبغ شعرها بنفسها مرةً كل ستة أشهر، في بداية السنة، وفي بداية الصيف، وكذلك الأمر بالنسبة إلى إيكو، إذ اعتادت أن تقصَّ والدتها شعرها الطويل وتُصفِّفه.

ولكن، وفي سن السادسة عشرة، قصَّت إيكو شعرها بالكامل، وصبغته باللون الأزرق. نعم، كانت مُتمرِّدةً، بحذائها من نوع دكتور مارتينز، وأحمر شفاهها بلون البرقوق، والذي يترك أثرًا على سجائرها من ماركة جيتان. كانت والدتها تعمل من الصباح وحتى المساء في السفارة، وتُشارك في الفعاليات، أما إيكو فتبقى في المنزل تأكل وجبة البطاطس ولحم البقر سريعة التحضير من بولينو، حيث اعتادت أن تتناولها في غرفة المعيشة وهي ترفع قدميها بحذائها على الطاولة. وبعد أن تفرغ من تناول وجبتها الصغيرة الفوريَّة، كانت تعاني من تقلُّصاتٍ في البطن، ثم من الغازات.

في بضع مرات، وفي أثناء احتسائها للمشروب، قالت دافني لإيكو: «أعتقد أنه كان بمقدوري الحفاظ على علاقتي بوالدكِ، لو أنني كنت أكبر سنًّا، وأذكى، وأكثر حنكة».

سألتها إيكو: «لكن، ألم يكن مُسيئًا؟».

- حسنًا عزيزتي، جميعهم مسيؤون، ولكن بدرجاتٍ مُتفاوِتة.

أحبَّت إيكو وضعهما كما هو، هما الاثنتان فقط، تعيشان حياتيهما المنفصلتين في مساحتهما الصغيرة. ولكن ما الذي جعل حياتها رائعة إلى هذه الدرجة؟ محاولاتها اليائسة لتحقيق ذاتها، وعروضها الحيَّة للفردية: الأقمشة الحريرية على الجدران، وملابسها من متجر الملابس المُستعمَلة مع صديقته المُقرَّبة؛ إلودي، والمُلصقات على الجدران. كانت إيكو تستمع إلى موسيقا ذا ستروكس[1]، بينما أظهرت والدتها ولعًا بفانيسا بارادي.

اعتادتا في عُطل نهاية الأسبوع على تنظيف المنزل، واستطلاع واجهات المحال التجارية. لم يكن المال متوفرًا لديهما، لكن ذلك لم يُثنِهما عن تجربة أيٍّ ما يعجبها، حتى إنهما كانتا تنفقان ببذخٍ عندما تجدان شيئًا جميلًا بحق، ورائع، حيث تُعلِّقانه على الجدار، ومن بين هذه الأشياء معطفٌ جلديٌّ رقيقٌ كورقة، ويصل طوله إلى الكاحل، وبلوزةٌ من الحرير بأكمامٍ عريضة، وأزرارٌ مُرصَّعةٌ بالجواهر، وفُستانٌ أخضر اللون من تصميم عليَّة[2]. كانت الأم وابنتها تنظران إلى هذه القطع لأيام، وتبجِّلان كمالها إلى أن ينفد الصبر منهما، فتتناوبان على ارتدائها، حيث كانتا ترتديان القياس نفسه تمامًا.

(1) فرقة روك موسيقية من الولايات المُتَّحدة الامريكية. (المترجمة)

(2) عز الدين عليَّة (بالفرنسية: Azzedine Alaïa) هو مصمم أزياء عالمي، تونسي الجنسية، متخصص بتصميم وصناعة الملابس الفاخرة ومقيم في فرنسا. (المترجمة)

لم تُدرِك إيكو صعوبةَ العوز والتوفير والاقتصاد، إلا بعد أن أصبحت هي أُمًّا بنفسها. كم باتت تلك المشاعر -الخوف من عدم كفاية ما تملك- بعيدةً عنها، إذ إنَّ بيتها في شانغهاي مليءٌ بالأشياء، مليءٌ بأشياء الأطفال، كم أصبحت حياتها اليوم مُفرِطةً بالترف والرفاهية! بناتها، وشققها، وملابسها، وأشياؤها، بالإضافة إلى الألعاب، ويا لكميَّة الألعاب التي جمعها أطفالها على مر السنين! وبعد أن كبروا تبرعت بها جميعها، هكذا بكل بساطة، مجانًا.

***

كانت الأم وابنتها -إيكو ويوكو- تنتظران الطبيب، إذ استطاعت إيكو أن تؤمِّن موعِدًا مع الطبيب في الصباح الباكر، الموعد الأول في اليوم، حيث أخبرت الطبيب عبر الهاتف أنها قلقة من أن الحمل قد يتجاوز الشهر الثالث في أيِّ يومٍ الآن، وهذه فرصتها الأخيرة، وبالتَّالي حشر الطبيب موعدًا ليوكو على الفور.

وبينما كانتا تجلسان وحيدَتين في غرفة الانتظار، سألت يوكو والدتها: «لم تخبري أحدًا، أليس كذلك؟».

- يوكو، لم أخبر أحدًا، ولن أفعل ذلك.
- أتقسمين؟
- أقسمُ لكِ بحياتي.
- وماذا ستقولين إن عرف والدي أنني تغيَّبتُ عن الأسبوع الأول من المدرسة؟
- سأقول إنني قد صحبتكِ إلى باريس في رحلةٍ سريعة للفتيات، فهو يعرف أنني أحاول دائمًا تعزيز لغتكما الفرنسية.
- لكنه سيعرف أنكِ كذبتِ عليه، وسيجد الأمر غريبًا.

- سأكذبُ مُجددًا.

حدجت يوكو إيكو بنظرتها الماكرة، وهي تسألها: «هل سبقَ وكذبتِ عليَّ؟».

أجابت إيكو: «لا».

- كيف يمكنني تصديقكِ؟

ولأن إيكو أدركت أنه لمن الأفضل ألا تُجمِّل الحقيقة، أو تدخُل في مُسابقةٍ منطقيةٍ مع ابنتها، قالت: «ربما لا يمكنكِ، لكنني حاولت ألا أكذب عليكِ قط».

- هل تُحبين أبي؟

- ماذا؟ أجل بالطبع!

- ولكن...

قاطعتها إيكو: «هل تحبين أخواتِك؟».

صمتت يوكو للحظةٍ، ثم قالت: «ما هو تعريفكِ للحُب؟».

أجابتها إيكو: «أعتقد أننا نُحبُّ شخصًا ما حقًّا، عندما نهتمُّ لسعادته ومصلحته».

- هذا هو الحب برأيكِ؟ حسنًا، إذًا فجوابي هو لا.

- لا؟

- لماذا سأحبهما؟ فيُومِي لا تُحبني، ليس وفقًا لتعريفكِ على الأقل. فهي تأخذ أشيائي، ولا تعيدها، إنها وقحة، لا أحد يعامل من يُحبِّهم بهذه الطريقة. وكيكو ليست بحاجةٍ إلى أن يُحبها أحد، فهي تُحب نفسها بما فيه الكفاية.

تنهَّدت إيكو، وقالت: «ترغب يُومِي بأن تتغير، لقد خضنا مناقشةً طويلة في الاستراحة، إنها على درايةٍ بمساوِئها، ولسوف تعمل بجدٍّ أكثر لتتغير».

- بالطبع، أنتِ دائمًا ما تجدين الأعذار لها.

- ماذا تُفضلين أن أفعل؟

- كوني صادقة! إنها وقحة. أنا لا ألومكِ على ذلك، لكن هذه هي الحقيقة.

- لقد بذلتُ قصارى جهدي، وحاولت بكل ما استطعت أن أعلمكنَّ يا بناتي.

- أُمي، الأمر لا يتعلَّق بكِ.

سكتت يوكو لحظةً، ثمَّ تابعت: «أعتقد أن الحبَّ هو شعورك بالحاجة إلى شخصٍ بعينه من أجلِ بقائك، من أجل البقاء وفقًا لتعريفه واسع النطاق».

- طريقة تفكيركِ، أحيانًا...

- طريقة تفكيري ماذا؟

- إنها... تُفاجئني. إننا بحاجةٍ إلى بعضنا البعض يا يوكو. العائلة، العائلة هي كلُّ ما نملك.

- أجل، هذه هي الرواية. هذا ما يقوله الناس ليبقوكِ عالقةً في شراكِ علاقاتٍ سامَّة.

سألت إيكو: «من أين جئتِ بهذه الأفكار؟».

لم تُجب يوكو، فتابعت الأم: «عندما نرحل عن هذه الدنيا -أنا ووالدكِ- فإن أخواتك هنَّ كل ما سيتبقى لكِ».

قالت يوكو: «كل ما سيتبقى منكما. إنهما لا تُحبَّانني».

- بلى، تُحبانكِ.

- إن يُومِي تكذب يا أُمي!

تابعت يوكو وهي مُحبَطة: «أنتِ لا تعرفين نصف الحقيقة».

- إنني أعرف يا يوكو، إنني أعرفها. أعرفكنَّ جميعًا.

- لن تعرفي البتَّة.

جلستا في كرسيِّيهما، وحيدتَين في غرفة الانتظار، لكنهما ما كانتا لتهتما إن جلس أحدٌ بقربهما، أو إن كان أحدٌ يشاهدهما من بعيد، إذ كانتا تتحدثان باليابانية، تتحدثان داخل «فقاعتهما اليابانية» كما اعتادتا على تسميتها منذ سنواتٍ عديدة.

أخيرًا قالت إيكو: «أعتقد أنكن جميعًا تُحببن بعضكنَّ بعضًا بطرائقكنَّ الخاصة».

- إذًا هل الحبُّ مفهومٌ غير قابلٍ للتعريف، أم أنه مفهومٌ ذاتيٌّ؟

لطالما تمكَّنت يوكو من حشرها في الزاوية، لقد كانت كما والدها.

- ربما، هل تُحبين صديقكِ؟

- وفقًا لتعريفكِ للحب؟ على الأرجح لا. فأنا لم أُفكر كثيرًا بـ «مصلحتهِ». وفقًا لتعريفي؟ لا، فأنا لا أحتاج إليه.

أشارت إيكو بيدها، كحركةٍ تُعلن عن استسلامها، وسألتها: «وكيف يبدو؟».

- إنه في فريق الرياضيات.

- أوه، فهمت. وفي أي نوعٍ من الرياضيات يُركِّز اهتمامه؟

- ماما، لستِ مُضطرةً لمحاولة التحدُّث عن الرياضيات.

تنفَّست إيكو بعمق، وقالت: «حسنًا».

- لقد سبق والتحق بمعهد ماساتشوستس MIT أيضًا، سنذهب معًا.

- حقًّا؟

- أجل. لقد أجرى برنامجًا بحثيًّا هناك بالفعل.

- هل هو أمريكي؟

- بل كندي.

نادت موظفة الاستقبال: «يوكو يانغ؟». شعرت إيكو بخيبة أمل، فهذه كانت أطول محادثة أجرتها مع يوكو منذ سنوات. وقفتا استعدادًا للدخول، لكن يوكو تقدَّمت أمام والدتها، وأوقفتها بإشارةٍ من يدها في مكانها، وقالت: «ماما، أريد الدخول وحدي».

- ماذا؟ حقًّا؟

- أجل، أنا متأكدةٌ من ذلك.

- أوه، حسنًا. حسنًا.

أرجعت إيكو سترتها إلى المقعد، وقالت لها: «حسنًا، سأكون هنا إن احتجتِ إليَّ». وبينما كانت يوكو تختفي خلف الباب، دخلت امرأة إلى غرفة الانتظار، وحيَّت إيكو تحية صباحيَّة سريعة: «بونجور».

هل حقًّا سمحت لابنتها بالدخول وحدها؟ هل يجب أن تقتحم الغرفة وتطالب بإشراكها واطلاعها؟ ما هو القانون المتعارف عليه في هذا الشأن؟ بالطبع، لقد تجاوزت يوكو الثامنة عشرة فعلًا. اهتزَّ هاتفها، وكانت رسالةً من ديفيد: «أتطلع إلى لقاء الغد».

كانت إيكو قد نسيت الموضوع تمامًا، فكتبت له رسالةً سريعة: «أعتذر منك شديد الاعتذار، طرأ شيءٌ مع والدتي، واضطررت إلى السفر إلى باريس. هل يمكن أن نعيد ترتيب لقاءٍ في مرةٍ قادمة؟» لكنها بعد ذلك حذفت السؤال، إذ متى يمكن أن تحدُث تلك المرة الثانية حقيقةً؟

في عطلة الصيف؟ من الأفضل إذًا عدم اقتراح الأمر من أساسه. نظرت حولها لالتقاط صورة تُثبت موقعها، لكنَّ غرفة الانتظار كانت مثل أي غرفة انتظارٍ أخرى في أي مدينةٍ أخرى من العالم. فيها مقاعد، معظمها فارغة، ورفوف من مجلَّات، وإعلانات عن التلقيح الصناعي، والتبرُّع بالبويضات، وكُتيِّبات حول أحدث الطرائق التجريبيَّة لخلق الحياة من خصلات شعرٍ مُفردة، ورسوم توضيحية مؤطَّرة للرحم.

أن تصبحي أُمًّا، يا له من عملٍ مُرعب! فخلال ذلك كاد رحم إيكو أن يختفي تقريبًا، كأنه تطوَّع للخروج من جسدها رفقة وليدتها، فعندما حان موعد ولادة يوكو خرجت من رحم أمها بسرعةٍ وقوة، لدرجة أن كلَّ شيءٍ آخر قد خرج معها، وبالتالي قطعت القابلة حبل يوكو السُّري ببساطة، ودفعت كلَّ شيءٍ آخر إلى الداخل باستخدام يديها فقط، على أمل أن يعيد الجسم تقبُّل كل شيء: الرحم، والأنابيب، والبويضات، والدم. فقدت إيكو كميةً كبيرةً من الدماء، وتلقَّت دمًا منقولًا مرتين، ونُقلت إلى المُستشفى وظلَّت هناك لعدة أيام. لكن، وبأعجوبةٍ -كما قال الطبيب- عاد كلُّ شيءٍ إلى مكانه بطريقةٍ ما.

عند حملها بكيكو كانت دائمًا في حالة تأهُّب، إذ إن حملها كان خطرًا، وبعد أن خرجت كيكو من رحمها صارخةً، استأصل الطبيب رحمها على الفور، اختفى كلُّ شيء. لا مزيد من الأطفال.

كم تتحمل المرأة من الحقن والتحريض، والربط والشفط، والتمدد والخياطة للأجزاء الخاصة من جسدها، لتصنع أطفالًا، لتُنجب فتياتٍ صغيرات. فتياتٌ صغيراتٌ سيصبحن نساءً شاباتٍ يتحمَّلن الأشياء نفسها. كيف تقدمت العلوم كثيرًا ومع ذلك بقيت الولادة ووسائل منع الحمل بهذه البدائية؟ نهضت إيكو وطلبت من موظفة الاستقبال أن تأخذها إلى غرفة ابنتها.

بالداخل، كانت يوكو مستلقيةً على طاولة الفحص، وجسدها مغطى برداءٍ ورقيٍّ، وساقاها مفرودتان في الركائب. وبمجرد أن دخلت إليها إيكو ضمَّت رُكبتيها. وقالت: «أُمي! أردت أن أكون وحدي».

- أعلم، عزيزتي.

- إذًا اخرجي.

- لا، عزيزتي.

ناول الطبيب يوكو منديلًا وأخبر إيكو بأنهم أجروا تقييمًا أوليًّا، وبحسب قوله: «الأمور لا تزال في مراحلها المبكرة جدًّا».

بضع حبوبٍ من الدواء كانت كافية لتحقيق المطلوب، وبالتالي كان من الممكن أن تُجري عملية الإجهاض في المنزل. قالت إيكو: «لست متأكدةً من هذا، ما رأيكَ بإجراء شفطٍ بالتخلية؟». [1]

سألت يوكو وهي تحدق إلى والدتها: «ماذا؟».

- حبيبتي سيكون هذا الإجراء أسرع وأنظف وأكثر اكتمالًا.

- ما الذي تتحدثين عنه يا أُمي؟ يجب أن نستمع إلى رأي الطبيب.

- إنني على دراية بما أقوله يا يوكو.

حدجت الابنة أمها بنظرةِ شكٍّ، لكنَّ الطبيب أكَّد كلامها، مُشيرًا إلى أن عملية الشَّفط ستكون أسرع، رغم كونها أكثر توغُّلًا. سألته إيكو: «يمكن أن تستخدم مهدِّئًا، أليس كذلك؟».

- نعم، يمكننا أن نستخدم مهدئًا خفيفًا.

---

(1) الشفط بالتخلية: إجراءٌ طبي، يُستخدم لإزالة محتويات الرحم عبر عُنق الرحم. يمكن أن يُستخدم كطريقة للإجهاض المحرَّض، أو كإجراءٍ علاجي بعد الإسقاط (الإجهاض التلقائي)، أو كإجراءٍ للحصول على عينة من أجل خزعة بطانة الرحم. تعد معدلات الإصابة أقل من أي إجراء آخر للإجهاض الجراحي إذ تكون ما يقرب من 0.5%. (المترجمة)

لاحظت إيكو أن يوكو قد غرقت بالصمت، وبالتالي طلبت من الطبيب أن يمنحهما بضع لحظاتٍ بمفردهما.

- لستِ أول فتاةٍ تخضع لعملية إجهاضٍ يا يوكوشان، ولن تكوني الأخيرة، الطبيب يُجري مثل هذه العمليات يوميًّا، فكري بالأمر. أعلم أنكِ خائفة، أنتِ مرتبكة، ولكن دعيني أساعدكِ، لقد أجريت عمليَّة مشابِهة أنا أيضًا منذ زمنٍ بعيد.
- ماذا؟ متى أجريتِها؟
- في الجامعة.
- مع أبي؟
- لا، بل حدث ذلك قبل أن ألتقي بوالدك.
- حقًّا؟ لم يسبق أن ذكرتِ الأمر.
- لم يسبق أن سألتِ.
- هل أجريتِ عملية الشفط؟
- بل شيئًا آخر. لقد خضعت للإجهاض في مرحلةٍ من الحمل متقدمةٍ عن مرحلتك الحالية، لم يكن أمامي خيار. لكنني أعرف أشخاصًا آخرين اكتفوا بالحبوب، وآخرين أجروا عملية الشفط.
- حقًّا؟
- أجل، فهذا الأمر أكثر شيوعًا مما تظنين.

إنه لأمرٌ محزنٌ أن تكون أُمًّا؛ فالأطفال لا يعتقدون البتَّة أن أمهاتهنَّ قد عشن كل الأشياء التي يعيشونها هم الآن، أو مررن بكل الفوضى التي يمرُّون بها. يظنُّ الأبناء أنهم أول من يختبر الحياة، وأنهم يعيشونها بطريقةٍ فريدة. أما الأم، فهي بالكاد شخصٌ؛ إذ إنها أشبه برمزٍ، أو تمثالٍ، أو كنبة.

- حسنًا، أنتِ مُحقَّة. لا أريد أن أقضي الكثير من الوقت في التعافي.

هذا هو ما يميِّز يوكو؛ عقلانيتها الشديدة على عكس أخواتها، إذ إن يُومِي ترفض حتى الإصغاء، أما كيكو فدائمًا ما تفعل عكس المُقتَرَح عليها.

ذهبت إيكو لتستدعي الطبيب، وعندما عاد حدَّدوا موعدًا للعملية في وقتٍ لاحق من الصباح ذاته، بعد أن تخضع يوكو لفحوصات الدم، وبعض الاختبارات.

بعد عودتهما إلى المنزل في الليلة نفسها، دخلت إيكو إلى غرفة يوكو -أي غرفتها القديمة- ووضعت كأسًا من الماء على المنضدة المجاورة للسرير. كانت ابنتها على خير ما يرام، باستثناء القليل من الألم. شعرت إيكو بالامتنان لأن يوكو لم تضطر إلى رؤية الدم، وكل شيءٍ آخر، سواء على ملابسها الداخلية، أم في المرحاض، فعلى الرغم من تقديم نفسها على أنها فتاةٌ عقلانية وصلبة، كانت يوكو حساسةً للغاية.

وضعت إيكو يدها على جبين يوكو لتتحسس حرارتها، فوجدتها باردةً وجافة. في طفولتهنَّ كانت يُومِي هي الطفلة التي تعاني دائمًا من ارتفاعٍ في درجة حرارة جسدها، بل والحمى الشديدة، حتى إنها في إحدى المرات أُصيبت بنوبةِ حرارة.

وضعت إيكو عُلبة مسكن ألمٍ بالقرب من كأس الماء، وقالت: «سأخرج للتنزه، اتصلي بي إن احتجتِ إلى أي شيءٍ. سأكون بالحيِّ». أومأت يوكو، وتدحرجت على جانبها. ستناقشان في غضون يومٍ أو يومين رحلة العودة بالطائرة إلى بوسطن.

خرجت إيكو من المنزل ليلفحها الهواء الليليُّ. باريس لا تتغيَّر البتَّة، ليس بالطريقة التي تتغيَّر بها شانغهاي باستمرار، حيث تُدمَّر أحياءٌ عن بكرةِ أبيها، وتُبنى أشياء جديدةٌ في مكانها. كلما عادت إيكو إلى

باريس تشعر كأنها ابنة الخامسة عشر ربيعًا مجددًا، كأن الهواء من حولها مُفعمٌ بموجاتٍ من الإمكانيات. لكن الليلة بالذات بهتَ هذا الشعور لديها، إذ كانت مُنهكةً، وتحتاجُ إلى مشروب.

تذكَّرتْ كيف كانت تتسلل إلى حانة الحي: «حانة آليه!»، وسارت باتجاهها. وجدتها في مكانها، في البقعة ذاتها، بالرغم من أن اسمها قد تبدَّل ليُصبح: «فولي-فو»، فتحت الباب لتجد أنَّ لون الديكور الداخلي قد تغيَّر أيضًا من الأحمر إلى الأزرق، واتَّخذت مجلسًا لها على البار ذي الإضاءة الخافتة. تغيَّر زبائن الحانة، إذ قلَّ عدد الفتيات الجامعيات، وزاد عدد رجال الأعمال. طلبت إيكو كأسًا من نبيذ «ساوفيجنون بلانك»، وأخرجت هاتفها.

وجدت رسالةً من ديفيد، جاء فيها: «لا مشكلة، آمل أن تكوني بخير. أخبريني عندما تزورين المدينة مرةً أخرى». أعادت إيكو التقليب بين صوره، وكانت قد حفظتها عن ظهر قلب. توقفت عيناها عند صورةٍ له في حديقةٍ نباتية، حيث يمسك بزهرةٍ مقطوفة فوق إحدى عينيه، بدت كأنها زهرة شقائق النعمان الجبلية. أخرجت إيكو دفتر الرسم من حقيبتها، وشرعت ترسم الزهرة، مُستبعدةً الوجهَ المختبئ خلفها، وموسِّعةً البتلات والأوراق والساق. ليست زهرة شقائق النعمان من الأزهار التي تنمو في أشجار، لكنها أصبحت كذلك في رسمها، كما تفتَّحت أزهارٌ أخرى على الأغصان التي رسمتها. أصبحت الشجرة قرن الوفرة[1]، أصبحت باقة زهورٍ بريَّة.

(1) قرن الوَفْرة أو قَرْن الخِصْب (بالإنجليزية: Cornucopia) هو رمز الوفرة والتغذية، وهو وعاء على شكل قرن يفيض بالأزهار والجوز والمنتجات الزراعية. أصل هذا الرمز يعود إلى الفترة الكلاسيكية القديمة، ولا يزال يُستخدم في الفن الغربي، وهو مرتبط بعطلة عيد الشُكر في أمريكا الشمالية. (المترجمة)

أنهت كأس النبيذ الثالث، والتقطت صورةً لرسمها، ثم حمَّلتها على قناتها الشخصية، راحت تُراقب الإعجابات والتعليقات التي بدأت تتدفق عليها، ثم طلبت كأسها الرابع من النبيذ.

ما الذي يمثله ديفيد بالنسبة إليها على أي حال؟ مجردُ فكرة، وحلم، وذكرى سعيدة من شبابها. لو أنها اختارت ديفيد في الماضي، ربما كان ليو اليوم ليلعب الدور ذاته: دور الرجل الوسيم الذكيُّ الغني، الذي فرَّ منها. ما الذي كانت تفعله؟ فبعد كل هذه السنوات، ألا يمكنها أن تمضي قدمًا؟ ربما الآن، وبعد أن رحلت الفتيات جميعهنَّ عن المنزل، قد تتبدَّل حال حياتها مع ليو نحو الأفضل.

لم تراسلها يوكو البتَّة. نقبت إيكو سرائرها بحثًا عن مشاعرَ عميقةٍ من الشفقة والندم والحزن، لكنها لم تجد سوى حنين قديم. أجل، لقد أحبَّت يوكو، لكن يوكو لطالما قاومتها، وقاومت دائمًا ممارستها لأمومتها عليها. فمنذ البداية كانت يوكو ذكيةً، ومُستقلةً بذاتها، ومنعزلةً، حتى أن إيكو شعرت أحيانًا أن ابنتها الوسطى تنظر إليها باستخفافٍ. ظلَّت يوكو عصيةً عن الفهم.

وسط ضجيج النبيذ المُخدِّر، فكرت إيكو مع نفسها: لكنهنَّ سيكنَّ ما سيكنَّ، فبناتها يتمتَّعن برجاحة العقل والجمال، وقد وفَّر لهنَّ والدهنَّ حاجتهنَّ من المال، والمرأة لا تحتاج إلى شيءٍ كثيرٍ غير ذلك. إجهاض؟ إنه مجردُ لحظةٍ عابرة، أسبوعٌ في حياةٍ طويلة.

جلس رجلٌ ما بالقرب من إيكو، واستشعرت -شمَّت- ترقبه المُفترِس. قال لها بصوتٍ عميقٍ ولطيف، وبلكنةِ أهل مرسيليا: «بون سوار، يا آنسة». ردَّت إيكو: «أوه، لستُ بآنسة».

- عُذرًا سيدتي.

ضحكت إيكو رغمًا عنها، واستدارت لتنظر إليه. رجلٌ فرنسيٌّ وسيمٌ في بدلةٍ مُفصَّلة، يبدو في أوائل الخمسينات من عمره، أي في عمرها تقريبًا، يحملُ كأسًا من سائلٍ كهرمانيٍّ. ابتسمت له، وسألها: «من أين أنتِ؟».

- من الحي.

- أوه، حقًّا؟ تبدين مختلفةً عن أهل الحي.

- لا، يوجد العديد من اليابانيين في هذه المنطقة السكنية.

منحته ما كان يبحث عنه، إذ إنها أدركت أنه، وبجميع الأحوال، سيستمرُّ بطرح الأسئلة إلى أن يصل إلى مبتغاه.

أشار إلى الرسم وسألها: «هل رسمتِ هذا؟».

- أجل.

- إنه شيءٌ لا يُصدَّق، مثلكِ تمامًا.

ضحكت إيكو مجددًا، منذ متى لم يحاول أحد التودُّد إليها في حانة؟ عقود؟ ولكونها ثملةً قليلًا وجدت الأمر مضحكًا الآن.

- أنتِ رسامةٌ إذًا.

- أجل، أعتقد أنه يمكنكَ قول ذلك. وأنت؟

مدَّ له يدها، قائلًا: «أُدعى ديفيد، وأنا هنا في عمل».

ضحكت إيكو عند سماع اسمه. ما احتمالات ذلك؟ لم يكن يرتدي خاتمًا في يده اليسرى. نظرت إيكو، ثم شعرت بهذه الحقيقة عندما انزلقت أصابعها في يده: كانت ترتدي خاتمها في اليد اليُمنى.

قال لها: «من السهل إضحاككِ».

- من السهل عليكَ أن تُجامل.

أجابها: «سأطلب لكِ مشروبًا آخر. ما اسمكِ؟».

- إيكو. لكن لا، شكرًا. يجب أن أعود أدراجي، فابنتي تنتظرني، وأمامي رحلةٌ طويلة، بل ربما رحلتَين طويلتَين.

انحنى ديفيد بأدب، ورفع لها كأسه، قائلًا: «إيكو (Eko)، صدى (Echo)، صدى، صدى. سأذكركِ دائمًا. أنتِ تتمتعين بموهبةٍ عظيمة». ثم عادَ إلى مكانه على الطرف الآخر من البار. دفعت إيكو الحساب، ثم غادرت.

فكَّرت إيكو في طريق عودتها إلى المنزل: ولماذا أقابل ديفيد هذا، لا ديفيد ذاك؟ هذا العالم زاخرٌ بالكثير من الرجال الذين يحملون اسم ديفيد. عندما فتحت باب المنزل الأمامي، أدركت أنها تركت رسمتها في البار.

***

في الصباح تقاسمت إيكو ويوكو رغيفًا فرنسيًّا ومُربى التوت الأزرق بعد أن اشترتاهما من السوق. أوضحت يوكو أنها بخيرٍ، لكنها متعبة، ولا تزال تعاني من بعض الألم. قضتا اليوم في الشقة، وبينما اتَّجهت إيكو نحو التنظيف، أمضت يوكو الوقت وهي تلعب ألعاب الفيديو مُستخدمةً هاتفها. عادت يوكو إلى طبيعتها التي تعرفها إيكو: قمصان فضفاضة، وسراويل رياضيَّة، مع شعرٍ مرفوعٍ رفعةَ الكعكة، ونظارات طبيَّة، وبقعٍ من النمش الخفيف.

في المساء لاحظت إيكو إشعارًا على هاتفها من دار سانت كلير للرعاية، ففتحت تطبيق الدردشة الخاص بهم، وقرأت: «يُرجى الاتصال بنا عندما تسنح لكِ الفرصة. نودُّ مناقشة حالة والدتكِ. لا شيء يستدعي الردَّ السريع». طلبت إيكو رقم المسؤولة، وتواصلت معها على الفور،

وكان أول سؤالٍ طرحته: «هل هي بخيرٍ؟»، أجابت ألكسندرا المسؤولة عن رعاية والدتها: «نعم، إنها على خيرِ ما يرام».

- ما الأمر إذًا؟

- حسنًا، ما من شيءٍ خطِر، إنها فقط... ظهرت عليها حديثًا بعض العلامات على وجود صعوبةٍ في تذكُّر الأحداث القريبة.

- أتعنين أنها بدأت تفقد ذاكرتها؟

- لا، ليس فيما يتعلَّق بالماضي البعيد، بل تعاني من بعض الصعوبات البسيطة في تذكُّر الأحداث اليومية الجديدة.

- مثل ماذا؟ أيمكنكِ أن توضِّحي لي؟

- لنقل إننا في المسبح في فترة بعد الظهر، يسألها المُدرب: «ماذا تناولتِ على الغداء اليوم؟»، ليجد أنها ربما لا تتذكر حتى إنها تناولت الغداء اليوم، شيءٌ من هذا القبيل.

- منذ متى بدأ ذلك؟

- منذ أسبوعٍ أو أسبوعين ربما. أرجو أن تطمئني، فنحن لدينا خبرةٌ واسعة في التعامل مع مثل هذه الحالات، كما أن غرفة الذاكرة المتطوِّرة لدينا لهي موردٌ علاجيٌّ رائع.

استمعت إيكو بينما استرسلت ألكسندرا في وصف غرفة الذاكرة، وتقنياتها، وسيرة مطوِّرها، وسجل نجاحاتها. شعرت إيكو بشيءٍ من الخوف يدبُّ على قلبها، راودتها فكرةٌ بأنها قد جلبت هذا الأمر بنفسها، إذ إنَّ كذبها على ليو بشأن صحة والدتها قد جعل الأمر حقيقيًّا، وأنها تُعاقَب على كل شيء. قاطعت إيكو ألكسندرا، وقالت: «يُصادف أنني في باريس، سآتي لزيارتها والتحدُّث مع أطبائها».

- أوه، رائع! إنها لا تنفكُّ تتحدث عنكِ، ستسعد برؤيتكِ.

- نعم، سآتي خلال يومٍ أو يومين.

أغلقت إيكو الهاتف، ونظرت حولها، وشعرت أن والدتها قد تركت بصمتها في كل مكان.

نظَّفت يوكو حنجرتها وهي ما تزال على الأريكة، إذ كانت تستمع بينما تلعب ألعاب الفيديو، فالاستماع هو عادة يوكو الدائمة. قالت: «الجدةُ تفقدُ ذاكرتها إذًا؟ ما الأمر... الآلزهايمر؟».

- أجل، ربما. لا أعرف يا يوكو.

هزَّت يوكو رأسها، وقالت: «إنه لأمرٌ سخيفٌ! لا أحد يهتمُّ بمرض الآلزهايمر، لأن المتأثرين به من كبار السن، الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم. كما أنهم اكتشفوا علاجًا لسرطان البروستاتا فقط لأن الرجال المُصابين به لا يزالون سليمِي العقول، وفيهم من الحماس والقُدرة ما يكفي لتمويل الأبحاث.

- لم أكن أعرف ذلك يا يوكو.

- نعم. حسنًا، يمكننا الذهاب لرؤية الجدة. أشعر أنني بخير.

مبنى دار سانت كلير للرعاية عبارةٌ عن برجٍ سكنيٍّ فاخرٍ في مدينة نيس، مخصَّصٌ لتوفير إقامةٍ مُرفَّهة لكبار السن، وقد حجز ليو وإيكو مكانًا لدافني فيه عندما كان لا يزال قيد الإنشاء، وذلك بناءً على نصيحة صديق ليو، المُتخصِّص في بيع العقارات الأوروبية للصينيين الأثرياء. سجَّلا دافني في جناحٍ يتمتَّع بإطلالةٍ بحريَّة، ومُخصَّصٍ لشخصٍ واحد. يطلُّ هذا الجناح على البحر الأبيض المتوسِّط، وهو مكوَّنٌ من: غرفة نومٍ واسعة، وغرفة جلوسٍ صغيرة، ومجهز بالكامل بخزائن، وبحمام مهيَّأ للاستخدام من قِبل ذوي الاحتياجات الخاصة الذين يتحركون على الكراسي الكهربائية.

تحمَّست دافني للانتقال إلى الدار قبل ثلاث سنوات، فعلى الرغم من أن المبنى يضمُّ عيادةً طبيَّة، وفيه ممرضاتٌ مقيمات، فإنه كان مأهولًا بالنسبة الأكبر بكبار السن المتقاعدين الأصحاء. كانت دافني امرأةً اجتماعية وساحرة، وبالتالي استطاعت بسهولةٍ أن تكوِّن صداقاتٍ جديدة، وقد أعربت لليو وإيكو منذ البداية عن حبِّها للمكان.

خرجت إيكو ويوكو من الحافلة السريعة، التي ضبطتها إيكو على اللغة اليابانية. أنزل الصندوق الخلفي الآلي حقائبهما تلقائيًّا، وانبعثت رسالةٌ صوتية باللغة اليابانية من مكبرات الصوت في الحافلة تشكرهما على استخدام الخدمة: «تشكروا على السَفَرِ معَنا، أَرِيغَاتُو غوزَايماس». مع لحن الشركة المُعتاد، وانطلقت الحافلة مسرعةً إلى الطريق لتلتقط الراكب التالي.

قالت إيكو: «تبًّا، نسيت أن أُحضر هديةً لها». تابعت يوكو سيرها نحو مدخل البرج، وقالت بغير اكتراث: «لديكِ حوالي عشرة أقلام حُمرة في حقيبتكِ، أعطيها أحدها».

قدَّمتا نفسيهما عند مكتب الاستقبال، وسُمح لهما بالصعود. عندما حجز ليو مكانًا لدافني في البرج، أصرَّ أن تكون غرفتها في أعلى طابق، وإلا فما الفائدة؟ استقلَّت إيكو وابنتها المصعد الزجاجيَّ، ثم ضغطتا على جرس باب الشقة رقم 5201، فتحت دافني الباب، وهبَّت من خلفها الرياح، رفرف فستانها الأزرق الحريري ووشاحها في الردهة، مثل أصابع طويلة تشير إليهما بالدخول، ومن خلفها كانت النوافذ مفتوحةً على مصاريعها.

قالت دافني: «إيكو! يوكو! يا لها من مفاجئةٍ سارَّة! لكم أكن أعلم أنكما في المدينة. أيتها الفتاتان الشقيتان، أتفاجئان امرأةً عجوزًا بهذه الطريقة!». كان شعرها المموج بخصلاتٍ رماديةٍ مشدودًا إلى الخلف

والأعلى في تسريحة الكعكة الفرنسية التي تتميز بها، ووجهها مدهونًا بالكامل بالكريمات والمكياج، وعيناها محدَّدتين بخطوطٍ داكنة.

قالت إيكو، وهي تدخل لتتفقد الشقة: «تبدين بحالةٍ جيدة، أوكاسان». تزور طواقم التنظيف الغرفة يوميًّا، وبالتالي كان المكان نظيفًا للغاية. أغلقت إيكو النوافذ في غرفة النوم أولًا، ثمَّ تابعت إغلاق نوافذ غرفة الجلوس، ومع احتباس الريح خارج الغرفة، شعرت كأن كلَّ شيءٍ قد توقَّف فجأة.

في هدوء المكان، قدَّمت دافني كوبًا من الشاي إلى يوكو، وهي تقول: «كيف تزدادين جمالًا في كل مرةٍ أراكِ فيهان يا يوكوشان؟»، ثم وضعت بعض قطع «اليوكان»[1] في وعاءٍ ضحلٍ وهي تتحقق من مظهر يوكو العفوي، وأضافت: «ضعي فقط القليل من المكياج، وستكونين فاتنةً بالمطلق».

ثم التفت نحو إيكو، وقالت: «لا تخبري الفتيات الأخريات، لكنَّ يوكو هي الأجمل بينهنَّ جميعًا!». أجابت إيكو: «أوكاسان، جميعهنَّ جميلات».

- لقد كنتِ فاتنة الجمال في شبابكِ، أما الآن، فحان وقت تألُّق بناتكِ.

أجابت إيكو ضاحكةً: «لم أكن يومًا فاتنةَ الجمال، إذ ورثتُ عنكِ هاتين الساقين القصيرتَين الممتلئتَين!».

ردت دافني مُمازِحةً: «آهٍ ساقاي! ساقاي! يا مأساة حياتي». في الحقيقة كانت ساقا دافني عاديتين للغاية، قصيرتين بعض الشيء، وربما ممتلئتَين قليلًا. سألتها إيكو: «أوكاسان، هل تناولتِ الغداء؟».

---

(1) يوكان: حلوى يابانيَّة مشهورة، من نوع الهلام الذي يُصنَع من هَريسِ الفاصولياء، ويُضاف إليه الأغار (وهي مادَّة هُلاميَّة تستخرج من بعض الأعشاب البحريَّة) من أجل تغليظ قوام الحلوى، والسُّكَّر (للتحلية). (المترجمة)

- أجل، تناولت حساء الفطر اللذيذ. وأنتما، هل تناولتما الطعام؟ إن لم تفعلا، لا تترددا في طلبِ شيء.

تمتمت إيكو: «أوه يا إلهي، شكرًا لكِ». لكنها شعرت بالراحة والأمل عندما أدركت أن والدتها تذكَّرت ما تناولته على الغداء، وأضافت: «تناولنا الطعام في طريقنا إلى هنا. تحادثا قليلًا أنتما الاثنتان، سأعود قريبًا، يجب أن أسدِّد بعض الفواتير».

وبينما كانت إيكو تهمُّ بالخروج، سمعت دافني تُخبر يوكو عن دروس السباحة اليومية، وعن مدرِّب السباحة الوسيم: «انضمَّ إليَّ اليوم في درس السباحة، لن يعرف ما الذي أصابه».

أجابت إيكو من عند الباب: «أنتِ تكرهين السباحة، أوكاسان!».

- لا يا عزيزتي، لم تكن مشكلتي الكره، بل الخوف، لأن والدي -جدكِ الأكبر يا يوكو- قد ألقاني في ينبوعٍ ساخنٍ وأنا في الرابعة من عمري! حدث ذلك قبل زمنٍ بعيدٍ، في كيوتو، وفي فصل الشتاء! لم يكن لدينا مسابح لطيفة، أو مدربون وسيمون في ذلك الوقت، بل اقتصر فعل السباحة على احتشاد الأطفال في الماء، مثل طبقٍ كبيرٍ من حساء الزلابية. جدُّكِ الأكبر كان رجلًا قاسيًا، ولكن قسوته ليست بشيءٍ إذا ما قُورِنت بقسوة جدكِ، دعيني أخبركِ.

أغلقت إيكو الباب وانطلقت، إذ سبق أن سمعت هذه القصَّة مرارًا وتكرارًا طوال حياتها: قصة الأب الشرير، والزوج الشرير، والبطلة التي هربت من ذلك كلِّه لتبدأ حياةً جديدةً في باريس. اتَّخذت المصعد نزولًا إلى عيادة الطبيب، وباستثناء بعض المقيمين الذين كانوا في خضمِ نوعٍ من العلاج الطبيعي، وجدت المكان فارغًا.

ألقت إيكو نظرةً على مكتب الطبيب، الذي قال: «أوه، إيكو. تفضَّلي بالدخول!». جلست وانتظرت بينما سحب الدكتور برنارد ملف دافني،

وتابع: «كما تعلمين، بدأت بعض العلامات الأولية البسيطة جدًّا لفقدان الذاكرة قصير المدى بالظهور على والدتكِ، وقد قضينا الكثير من الوقت معها في غرفة الذاكرة، نركِّز على رواية القصص».

- أجل. ولكن، كيف حدث هذا يا دكتور؟ ليس لديها أي استعداد وراثي لمرض الآلزهايمر.

- أوه، نعم. حسنًا، هذا النوع من مشكلات الاحتفاظ بالذاكرة لا يشير بالضرورة إلى مرض الآلزهايمر، بل نعتقد أن مشكلتها مردُّها إلى المرض الذي أصابها قبل بضعةِ أشهر.

حكَّ الدكتور برنارد رأسه المُغطَّى بالشعر الأحمر الكثيف باستخدام قلمه.

- مرض؟ لم أُبلَّغ بذلك!

- أجل، امم، لم ترغب دافني بأن نُخبر أسرتها.

تحركت إيكو في مقعدها، ووضعت حقيبتها على الأرض استعدادًا لمحادثةٍ أطول وسألته: «لكن، ماذا حدث؟ هل كان مرضها خطِرًا؟».

- لم يكن خطرًا للغاية، لكنها أصيبت بعدوى، ثم رافقتها بعد ذلك الحُمَّى لعدة أيام.

- عذرًا؟ هل قلت حُمَّى؟ ولم تتمكنوا من إخباري؟

- والدتكِ ما تزال بكامل قواها العقلية، وقد أصرَّت على السريَّة التامة.

- حسنًا. وما نوع العدوى التي أصابتها؟

- ليست بالعدوى الغريبة عن منشآتٍ كهذه، في الواقع، أُصيب العديد من المقيمين هنا بها.

مالت إيكو نحو المكتب، وضغطت بإصبعها على المكتب، وهي تقول: «هل لديكم مشكلةٌ في الطعام أو خدمات التنظيف؟ إن كان الأمر كذلك فمن حقنا أن نعرف أيها الطبيب، وليس فقط بوصفنا مُستأجرين، بل مؤسِّسين مُستثمرين أيضًا». على مر السنين أصبحت إيكو أفضل في الخوض بمثل هذه المحادثات.

- لا، أرجوكِ، لا داعي للانزعاج.

- لا داعي للانزعاج؟ أُصيبت والدتي بعدوى وحُمَّى ولم تخبرونا!

حتى إيكو نفسها تفاجأت بالغضب الذي اعتراها، وهي تهدِّده: «لا تضطرني إلى الذهاب إلى مجلس الإدارة».

- حسنًا، حسنًا، إنني أفهمك. انتظري أرجوكِ.

نظر الدكتور برنارد إلى جهاز الكومبيوتر، ثم إلى النافذة، وأخيرًا إلى الباب المُغلق خلف إيكو، وبعدها وبصوتٍ مُنخفضٍ قال ببطء: «كما ترين، كانت عدوى شائعةً للغاية، وقابلة للعلاج تمامًا... مرضٌ منقولٌ جنسيًّا».

حدقت إيكو إليه غير مُصدِّقة، واستنكرت: «ماذا؟».

كرَّر الطبيب، وقد علت وجهه نظرة اعتذارٍ: «مرضٌ منقولٌ جنسيًّا».

- أوه.

- أجل، إنه لأمرٌ مؤسف، ولكن كما قلت لكِ: كان قابلًا للعلاج تمامًا، وقد تعافت منه بسرعةٍ قياسيَّة. المُنغِّص الوحيد هو أننا نعتقد أن المرض نفسه أو الحُمَّى المرافِقة له قد تركا تأثيرًا على الذاكرة قصيرة الأمد.

نظرت إيكو من النافذة عبر الشارع وصولًا إلى البحر وهي تستمع، بينما تابع الطبيب: «نعتقد أن وضعها، وباستخدام العلاجات المناسبة،

لن يتفاقم أو يتدهور أكثر، بل قد يتحسن خلال فترةٍ قصيرة، كما أننا نتوقَّع أن تظل ذاكرتها طويلة الأمد سليمةً بالكامل. وقد أخبرنا القائمين على رعايتها بضرورة الانتباه لجدول دافني اليومي، واحتياجاتها في ضوء وضعها الراهن.

- أخبرتني أنها تناولت حساء الفطر على الغداء اليوم.

أجاب الطبيب وهو يُنظِّف حنجرته: «سأتحقَّق من الأمر»، وبعد لحظةٍ أضاف: «أوه، ها هو. غداء اليوم كان باييا بحريَّة، وسلطة الفجل، وموس الشوكولاتة للتحلية».

- إذًا، لم يكن حساء الفطر موجودًا.

- أخشى أن لا.

أطبقت إيكو شفتيها، وشعرت كأنها تسمع هدير البحر في أُذنيها، رغم أن النوافذ كانت مُغلقة، وما من صوتٍ في الغرفة. انتظر الدكتور برنارد. لم يعد هناك أحدٌ في هذا العالم يتذكَّر -أو يعرف- كيف كانت الأمور، كيف كانت في الماضي، ثم هناك كل الأشياء التي لا تعرفها هي نفسها، كل الأشياء التي لم تُخبَر بها.

سألت إيكو: «هل تعرف؟ والدتي هل تعرف؟».

- لا تحبُّ التحدُّث بالأمر. لكنها تبدو مُدرِكةً إلى حدٍّ ما، أجل. إنها تتجنب الإجابة عن الأسئلة التي لا تعرف أجوبتها، وتختلق أعذارًا.

أومأت إيكو برأسها، وسألت: «ما هو العلاج؟».

استرسل الدكتور برنارد بالحديث عن غرفة الذاكرة، والألعاب المتاحة لجميع المقيمين، وبرنامج إعادة تأهيل الذاكرة التخصُّصي الذي يمكن تقديمه لدافني لقاء كلفةٍ إضافية. لم يكن تركيز إيكو حاضرًا بالكامل وهي تستمع إلى كلام الطبيب، إذ إن نصف هذا التركيز قد صُرِف

للتفكير بديفيد كفكرةٍ مجرَّدة، ديفيد الذي بدا بعيدًا للغاية. وافقت إيكو على الخطَّة العلاجيَّة، ووقَّعت الأوراق، ثم عادت إلى الطابق العلوي.

بوصولها إلى جناح دافني، وجدت يوكو جالسةً على الأريكة، ودافني مشغولةً بتصفيف شعرها، ووضْعِ مكياجها. كانت دافني قد ألبست يوكو بعضًا من ملابسها القديمة، وقد ميَّزت إيكو الفستان القديم من ماركة دولشي آند غابانا، الذي لطالما عشقته والدتها. رفعت دافني شعر يوكو الكثيف في تسريحةٍ فرنسيَّة أنيقة، وكانت قد طلت بشرتها بطبقةٍ من كريم الأساس.

قالت يوكو: «ماما، أعطيتُ جدتي أحمر الشفاه». وكانت دافني تُزيِّن شفتَي يوكو به. ثم قالت وهي تشير إلى إيكو باستخدام أحمر الشفاه من ماركة شانيل «جاذبيَّة الأحمر»: « تعالي هنا إيكوتشان».

- لا، لا بأس.

- هيَّا، للمرح فقط.

نظرت إيكو إلى والدتها وابنتها، ثم أدارت بصرها إلى النافذة مجددًا، ليس هناك سُيَّاح في هذا الوقت من العام، والشاطئ مقفرٌ، والبحر والسماء اكتسبا لونًا رماديًّا.

جلست إيكو على الأريكة بجانب دافني ويوكو، وأغمضت عينَيها بشبهِ ابتسامة، وشعرت بحركة والدتها وهي تضع اللون اللامع على شفتَيها.

مرحبًا مارلين مونرو

سبتمبر / أيلول 2039

لم تُدفع كيكو إلى الانخراط في عالم الملذات الجسدية بسببٍ وجيه، ولو أن أحدهم اكتشف الأمر وأخبر والديها، لما وجدت عذرًا معقولًا تقدِّمه لهما، إذ إن دافعها لم يكن سوى الفضول البسيط.

اتَّقدت الفكرة في رأسها بفعلِ شائعةٍ سمعتها عن تاكاكو تاكاهاشي، وهي فتاةٌ في الصف الثاني عشر، حيث انتشرت الأخبار حول مرافقتها لرجلٍ كبيرٍ في السن، يدفعُ لها لقاء خدماتها حقائب من ماركة شانيل، ورحلاتٍ في سيارة مازيراتي مكشوفة السقف. على ما يبدو، فإن الكثيرات من الفتيات في اليابان اعتدن فِعل ذلك.

لكن كيكو لم تكن بحاجةٍ إلى رجلٍ مسنٍّ عشوائيٍّ مجهول بالنسبة إليها لتحصل على حقائب شانيل، أو سيارة مازيراتي، إذ بإمكانها، وبغمضةِ عينٍ، أن تطلُب من والدها أحدث حقيبة، وبالرغم من أنه سيمتعض في البداية، ويتذمَّر من بناته المُدلَّلات، ويتساءل ما حاجة

فتاةٍ في السادسة عشرة من عمرها إلى حقيبةٍ من توقيعِ مُصمِّم، إلا أنه في النهاية سيرضخ. وفي حال إصرار والدها على الرفض، يمكنها بسهولةٍ أن تلجأ إلى والدتها، التي ستشتري لها الحقيبة، أو تعطيها واحدةً من مقتنياتها القديمة، ثم تنتظر بهدوء لترى ردَّ فعل والدها، لكنه لم يكن يلاحظ الأمر البتَّة.

لطالما حصلت كيكو -أو كما ينادونها في المنزل: كيكو الصغيرة- على مُرادها، وربما دفعها مللها من التلبية الدائمة لمطالبها إلى الرغبة في اختبار الحصول على شيءٍ ما بطريقةٍ جديدة، وبطريقٍ مثيرٍ بدا أكثر ظلمةً وغموضًا، يشبه السيرُ فيه السيرَ في خيمةٍ مُظلِمة من خيمِ سيركٍ مُتنقِّل.

لم يسبق لكيكو أن شاهدت سيركًا مُتنقِّلًا، بل حضرت عرض الألعاب البهلوانيَّة في شانغهاي (مُملٌّ)، وسيرك دو سوليه في ماكاو (رائع)، وعالم البحار في أورلاندو (مُحزن نوعًا ما)، لكنها لم تشاهد سيركًا مُتنقِّلًا حقيقيًّا، بخيامٍ مُخطَّطةٍ بالأبيض والأحمر، ومنصوبةٍ على أرضٍ واطئة. لذلك كتبت في يومياتها «سيرك مُتنقِّل» ضِمن قائمة الأشياء التي ترغب برؤيتها في المستقبل.

قبل أنت تتعرَّف على مدام صن من خلال تاكاكو، سيطر على كيكو ومنذ أشهرٍ عدة الشعور بالملل من الحُب، أو ربما يمكن القول إنها قد أدركت أن الحبَّ قد يكون شيئًا يمكن التلاعُب به، وبيعه، وتبادله. كانت حينها في علاقة حبٍّ دامت مدَّة ثلاث سنواتٍ مع بيتر أوزي لاعب اللاكروس[1]، وابن مدير ديزني شانغهاي. جمعهما صفٌّ واحد في المدرسة الأجنبية بشانغهاي، وكانا يعرفان بعضهما منذ سنوات.

(1) اللاكروس: هي رياضةٌ جماعيةٌ تُلعب بكرةٍ مطاطية، وعصا طويلة تنتهي بشبكةٍ مصمَّمة لتلقِّي تلك الكرة. وتُعتبر الولايات المتحدة الأمريكية هي البطل المُهيمِن فيها. (المترجمة)

كيكو هي من اختارت بيتر، بينما اختارت جيسيكا -صديقتها المُقرَّبة- سام، حدث ذلك في الصف الثامن، عندما قررتا أن تحصل كلٌّ منهما على حبيب.

عند العدِّ إلى ثلاثة، افترقت كيكو وجيسيكا عند خزائنهما، واتَّجهت كلٌّ منهما نحو الشاب الذي اختارته. قالت كيكو لبيتر بغير مبالاة: «بيتر ستكون حبيبي الآن، موافق؟»، وفعلت جيسيكا المثل مع سام. قبل الإتيان على هذا الفعل قضتا أسبوعًا كاملًا تتدربان عليه معًا، حتى إنهما أعلنتا ليلةَ طوارئ للتخطيط لكافة الاحتمالات المُمكنة، وخرجتا منها بقرارٍ مفاده أنه في حال رفْضِ الصَبِيَّان لهما ستصفعانهما على وجهَيهما، وبهذه الطريقة سيعرف الجميع من هو المُسيطر.

أعاد بيتر كتاب الهندسة إلى خزانته، وأخرج عُلبة علكةٍ من على رفِّ الخزانة، ثم مدَّها نحوها، وقال: «أتريدين العلكة؟»، سألها كأنه لم يسمع ما قالته قط. حدقت إليه للحظةٍ، غير واثقةٍ أتصفعه أم لا، فهذا الموقف لم يكن ضمن الاحتمالات التي درستها مع جيسيكا، كرَّر بيتر سؤاله وهو يبتسم هذه المرة: «أتريدين العلكة، يا حبيبتي؟». عندها أدركت كيكو أن خيارها كان صحيحًا، فبيتر يتميَّز بلطفه اللامحدود.

أما جيسيكا، فقابلتها بعض الصعوبات. عندما زفَّت النبأ إلى سام، نظر إليها بامتعاضٍ، وسألها: «هل يجب عليَّ ذلك؟»، ردَّت عليه: «نعم!»، ثم ابتعدت ووجهها يتَّقد احمرارًا، لكنها شعرت بنوعٍ من الانتصار. بعد أسبوعين من تجاهلها، أرسل سام صديقًا مُشتركًا، باري بيترسون، ليبلغ جيسيكا أنه لم يعد يرغب بأن يكون حبيبها. بكت في الحمَّام طوال فترة ما بعد الظهر، بينما كانت كيكو تواسيها وتُخفِّف عنها، قائلةً: «ستجدين شخصًا آخر، ثمَّة الكثير من الأسماك في البحر»، وكان عمرها حينها ثلاثة عشر عامًا فقط.

حضرت كيكو جميع مباريات اللاكروس التي خاضها بيتر في الحرم المدرسي، وذات مرةٍ، تسلَّلت خلسةً إلى المقعد الخلفيِّ لحافلة الفريق، في أثناء توجُّهها بهم إلى الجهة الأخرى من المدينة لخوض مباراة ضدَّ المدرسة الفرنسيَّة، ثم استغلت فترة ما بين الشوطين، عندما كان بيتر يجلس على مقاعد الاحتياط لتجلس في حضنه المُبلَّل بالعرق، وذراعاها تطوِّقان عنقه، في حين سخر أصدقاؤهما من تعلُّقهما الشديد ببعضهما، لكن بيتر وكيكو أخرجا لسانيهما في وجه الآخرين، وتبادلا قبلةً دراميَّة قبل أن تُستأنف المباراة. كانا سعيدين، ويحبَّان التباهي بهذه السعادة أمام أصدقائهما الذين ليسوا بنظرهما سوى أطفال لا يعرفون شيئًا عن الحُب. أما هما فقد انخرطا بالحُب معًا، وحتى النهاية.

يا لها من أوقاتٍ مناسبةٍ للحُب! فقد ضجَّ الصف الثامن بحفلات البار والبات ميتزفا في نهاية الأسبوع لزملاء الدراسة من الأمريكيين واليهود. وبينما كان أصدقاؤهما يغادرون حلبة الرقص خلال الأغاني البطيئة، أو يتظاهرون بالرقص على نحوٍ أحمق، كان العاشقان يبقيان على الأرضية المصنوعة من الباركيه، حاضنين واحدهما الآخر، ورأسها متكئٌ على صدره، وهما الوحيدَان اللذان يستمرَّان بالرقص، ولم يزعجهما ذلك. هكذا كان شعور كيكو وهي مع بيتر أوزي: لا شيء آخر في العالم كله يوازي حبَّهما في أهميته، أو يقترب منه في تفرُّده.

في الصف التاسع، قضيا معظم عطلات نهاية الأسبوع في ديزني. كانا يلعبان لعبةً خاصة، يحاولان فيها التقرُّب من بعضهما في كلِّ زاويةٍ مخفيةٍ من زوايا المتنزه. وبالتأكيد، لم يحجما عن اللعب بالألعاب المُتاحة في المتنزه، وكانا يستخدمان بطاقتَي «المرور السريع» خاصتهما لتجاوز جميع الأطفال. خصَّصا عطلةً كاملة لتجربه اللعبة

الجديدة: «سبايس ماونتن»، حيث ركباها مرارًا وتكرارًا، ليخرجا إلى ضوء النهار مرةً بعد مرة، وهما يشعران بالدوار والعمى والسعادة.

أقام بيتر في المُجمَّع السكني المجاور لمُجمَّع كيكو، وقد أُحيط المُجمَّعين بأسوار، وكانا يبعدان بضعة شوارعٍ فقط عن مدرسة «إس إتش فورين». كان بيت كيكو أكبر وحديقته أوسع -فقد أقامت فيه هي وأخواتها، بينما انفرد بيتر بمنزله- إلا أن مُجمَّع بيتر تميَّز بناءٍ أفضل، ومسابح داخلية وخارجية، لذلك كانت كيكو تذهب إليه كثيرًا.

اتَّجهت كيكو في أحايين كثيرةٍ إلى مراقبة بيتر أوزي الأب، الذي تجمعه بابنه العديد من الصفات المُتشابهة، باستثناء أن الأب كان أكبر حجمًا، وأعرض جسدًا، ودائمًا ما يُغطي وجهه ظلٌّ لحيةٍ خفيفة. هذا الأب بمظهره الجاد للغاية هو مُدير المتنزه، حيث كانت كيكو وبيتر الابن يستمتعان كأنه ملكٌ لهما، مما دفع كيكو إلى التساؤل عمَّا إن كان قلب هذه النسخة الكبيرة من حبيبها يزخر ببقايا من صفات الطفولة، مما دفعه إلى العمل في ديزني، لا بدَّ أن هناك شيئًا ما، نوعٌ من الإيمان بسحر هذا المكان.

كما أن الوالدة، زوجة بيتر الأب لم تسلم من تحديقات كيكو، فباتريشيا أوزي لم تكن تفعل شيئًا على الإطلاق، لكنها تبدو كأنها على وشك الدخول إلى قاعة اجتماعات؛ إذ ترتدي ستراتٍ رسمية، وتنانير ضيِّقة، لكن التأثير الذي تتركه كان غريبًا حقًّا، إذ إن السيدة أوزي تبدو كأنها نجمةُ أفلامٍ خاصةٍ بالكبار، بثدييها الضخمين، وشعرها الطويل شديد الشُّقرة، المائل من شدِّة شقرته إلى البياض. كلَّما مرَّت باتريشيا بقرب كيكو، فكَّرت الأخيرة: «إذًا هذا ما يُعجب السيد أوزي».

أما كيكو الصغيرة، فكانت النقيض الفيزيائي للسيدة أوزي؛ بعينيها الواسعتين، ووجهها المستدير، وصدرها المُسطَّح، وأنفها الصغير،

كانت ذراعاها وساقاها نحيلتَين، وشعرها الأسود الحريريُّ يصل إلى أسفل ظهرها، وبشرتها بيضاء كورقةٍ. كانت كيكو جذابة، وجميلة، كأنها طفلةٌ بزيٍّ تلميذة.

***

رغبت كيكو، وأكثر من أيِّ شيءٍ آخر في العالم، بأن تُصبح نجمةً، وقد شاركتها جيسيكا هذا الحلم أيضًا، وبالتالي خطَّطتا معًا لحمياتٍ غذائية، ولأنظمة تمارين رياضيَّة للحفاظ على رشاقتهما، وكانتا تتدرَّبان على وضع المكياج واحدتهما على الأخرى. بالنسبة إلى جيسيكا، وفي حال عجزها عن تحقيق حلمها بالشهرة، نوت أن تكون خبيرة تجميل، فالقرب من الشهرة كان كافيًا بالنسبة إليها. أما كيكو، فقد نظرت إلى الأمر بعينٍ مختلفة، إما كل شيءٍ أو لا شيء على الإطلاق، لم تضع خطةً بديلة.

لم تتمتَّع جيسيكا بجمالٍ فتَّان، لكنها كانت طويلةَ القدِّ، ونحيفة، وحادَّة الملامح، ويمكنها تأدية أيِّ دور: شريرةٌ، ومغريةٌ، وبطلةٌ ذكيَّة ومرحة في دراما بوليسيَّة تلفزيونيَّة. كما أنها، ومثل كيكو، مختلطة العرق، لكنها نصف بيضاء، وليست آسيويَّةً بالكامل. صوَّبت جيسيكا أنظارها على صناعة السينما في هونغ كونغ، بينما كانت كيكو تُفكِّر بهذه الصناعة في الصين واليابان.

عقدت جيسيكا صفقةً مع والدتها، مفادها أنه في حال تخرُّجها بمُعدل 3.5، ستسمح لها بإجراء عملية تجميلٍ للأنف. أما كيكو، فلم تكن تستطيع أن تعقد مثل هذه الصفقة مع والدَيها، لأن ما تريده هو جراحةٌ لتكبير الصدر، وليس مجرد تحسينٍ طبيعي، بل كانت ترغب في صدرٍ ضخم، على غرار نجمات مجلة «بلاي بوي»، أو صدر السيدة أوزي. كيف يمكنها أن تذهب إلى والدها وتطلب ذلك؟ فهو ما زال يناديها بـ «كيكو

الصغيرة». أما والدتها فلم تكن بأيِّ حالٍ من الأحوال مثيرةً، لقد صنعت مسيرتها المهنية من خلال سحب الإبرة والخيط، وحياكة تطريزاتٍ دقيقةٍ للزهور والحيوانات الصغيرة مثل السناجب والنحل. كانت تنشر صورًا مرتبةً بعنايةٍ، ومضاءةً بإضاءةٍ دافئةٍ على حساباتها الاجتماعية، وتحصل أحيانًا على رعاية من شركاتٍ للقيام بأعمالٍ تحت اسم علاماتها التجارية. كانت دائمًا أنيقة، ونظيفة، ولطيفة. لكن اهتمامات كيكو لم تندرج تحت هذا المظهر، بل أرادت أن تكون إلهة الجمال، وأن يكون جمالها ضربًا من الخيال.

في كلِّ مرةٍ تضع فيها جيسيكا خافي العيوب وكريم الأساس وحُمرة الخدود على بشرة كيكو الناعمة، تُردِّد كيكو الشكوى ذاتها: وهي أنَّ وجهها «لطيفٌ» أكثر من اللازم، لماذا لم تولد بهيئةٍ أطول قليلًا، أو أكثر جاذبيةً؟ وفي كلِّ مرةٍ كانت جيسيكا تردُّ عليها بالطريقة نفسها، مشيرةً إلى أنَّها إن أمعنت التفكير في الأمر ستجد أن الكثير من النجمات كُنَّ لطيفاتٍ، فمثلًا مارلين مونرو في جوهرها كانت لطيفةً، حيث تبدو وتتحدَّث مثل قطةٍ صغيرة، أما أودري هيبورن فامتلكت جسدًا كجسدِ طفلةٍ!، لتقول بعد ذلك: «لكن يا كيكو، أنتِ أشبه بمارلين، لأن لديكِ وجهًا طفوليًّا».

وهكذا أدركت كيكو أنه ولتصبح الفتاة نجمةً حقيقيَّة يجب أن تحقِّق واحدةً من معادلتين: أولهما وجهُ طفلةٍ بجسدِ امرأة، وثانيهما وجه امرأةٍ بجسدِ طفلة. وبالتالي لم تشعر بالرضا عند نظرها إلى نفسها بالمرآة؛ إذ إنها ترى وجهًا لطيفًا، وجسدًا لطيفًا أيضًا.

ولكن، وبسبب تعليقات جيسيكا المستمِرَّة، بدأت كيكو بمُشاهدة أفلام مارلين مونرو جميعها، لتختار «كيف تتزوَّجين مليونيرًا» بوصفه الفيلم المُفضَّل بالنسبة إليها من بين أفلامها جميعها، وقد وجدت أن

رضا مارلين بمليون دولار فقط أمرًا طريفًا، فالجميع يملكون مليون دولار هذه الأيام، ولكن ربما كان هذا المبلغ ذا قيمةٍ أعلى قبل مئةِ عام.

حاولت كيكو، وعلى مدار أسابيع عديدة، أن ترفع نبرةَ صوتها ليُشبه صوت مارلين، وعندما سمعها والدها في إحدى الأمسيات، سألها على وجه السرعة: «هل تشعرين بتوعُّكٍ يا حبيبتي؟»، ضحكت وعادت لاستخدام صوتها الطبيعي، وصفعته مازحةً على كتفهِ، وهي تقول: «أوه، يا بابا! أنتَ لا تفهم!»، تمامًا كما اعتادت الردَّ عليه دائمًا منذ أن كانت في الثالثة من عمرها. وعندما بدا عليه المرح، كما كان دائمًا، أوضحت له: «أنا أتدرَّب على نطاق صوتي فقط». فقال: «لماذا لا تتدرَّبين على الرياضيات بدلًا من ذلك؟»، وعاد إلى كتابه دون أن يتوقَّع أي ردٍّ من قِبلها. لقد تخلَّى منذ زمنٍ بعيد عن أمل أن تُظهر أصغر بناته ميلًا إلى الرياضيات.

اعتادت كيكو كلَّ ليلةٍ أن تكتب في مذكِّرتها: «سأصبح نجمة، سأصبح نجمة». منذ أن أخبرت والديها لأول مرة بأنها تريد أن تصبح ممثلةً، وكان عمرها حينها عشر سنواتٍ، غمراها بالدعم من خلال دروس التمثيل، والمُخيمات المسرحية ضمن فصول الصيف. غير أن والدتها لم تتوانَ عن تحذيرها بين الحين والآخر من «حقائق» صناعة الترفيه. كانت تتحدث عن كيفية استغلال الرجال للشابات، وكيف تُجبر الفتيات أحيانًا على فعلِ أشياء لا يُحبِّذنَ فِعلها.

وفي إحدى المرات، وبينما والدتها تسترسل في تحذيراتها، قالت كيكو: «أنتِ أيضًا، دائمًا ما تفعلين أشياء لا ترغبين فعلها». لطالما سمعت كيكو صوت الجدال بين والدَيها في وقتٍ مُتأخِّرٍ من الليل، وترى وجهيهما مُتشنِّجين في صباح اليوم التالي، ليستمر هذا التشنُّج مدَّة يومين أو ثلاثة أيام. لم تستطع كيكو أن تعرف أسباب خلافاتهما، لكن

بدا لها بوضوح أن والدها هو الذي ينتصر دائمًا وأبدًا في تلك الجدالات. عندما ذكرت ذلك، نظرت نحوها والدتها، ووجهها لا يخلو من الدهشة، وقالت: «الأمر مختلفٌ هنا. أنا متزوِّجة»، لتردَّ كيكو: «وكيف يختلف ذلك؟». بجميع الأحوال عرفت كيكو مُسبقًا كيف تسير الأمور، إذ لطالما كانت صناعة الترفيه قاسيةً على الشابَّات، وهو أمرٌ أدركتْه من خلال تتبُّعها لسيرة مارلين مونرو.

أعادت والدتها تحذيرها: «الشهرةُ ليست براقةً كما تبدو». لتجيبها كيكو بنبرةٍ تنضح بسخريةٍ أكثر مما كانت تقصد: «وأنتِ تعرفين ذلك بسبب مُعجبيكِ؟».

- أنا لستُ مشهورة، بل إن عملي فقط هو الذي يحظى بشعبيَّة.

لكنها كانت فعلًا مشهورةً بطريقةٍ ما، إذ لديها ما يقارب مليونَي متابع على وسائل التواصل الاجتماعي، ومعظمهم -لا جميعهم- يابانيُّون، وقد أعربوا عن إعجابهم بأعمالها بشغف. نشرت إيكو ثلاثة كتبٍ عن التطريز الطبيعي، واعتادت أن تُجري مقابلاتٍ باستمرار، وتستضيف أحيانًا بثًّا مباشرًا تعرضُ فيه عملية خياطة أعمالها. أما كيكو، فلديها عشرون ألف متابعٍ فقط، وذلك بعد أن توسَّلت إلى والدتها لتضع رابط حسابها على صفحة السيرة الذاتية خاصتها. وقد تمحور محتوى كيكو غالبًا حول صورٍ ذاتيةٍ لها، وبرفقة جيسيكا أحيانًا، إلى جانب بعض اللقطات الفنية لقطط شوارع شانغهاي.

***

بالنسبة إلى بيتر فقد تمحورت خطته للمستقبل حول أن يُصبح لاعب لاكروس محترفًا، لذلك أمضى فصول الصيف في دوري الولايات المُتَّحدة للتدريب، بينما بقيت كيكو في شانغهاي، باستثناء الرحلة السنوية التي تقوم بها عائلة يانغ إلى الخارج. في ذلك الصيف الأوَّل

الذي افترقا فيه، كانت أختا كيكو الكبيرتان في المنزل لفترة، إذ أجرت يُومِي تدريبًا افتراضيًّا قبل رحلتها بعد التخرُّج، بينما عادت يوكو من المدرسة الداخلية. كان من المُفترض أن تسعد كيكو بتلك الأيام، لكن الحزن والكآبة سيطرا عليها، راحت ترسل رسائل نصيَّة إلى بيتر يوميًّا، بالإضافة إلى الرسائل المكتوبة بخطِّ اليد، رغم استغراقها وقتًا لتصل، لكنها رأت في هذا البطء طابعًا رومانسيًّا زاد من جمال الرسائل.

تعرَّضت كيكو للسخرية المُستمرَّة من قِبل أُختَيها بسبب بيتر، لكنهما أيضًا قدَّمتا لها النصائح، حيث أشارت يُومِي إلى أن الكثير من الناس ينتهي بهم المطاف بالزواج من أحباب المدرسة الثانوية، بينما أكَّدت يوكو أن الأولاد في المدرسة الثانوية أكثر نضجًا بمراحل من طلَّاب المرحلة الإعدادية، قائلةً: «سترين، عندما تبلغين المدرسة الثانويَّة، وتنظرين إلى الوراء، ستجدين أن طلاب الإعدادية مجرد أطفال».

اعتادوا الجلوس في كل ليلةٍ إلى الطاولة لتناوُل العشاء معًا، وقد شعرت كيكو بالدفء المُنبعث من عودتهنَّ معًا، إذ عجَّ المنزل بضجيجه، وأغراضهنَّ، وغمرت السعادة والدَيها، بل شعَّت من محيَّيهما، وبدآ بمشابكة أيديهما في أثناء سيرهما في الفناء بعد العشاء.

عاد الجميع لمناداتها باسم «كيكو الصغيرة»، وقد اعترفت بحبِّها لهذا اللقب، وبحبها للنظر إلى أُختيها الجميلتين، والواثقتين من نفسيهما. لكن كيكو، التي قضت أيامها بحضور تدريبات المسرح في الصباح، ودروس الرقص طوال فترة بعد الظهر، شعرت أن الحياة ناقصة بالرغم من وجود الجميع في المنزل. بيتر، بيتر هو الوحيد الذي فتح عينيها على أن الحياة فيها الكثير، وأكثر من مجرد كونها «كيكو الصغيرة».

خلال فصل الصيف أُصيبت كيكو وجيسيكا بالهوس التام بمارلين مونرو، ولم تقفا عند حدود الأفلام التي ظهرت فيها مارلين، بل

تجاوزتاها إلى كتبٍ ووثائقيَّات وأفلام سيرة ذاتية تتناول حياتها. تعلَّمت كيكو تفاصيل حياتها كاملةً: وُلدت باسم جين مورتنسن، وامتلكت في الأصل شعرًا أحمر، وأنفًا صغيرًا، وجسدًا نحيلًا. كما ذكرت والدتها التي لم تتواصل معها، وزوجٌ أعاقها عن تحقيق أحلامها. أُعجبت كيكو أيَّما إعجاب باستعداد مارلين لِفعل أي شيءٍ في سبيل الشهرة، لقد تمتَّعت بشغفٍ هائل، واعتقدت كيكو أنها هي نفسها تمتلك هذا الشغف ذاته، فهي أيضًا كانت على أهبة الاستعداد لطحنِ أي إنسان، أو أي شيءٍ يعترض طريقها نحو الشهرة. جميع الرجال الذين تزوَّجتهم مارلين -وربما استغلَّتهم- كانوا مجرد حواشي في قصة حياتها، وظلت هي، مارلين مونرو، الأسطورة.

نبَّهتها جيسيكا إلى أن بيتر قد يجد هوسها الجديد سخيفًا، وأنه من الأفضل لها ألا تخبره به الآن، رأت كيكو أن جيسيكا كانت تشعر بالإهمال، فوافقت. قرَّرت أن تكون مارلين موضوعًا مُشتركًا بينهما هما الاثنتان فقط. كانت تعلم أن بيتر لن يُمانع. نعم، رغبت أن تقصَّ عليه كل ما تعلَّمته عن هذه المرأة الجميلة والمأساوية، لكن ليس هناك وقتٌ على أيِّ حال، فبيتر بعيدٌ ومشغول، ولم ترَ كيكو ضررًا في مشاركة جيسيكا بسرٍّ بريء، لبضعة أشهرٍ على الأقل.

لكن السريَّة تحولت إلى عادةٍ بمرور الوقت، وعند نهاية الصيف، وبعد أن عاد بيتر إلى شانغهاي، أحجمت كيكو عن إخباره بمدى تعمُّقها في دراسة حياة مارلين. رأى ملصقًا جديدًا للنجمة في غرفتها، وعرف بذلك أنها معجبةٌ بها. كان على درايةٍ بحبِّها للمسرح والتمثيل، وكان هذا بالنسبة إليه الأمر وما فيه.

بمرور الوقت، بدأت كيكو تلاحظ أوجه تشابُه بين بيتر وزوج مارلين مونرو الثاني، جو ديماجيو. بيتر هو ألطف فتًى عرفته، وهو من النوع

الذي سيحضر الورود إلى قبر كيكو بعد وفاتها ويزورها كلَّ عامٍ، لكنه أيضًا، ومثل جو، عرضةٌ للغيرة والتملُّك.

بدأت كيكو مؤخرًا في تعلُّم رقص السوينج، وهي التي أصبحت على درايةٍ جيدةٍ بالفعل بالباليه، والراب، زالجاز، والرقص المُعاصر، وقد تعزَّز اهتمامها برقص السوينج في أثناء استماعها إلى موسيقا الخمسينيات الواردة في أفلام مارلين. لم تكن مدرستها تُدرِّس رقص السوينج، ولا حتى أكاديمية الرقص التي التحقت بها، لذا قصدت كيكو لهذا الغرض استوديو آخر في وسط المدينة، حيث كانت المنطقة الفرنسية سابقًا.

لم يمتلك بيتر ما يكفي من الوقت للانضمام إلى كيكو في صفٍّ رقص السوينج، وبجميع الأحوال لم يكن الرقص من ضمن اهتماماته، لكنه لم يُحبِّذ فكرة أن تتجوَّل كيكو -التي كانت في الخامسة عشرة من عمرها آنذاك، ثم أصبحت حبيبته لمدة عامين- وترقص مع رجالٍ مختلفين.

ومع ذلك، عشقت كيكو هذا كلَّه: الموسيقا المُفعمة بالإيجابية، والرقص السريع الطليق، وطريقة ابتسامها وضحكها بصوتٍ عالٍ، بالإضافة إلى استرخائها وانسجامها مع قائدها، على نحوٍ مختلف تمامًا عن هيكليَّة الباليه، وجديَّة الرقص الحديث، حيث شعرت عند تأديتها للرقص النقري والجاز بالفرح المُصطنع، أما رقصة السوينج، فقد منحتها سعادةً حقيقيَّة.

في النهاية، كان بيتر محقًّا في شعوره بالغيرة، فرغم أن كيكو أنكرت ذلك، إلا أن الانتقال من شريكٍ إلى آخر-الإمساك بيدين، الدوران بعيدًا، ثم الالتقاء بيدين جديدتين- كان متعةً حقيقيَّة. الرقص مع شريكٍ أشبه بتبادُل قبلة: حميميٌّ ولكن بلا التزام، ووديٌّ، ومرِحٌ، ويسهل الامتناع عنه.

يمكن القول إن انفصالهما حدث بسبب مارلين مونرو، وكان ذلك في الصيف الثالث لهما وهما بعيدان، إذ تمكَّنت الغيرة من بيتر، فراح يرسل الرسائل النصيَّة باستمرار، متسائلًا عن مكانها وماذا تفعل، ولكثرة هذه الرسائل اعتقدت كيكو أنه ربما برْمجَ تطبيقًا ليبعث إليها الرسائل على نحوٍ تلقائي، حيث استلمت العديد والكثير من الرسائل التي تُعدُّ تنويعات على: «ما الأخبار، يا كيكو؟»، أو صياغات متعددة لعبارة: «أنا أحبكِ».

أما كيكو فكانت شديدة الانشغال في التحضير لعرضٍ مع كونسرفتوار شانغهاي، ورقص السوينج (بعد أن تخلَّت عن الباليه)، والبحث في عالم المشاهير اليابانيِّ، وقد أدهشتها الاكتشافات التي توصَّلت إليها خلال بحثها، فعلى سبيل المثال، في اليابان، وأكثر من أيِّ مكانٍ آخر وصلت إليه أبحاثها -مثل الصين، أو هونغ كونغ، أو هوليوود- بدا أن الفتيات يصلنَ إلى عالم السينما من خلفيَّاتٍ غير مُتوقَّعة: من المقاهي، وبارات المُضيفات، وحتى من صناعة الأفلام الرديئة، كأن المُجتمع، وبمجرد أن يصبحن نجمات، يغفر لهنَّ وينسى ماضيهنَّ، كأنهنَّ يبدأن من جديد بسجلٍّ ناصع البياض.

حتى إن الطابع العام لحسابات الشخصيات المشهورة في اليابان على مواقع التواصل الاجتماعي كان مُختلفًا، فحسابات نجمات الولايات المُتَّحدة مثلًا تُظهر محتوياتٍ أكثر واقعية: كلاب، وأصدقاء، وقوارب. أما نجمات الصين، فيُبرِزن لمساتٍ من البذخ والفخامة: حفلات، وفساتين سهرة، وعروض أزياء. بينما في اليابان، فيتمحور محتوى النجمات حول موضوع الإثارة: صور شبه عاريةٍ، وأرجل مُتباعدة في ملابس السباحة، والانحناء فوق سيارة مع نظرةٍ خلفية نحو الكاميرا. من الذي التقط هذه الصور؟ تابعت كيكو التعليقات والإشارات، وجمعت قائمةً بالمصوِّرين

الذين يعملون مع «الفتيات الجميلات» المؤثرات، ووجدت أن جميعهم في اليابان، ثم دوَّنت معلومات الاتصال بهم في دفترها.

أنشأت كيكو حسابًا جديدًا وسريًّا لها، لأن محتواها الجديد لا يسمح لها باستخدام الحساب المُرتبط بحساب والدتها، وتابعت جميع المُصوِّرين، والعارضات، والممثلات، وبدأت تصوِّر نفسها في وضعياتٍ مُشابهةٍ في غرفتها باستخدام هاتفها. ومع استخدامها للإشارات الصحيحة في مواقع التواصل الاجتماعي، حصلت على عددٍ لا بأس به من المُتابعين، متجاوزةً الألف مُتابع في غضون أسابيع. كما عمدت أحيانًا إلى إرسال الصور إلى بيتر، الذي يردُّ في الغالب برمزٍ تعبيريٍّ على هيئةِ نار.

عندما عاد بيتر من دوري اللاكروس، زارها في المنزل، وكما مع انتهاء كلِّ صيفٍ يقضيانه بعيدَين أحدهما عن الآخر، لم يخلُ اللقاء الأول من بعض الحرج، ولكسر هذا الجليد تخيَّلت كيكو نفسها -كما أصبحت عادتها كلَّما وجدت نفسها في موقفٍ غامضٍ أو صعبٍ- أنها مارلين مونرو، تخيَّلت المُمثلة في موقع تصوير فيلمٍ، وهي تؤدي مشهدًا مع زميلها بثقةٍ عالية. لذا، جلست كيكو على سريرها، بينما ألقى بيتر برأسه على حجرها، وراحت تمرِّر أصابعها بين خصلات شعره. كانت عصا اللاكروس المُتَّسخة، والكرة الخاصان ببيتر مرميتَين على الأرض، وفي متناول اليد كما دائمًا، وكان يتصفَّح مجموعة الصور المُثيرة التي أرسلتها إليه كيكو خلال فترة الصيف، ثم جلس فجأةً مُبتسمًا، وأخفى شاشته.

سألت كيكو: «ماذا تفعل هناك؟». أجاب بيتر بينما أصابعه تتحرَّك بسرعة: «سترين».

- ما الأمر؟ دعني أرى.

حاولت كيكو أن تأخذ الهاتف منه، لكن بيتر تنحَّى جانبًا، وحماه على صدره. فقالت: «حسنًا، لن ألعب اللاكروس معكَ في هذا الصدد»، فهذه هي العبارة المعتادة بينهما عندما يتشاجران بمُزاح. لكن وجه بيتر تغير، اختفت ابتسامته، وتمكنت كيكو من رؤية عينيه تتحركان بسرعةٍ، من اليسار إلى اليمين، ومن الأعلى إلى الأسفل، ثم أظهر لها شاشة الهاتف، وسألها: «هل هذا الحساب لكِ يا كيكو؟».

لقد اكتشف حسابها السرِّي، بمتابعيها الذين بلغ عددهم 5557، وكانت كل الصور التي أرسلتها إليه معروضةً على الصفحة، بل وأكثر منها.

- كيف وجدتَ هذا؟

انتابها خوفٌ عظيمٌ من أن يجد والداها أو أُختيها الحساب.

- كنتُ أُجهِّز هذا.

عرضَ عليها المنشور، وهو: صورةٌ بسيطةٌ تُظهر كتفَي كيكو العاريتين، مرفقة مع تعليق «حبيبتي!». وتابع:

«وفجأة وردني تحذيرٌ من البوت خاصتي بشأن محاولة نشري لمحتوًى منشور سابقًا، ضغطتُ لأتحقَّق فوصلت إلى هنا. هل هذا حسابكِ، يا كيكس؟».

أحجمت كيكو عن الكلام بدايةً، واكتفت بالنظر إلى بيتر وهو يمدُّ يده بالهاتف، والشاشة مليئةٌ بصورٍ مثيرةٍ التقطتْها طوال الصيف. رؤية الصورتين بجانب بعضهما -بيتر وحسابها- جعلتها تُدرك مدى التنافر بين الاثنين. كان عليها أن تشرح موقفها، ولكن ألا يُفترض أن تكون مع شخصٍ لا يُجبرها على تبرير نفسها له؟ الأشخاص الذين يعلِّقون على صورها -الذين يتفاعلون برمز القلب على كل صورةٍ من صورها،

ويتركون لها تعليقًا يذكرون فيه أنها «الأجمل»- سيصطفُّون لمواعدتها، والآن ها هو بيتر غاضب.

سأل بيتر: «ما هذا بحق الجحيم؟». أجابته: «لستُ مجبرةً على تفسير نفسي أمامك».

شعرت كيكو بتغيُّرٍ داخليٍّ، بانفصالٍ بارد، كأن بيتر أصبح فجأةً لا يعنيها، كأنها تنجرف بعيدًا عنه، بعيدًا عن المشهد، كأنها مجرد إنسانةٍ تراقبهما وهما يتحدَّثان.

- بماذا كنتِ تفكِّرين؟ أتفعلين كل ذلك من أجل الإعجابات؟ هذا جنونٌ يا كيكو. صدركِ...

راح يقلِّب بين الصور، وتوقَّف عند صورةٍ تظهر فيها منحنيةً، ساقاها متباعدتان، وهي تنظر إلى الكاميرا من فوق كتفها، وقد بان في زاوية الصورة السرير الذي اعتادا الجلوس عليه.

- احذفي هذه الصورة يا كيكس، إنها لا تليق بكِ. و...

توقَّف عن الكلام للحظةٍ، كانت تراقبه، وشعرت كأنها لم ترمش بعينيها حتى منذ أن بدأ الكلام، تحوَّلت إلى تمثال. أضاف بيتر: «ظننتُ أن هذه الصور لي وحدي». أخيرًا، انفرجت شفتاها، وقالت: «أنا آسفة».

راح بيتر يقرأ التعليقات ويهزُّ رأسه، رغم أن معظمها كان باليابانية. راقبته كيكو وهو يقرأ، ومع كل هزَّة رأسٍ شعرت أن كرهها له يتعاظم. كرهت حياته البسيطة، وكرة اللاكروس الصلبة التي كانت أشبه بامتدادٍ له، والطريقة التي يعرفها بها، أو يظنُّ أنه يعرفها. صعدت بالكلمات تتصاعد ببطءٍ من جوفها، وترتفع ممزوجةً بالخوف والقوة، وبسرعةٍ لا يمكن معها إيقافها. قالت: «بيتر لا يمكن لعلاقتنا أن تنجح».

غمرها الشعور بالنصر، لكنه لم يكن شعورًا خالصًا، بل أدركت أيضًا أن قشعريرةً لا يمكن تفسيرها تسري في جسدها، وأن أسنانها تصطك، حتى اضطرت إلى إطباق فكَّيها بإحكام لتوقف تراقصها.

- لم أعدْ أُحبكَ بعد اليوم.

أنزل بيتر هاتفه، وحدق إليها غير مُصدِّق، حتى تسلَّل الشكُّ إليه، فقال: «أنتِ لا تعنين ذلك يا كيكس. لماذا، أبسبب الصور فقط؟ احذفيها وحسب، لا أعتقد أن أحدًا من معارفنا قد رآها، آمل ذلك. احذفيها وحسب. أنا آسف، لم أمنحكِ حقَّكِ من الاهتمام هذا الصيف، أليس كذلك؟ لكنني عدتُ. دعينا ننسى أن هذا الأمر قد حدث حتى. إنني أسامحكِ. إنني أحبكِ».

- لا يا بيتر، لن أحذفها. هذه الصور هي مسيرتي المهنيَّة. لقد انتهى ما بيننا، أنا آسفة.

نال الغضب من بيتر، فأمسك كرة اللاكروس، وراح يهرسها بين يديه، وهو يقول: «مسيرتك المهنيَّة؟ ماذا، في التحوُّل إلى عاهرة؟».

الآن أدركت كيكو فحوى الأمر: عليها أن تختار بين حسابها الشخصي (مسيرتها المهنيَّة)، وبين بيتر، وقالت له: «لماذا تحدُّثني هكذا؟». تخيَّلت كيكو مشاركتها في مشهدٍ عارٍ مستقبلًا، كيف سيكون ردَّ فعل بيتر حينها؟ لهذا السبب يعمد الممثِّلون إلى مواعدة زملائهم من الوسط ذاته. لا يمكنها أن تكون له كُليًّا، وتنصاع لرغباته.

- أنتَ تعلمُ أنني أريد أن أكون ممثلة. هذا ما تفعله الفتيات في اليابان.

فكَّرت كيكو بمارلين مونرو، وكيف التُقطت لها صورٌ من جميع الأنواع في الولايات المُتحدة، وأدركت أنه ومنذ زمنٍ بعيدٍ، لطالما كان الطريق إلى الشهرة واحدًا، والثمن ثابتٌ في كل عصرٍ وأوان.

قال بيتر، وهو يقف ويجمع أشياءه: «لا يتحتَّم عليكِ أن تصبحي عاهرةً لتحقِّقي حلمكِ».

- لم يلمسني أحدٌ غيرك البتَّة. إن كنت تعتقد أن هذه الصور تجعل منِّي عاهرة، فليكن إذًا.

أجاب بيتر ضاحكًا: «أنتِ لا تفكِّرين على نحوٍ سليمٍ يا كيكو». ثم سار نحو الباب، وأضاف: «خذي وقتكِ في التفكير بما تفعلينه، واتِّصلي بي عندما تعودين إلى صوابكِ». ثم، وكعادته دائمًا عند العتبة، نطَّط كرة اللاكروس خاصته ثلاث مرات. مكتبة سُر مَن قرأ

أنصتت كيكو إلى صوت وقع خطواته وهو يمشي في الردهة، وتخيَّلته ينعطف يسارًا إلى غرفة المعيشة مارًّا بالمكتبة، بطريقه نحو الباب الأماميِّ للمنزل. جميع الحراس عند البوابة يعرفونه حقَّ المعرفة، وأدركت كيكو أنه سيتجه إلى مُجمعه السكني، مُتجاهلًا والدته في طريقه إلى غرفته، وهو ينطِّط الكرة بغضبٍ طوال الوقت.

نهضت كيكو، وأغلقت باب غرفتها. لن تضطر مجددًا إلى سماع طجَّات الكرة الثلاث تلك.. أعدَّت الكاميرا في هاتفها، واتَّخذت وضعيةً مثيرة في انتظار ضوء الفلاش.

***

بعد فترةٍ وجيزة من انفصالها عن بيتر، كانت كيكو في حمَّام المدرسة تُعدِّل أحمر الشفاه خاصتها، سمعت صوت تدفُّق الماء في المرحاض، ثم صوتَ نقرٍ يقترب منها، وميَّزته على أنه النقر الذي تحدثه الأحذية ذات الكعب العالي. رفعت نظرها في المرآة فرأت تاكاكو. ابتسمت تاكاكو ابتسامةً سريعة في وجه كيكو، وقالت: «مرحبًا». ثم وضعت حقيبتها

السوداء من ماركة شانيل على حافة المرآة. راقبت كيكو انعكاس تاكاكو في المرآة، كانت تضعُ رموشًا اصطناعية طويلة، وأظافرها مقلَّمة في رؤوسٍ مُدبَّبة على شكلِ رمز البستوني الخاص بورق الكوتشينة، ومغلَّفة بطبقةٍ من الجلِّ الصلب، ومطلية بلونٍ أرجوانيٍّ داكن، بينما ثُقِب ظفر إصبع الخنصر الأيسر، لتُعلِّق به حلقةً صغيرة برَّاقة.

قالت تاكاكو فجأة، وهي تنظر في المرآة لتقابل عينَي كيكو: «هل يمكنني مساعدتكِ؟»، ومنحتها ابتسامةً ثانية. فجأةً شعرت كيكو كأنها داخل مشهدٍ من فيلم: امرأتان تتحدَّثان في الحمام. وفي محاولتها لكسر الصمت، قالت كيكو: «أظافركِ جميلة». لكنها في الحقيقة أرادت أن تسأل تاكاكو عمَّا تعرفه، أرادت أن تعرف ما تعرفه تاكاكو، وما تريده من الحياة. بعبارةٍ أُخرى: أرادت أن تصبح صديقتها.

أرجعت كيكو قلم الحمرة إلى حقيبتها، وأرادت أن تبرِّر لتاكاكو سبب عدم تواصلها معها بعد انتقالها إلى مدرستهما في الصف الثامن، إذ كانتا الفتاتين اليابانيتين الوحيدتين هناك، بينما يعمد عادةً معظم اليابانيين إلى قصد المدرسة اليابانيَّة في بودونغ، أو تلك في غوباي، أرادت الاعتذار عن عدم بذلها لجهدٍ أكبر، فقد كانت حياتها مليئةً بحضور جيسيكا وبيتر.

راقبت كيكو تاكاكو وهي تضع البودرة على وجهها، ثم قالت باليابانية: «تاكاكو، هل لديكِ التزام في عطلة نهاية الأسبوع؟»، لم تُشِح تاكاكو النظر عن نفسها في المرآة، وتنهَّدت وهي تردُّ باليابانية: «أعلم أن لديكِ ما تقولينه عنِّي».

لم تعرف كيكو كيف تردُّ على ذلك. أنهت غسل يديها وسحبت ورقتين لتجفيفهما. جففتهما ببطءٍ وبعناية، حتى لم يبقَ أثرٌ لقطرة ماءٍ واحدة. ثم قالت أخيرًا: «الناس يهتمون»، لم تستطع كيكو قول «أنا أهتم»، إذ لم

تهتم بتاكاكو كثيرًا حتى اليوم. ولم تستطع قول «والداك يهتمان»، لأنها لا تعرف قيد أنملةٍ عن حياة تاكاكو.

ضحكت تاكاكو بسخريةٍ. وقالت: «إذًا، هل أنتِ مهتمة أم ماذا؟» شعرت كيكو كأنها دُفعت إلى الوراء بيدين قويتين، رغم أنها لا تزال واقفةً أمام الحوض. أدركت بخجلٍ أن العرقَ قد بلَّل تحت إبطيها. وأجابت: «لا أعرف». لكن تاكاكو كانت بالفعل تبحث في حقيبتها. أخرجت محفظةً صغيرةً من ماركة لويس فويتون وفتحتها بسرعةٍ، بينما أصابعها تخدش الجلد الصلب، ثم سحبت منها بطاقة عملٍ بيضاء بالكامل، مع حروفٍ بارزةٍ تظهر على سطحها. أخذتها كيكو ووضعتها تحت الضوء لتقرأ الاسم الذي يكاد يكون خفيًّا: «ليلي صن». كان هناك رقم هاتف فقط أسفل الاسم. مرَّرت كيكو أصابعها على البطاقة كما لو أنها تقرأها بطريقة برايل. ألقت تاكاكو حقيبتها على كتفٍ واحدة وأبعدت شعرها عن وجهها. وقالت: «لن أخبر أحدًا. افعلي ما تشائين».

لم تكن كيكو على درايةٍ بعدد الرنَّات التي ينبغي أن تنتظرها قبل أن يجيب الطرف الآخر، وذلك لأنها لم تتحدث عبر الهاتف منذ خمس سنواتٍ تقريبًا، لكنها انتظرت طويلًا. غمرها شعورٌ بالمتعة، متعة الاستماع إلى رنين الهاتف، والانتظار لبدء المكالمة، وهو الأمر الذي، بالنسبة إلى كيكو، رفع من منسوب الإثارة. وأخيرًا، انقطع الرنين وسمعت صوتًا ناعمًا رقيقًا يقول باليابانية: «أهلًا أهلًا».

عرفت كيكو على الفور أنه صوت مارلين، وذلك لو أنَّ مارلين تمكَّنت من تحدُّث اليابانية، ودون أن تفكِّر كثيرًا، نعَّمت صوتها بالمثل، وردَّت باللغة ذاتها: «مرحبًا، لقد أعطتني تاكاكو هذا الرقم».

***

على الرغم من شبه صوت ليلي صن الكبير بصوت مارلين، إلا أنها من ناحية الشكل لم تشبهها على الإطلاق. كانت نحيلةً للغاية، وترتدي الأسود بالكامل: كنزةٌ سوداء تتسلَّق على طول عنقها، وتمتدُّ على طول ذراعيها، وسروالٌ أسود، وحذاء عالي الكعب. لم تضع أي مساحيق تجميلٍ، وقد زيَّنت أصابع يديها اليسرى خواتم ماسيَّة، يختلف أحدها عن الآخر: شريطٌ ماسيٌّ رقيق على خنصرها، ومربعٌ كبيرٌ على البنصر، ثمَّ قلادةٌ متدلِّيةٌ من الإصبع الوسطى، وشريطٌ ذهبيٌّ سميكٌ مرصَّعٌ بأحجارٍ صغيرةٍ على السبابة، أما الإبهام فزيَّنته بشريطٍ ماسيٍّ مرصَّعٍ بماساتٍ ضخمةٍ على طوله. فكَّرت كيكو بينها وبين نفسها: «ما أسوأ التعرُّض للصفع على الوجه بهذه اليد».

جلستا في غرفة الشاي، حيث تمتدُّ النافذة الوحيدة في الغرفة امتدادًا أفقيًّا على طول الجدار السفلي، ومن خلال الشريط الزجاجي الطويل تظهر الطحالب، والنباتات، ويجري جدولٌ صغير. بدا المنظر كأنَّه شيءٌ قد تطرِّزه والدة كيكو.

سألت ليلي صن: «أتفضِّلين التحدُّث بالصينيَّة أم اليابانيَّة؟».

أجابت كيكو، وقد فوجئت بالسؤال: «لا بأس عندي، اللغتان مناسبتان».

- أنا نصف يابانيَّة، ونصف صينيَّة.
- حقًّا؟ وأنا كذلك. ليس هناك الكثير منَّا هنا. إلى جانب أخواتي، بالطبع.
- نعم، ليس هذا المزيج بالأكثر شيوعًا.

أوضحت ليلي أن والديها قد التقيا خلال فترة دراسة والدها في طوكيو، وشاركت كيكو تفاصيلَ أخرى من حياتها، من بينها أنها بدأت بالعمل كمرافقةٍ في أثناء دراستها الجامعيَّة، كمحاولةٍ منها لتغطية

نفقاتها، وهو العمل الذي وجدته أفضل من أي وظيفةٍ مكتبيَّة جرَّبتها، وقد جرَّبت الكثير منها.

بدأت كيكو تشعر بالاسترخاء، لم تعرف ما الذي يجب أن تتوقعه، لكنها شعرت الآن بالارتياح وهي تستمع إلى ما تقوله ليلي: «نادني بالأخت ليلي» (وقد أصرَّت على ذلك). كان هذا اللقاء مجرد محادثةِ تعارُف، وليس تقييمًا أو اختبارًا من أي نوع.

سألت ليلي: «أتعرفين الكثير من الرجال اليابانيين؟»، هزَّت كيكو رأسها بالنفي. فأضافت ليلي: «الرجال هم أسهل الكائنات في العالم، وعلى وجه الخصوص اليابانيُّون منهم».

- لماذا؟

- الشيء المتعلِّق بالرجل الياباني هو أنه يمتلك هوسًا معينًا. ليس شيئًا يحتفظون به سرًّا، أو يكتشفونه عفويًّا في يومٍ ما. الرجال يبحثون عن هوسٍ مُعين ويختارونه، يطورونه ويصبح جزءًا من هويتهم، مثل هوايةٍ أو مهنة. وكما تعلمين، فإن هذا يجعل عملي أسهل. الرجال اليابانيون دائمًا يخبرونني بهوسهم في أثناء عملية التدقيق.

شعرت كيكو بالكلمات تتعثر في جوفها، وهي تجد طريقها إلى فمها غريبةً، ولا تبعث على الراحة: «ما نوع الهوس الذي لديهم؟».

- الزيُّ المدرسي، والكوسبلاي[1]، واللَّعب بالطعام، كما تعلمين، أمورٌ عاديَّة في الغالب. أحيانًا يميلون إلى تمثيل الأدوار، وأحيانًا يرغبون بأماكن معيَّنةٍ. القليل منهم يميلون إلى العنف، لكننا بجميع الأحوال نحاول ألا نلبِّي احتياجات هاته الأنواع.

(1) هو نوعٌ من فنون الأداء، حيث يرتدي المشاركون أزياء شخصيَّات الإنمي، ويضعون زينتها. (المترجمة)

قالت كيكو بتردد: «أنا ممثلة». لم تكن قد فعلت شيئًا غير عادي مع بيتر، لكن مصطلح «تمثيل الأدوار» لفت انتباهها وجعلها ترغب في مشاركة شيءٍ ما مع ليلي.

ردَّت ليلي: «أوه، من الجيد معرفة هذا».

- ألعب حاليًا دور أوفيليا في مسرحية المدرسة.

- أوفيليا، حقًّا؟

تمكنت كيكو من رؤية التروس تدور في رأسها، وهي تُضيف: «ما الذي يمكنك فعله أيضًا؟ هل تجيدين التقليد؟».

- يمكنني تقليد أي لهجةٍ تقريبًا.

ثم أضافت باللَّهجة الكوكنيَّة: «المطر في إسبانيا يبقى غالبًا في السُّهل».

صاحت ليلي: «أوه!»، وصفقت يديها بدهشة.

ثم تابعت كيكو بلهجةٍ بريطانيةٍ رسميَّة: «نادرًا ما تحدث الأعاصير في هارتفورد، وهيرفورد، وهامبشاير». ضحكت ليلي، وكان صدى ضحكتها أشبه برنين الأجراس، ما جعل كيكو ترغب في الاستمرار، مُضيفةً بصوتٍ متهدِّج: «وأستطيع تقليد مارلين مونرو على نحوٍ رائع». اتَّسعت ابتسامتها الآن، إذ بدأت تستعرض مهاراتها. ثم راحت تُغنِّي «عيد ميلادٍ سعيد، سيادة الرئيس» (Happy birthday, Mr. President).

***

تردَّدت كيكو في إخبار جيسيكا، فشيءٌ في داخلها دفعها لتُقدِم على هذه الخطوة وحدها، بعيدًا عن النصائح أو التدخُّل، والأسوأ من ذلك، بعيدًا عن تقليد جيسيكا لها.

أرسلت إليها ليلي رسالةً بعد اجتماعهما، تُطلعها فيها على الفكرة الرائعة التي خطرت في بالها، حيث ستعلن عن مزادٍ على كيكو، لتُباع لمن يدفع السعر الأعلى، وإن كانت كيكو مستعدةً للعبِ الدَّور، فستمنحها ليلي حصةً أكبر (خمسين بالمئة لكلٍّ منهما)، ولكن لمرةٍ واحدةٍ فقط، إذ تعود النسبة إلى طبيعتها (ستين بأربعين) في المرة القادمة.

ذكَّرتها كيكو برسالة: «لكنَّها ليست أول مرة»، لتردَّ ليلي: «الرجال لا يلاحظون الفرق، إذ يمتلكهم الحماس إلى درجة أنهم ينسون التفكير في الأمر بجديَّة». لم تُجب كيكو سوى بكلمة: «حسنًا». لم تهتم بخطة ليلي، ولا حتى بالمال، بل في الواقع، عندما فكَّرت في الأمر، وجدت أن التظاهُر أشبه بتمثيلِ دورٍ في فيلم. نظرت إلى نفسها في المرآة، وصنعت ما اعتقدت أنه وجه فتاةٍ خجول، وجهٌ ينضحُ بتعبير يعبِّر عن الألم.

في أثناء تدريباتها على مسرحية «هاملت» تلقَّت كيكو اتصالًا من مدام صن، التي أخبرتها: لقد حان الوقت. مساء السبت القادم، في فندق إنتركونتيننتال. دفع أعلى مُزايد مئتَي ألف.

ليس لديها حسابٌ مصرفيٌّ حتى لإيداع هذا المال، أين ستحتفظ به كلِّه؟ بدأ قلبها ينبض بسرعةٍ، إنها على وشكِ أن تجني مالها الخاص قريبًا. ستفعلها، لطالما أخبرت نفسها أن المال لا يهم، لكن بمجرد سماعها ذلك الرقم شعرت أن الأمور أفضل، وأدركت أهمية المال.

وضعت كيكو هاتفها جانبًا وعادت إلى المسرح لتُتابع تدريباتها، انتابها إحساسٌ كأنها على وشكِ التحليق بعيدًا عن المسرح، وبعيدًا عن الحرم الجامعي، مُرتفعةً فوق شانغهاي لتُلاقي مصيرها الأكبر. كانت فوق «هاملت»، وفوق المدرسة الثانويَّة.

***

في يوم السبت، استقلَّت كيكو المصعد إلى بهو الفندق في الطابق الثاني والتسعين، وأذناها تطنان في أثناء الطريق. كانت قد أمضت الأيام القليلة الماضية تفكر طويلًا فيما سترتديه. وأخيرًا حصرت خياراتها في ثلاثة أزياء: فستانٌ صيفيٌّ أبيض جميل يضيق عند الخصر، أو تنورةٌ سوداء قصيرة مع بلوزةٍ رمادية، أو فستانٌ أحمر ساطع يصل حتى الأرض، ذو حمالاتٍ رفيعةٍ وشقٍّ يصل إلى الفخذ، ويعود هذا الفستان إلى يُومِي التي ارتدته في حفل التخرُّج الصغير.

أرسلت صورة للأزياء الثلاثة وهي مصفوفةٌ على سريرها إلى ليلي. وجاء الرد سريعًا: الأبيض.

كان الهواء دافئًا في المساء المُبكر، وأخبرت كيكو مدبرة المنزل بأنها ستخرج للقاء بعض الأصدقاء في البوند. لطالما فرض والداها قواعد صارمةً على يُومِي حول متى وكيف يمكنها الخروج، لكنهما كانا أكثر تساهلًا مع يوكو، ولم يفرضا أي قواعد على كيكو، إذ زادت أعمالهما، وانغمسا في مشاغلهما عندما كبرت كيكو، حيث افتتح والدها مكتبًا آخر لشركته، بينما غاصت والدتها في الجولات الترويجية في اليابان لعملها في التطريز.

فكرت كيكو في طلب السيد فو، السائق الجديد للعائلة، لإيصالها، لكنها قررت أن الأمر لا يستحق المخاطرة، فالسائق يمكن أن يُخبِر مدبرة المنزل. لذا استدعت سيارةَ أجرةٍ عبر هاتفها، وحددت الوجهة إلى لوجيازوي.

في البهو، نظرت كيكو من خلال الجدران الزجاجيَّة إلى السماء الصافية في الليل. قريبًا سيملأ السماء قمرٌ كاملٌ. تذكرت كيف كانت هي وأخواتها يعوون عند رؤية القمر الكامل عندما كنَّ طفلات، وبعد أن أخبرت بيتر عن ذلك، بدأ هو أيضًا يعوي عند رؤية القمر كاملًا،

ليتحوَّل بذلك هذا الفعل فجأةً من شيءٍ خاصٍّ بها، إلى شيءٍ يخصُّ بيتر. ابتسمت عند استرجاع الذكرى، لكنها شعرت بوخزةٍ من الانزعاج؛ كان بيتر دائمًا ما يأخذ أشياءها.

بدا وينستون ياماشيتا كأنه صبيٌّ. صبيٌّ طويلٌ ونحيل على الرغم من أنه في مُنتصف الأربعينيات من عمره. عندما أخذها لأول مرةٍ إلى غرفته في الفندق، شعرت كيكو بالتوتر، لكن بعد تناولها لبضع كؤوس من الشمبانيا، حلَّ الدفء والحماس مكان التوتر. أخبرته عن دراستها في المدرسة وما تقوم به خارجها، وحبها لرقص السوينج. بعد ذلك، طلب منها السيد ياماشيتا أن تُريه بعض الحركات، وراحا يرقصان معًا في وسط جناح الفندق، بينما أضواء شانغهاي الملونة تمتدُّ بعيدًا تحتهما. كان نهر هوانغبو يبدو كأنه جرحٌ من الحبر بين النجوم. أخبرها عن عمل عائلته في مجال الفنادق، وكيف أنَّه يخطِّط لدخول مجال إنتاج الأفلام.

تخيلت كيكو نفسها معه، وأن نجميهما سيسطعان معًا من خلال فيلمٍ ناجحٍ أو اثنين. تخيَّلت أن اسم ياماشيتا سيصبح مشهورًا مثل كوروساوا أو ميازاكي، وأنه سيتحول في النهاية إلى الإخراج. وربما في وقتٍ لاحقٍ من حياتها المهنية قد تحاول هي أيضًا ذلك، رغم أنها ستركِّز دائمًا على التمثيل. عندما دخلا السرير، كانت كيكو مخمورةً ومفعمةً بالحماس لأفكار المستقبل مع ياماشيتا، الذي كان لطيفًا ووسيمًا ولم يكن كبيرًا في السن، أو مثيرًا للاشمئزاز كما توقَّعت.

لكن بعد محاولةٍ فاشلة، قال لها ياماشيتا: «آسف، هذا لن ينجح. كنت أظن أنه سينجح، لكن لا يبدو كذلك».

- أوه، ما الخطأ؟

أرادت كيكو أن ترضيه، كانت تشعر أن مستقبلها كلَّه يعتمد على هذه الليلة. كانت تتخيل أن الناس سيسألونها: «كيف التقيتِ بوينستون ياماشيتا؟» وستجيبهم: «في موقع التصوير»، وهي تمسك بيده على السجادة الحمراء، أو بعد أن يصبح زواجهما سريًّا ويهربان معًا، متجنِّبين سيطرة فريق إدارتها الذي حافظ على صورتها كعزباءٍ وبريئة.

قال ياماشيتا: «أنا فقط بحاجةٍ إلى أن تحلقي. هل هذا ممكن؟». استغرق الأمر لحظة من كيكو لتفهم ما كان يتحدث عنه.

- أوه، فهمت.

من بين كل الأشياء التي فعلتها كيكو مع بيتر، لم تضطر يومًا إلى الحلاقة، ليس كأن لديها الكثير للتخلُّص منه، لكنَّ بيتر لطالما طلب منها أن تترك نفسها على طبيعتها، مشيرًا إلى أن طبيعتها تزيد من أنوثتها، وأنه كلما كانا عاريين معًا، يشعر كأنهما طرزان وجين، أو آدم وحواء. وبعد سنواتٍ عديدة من علاقتها معه لم تعد تفكِّر في الأمر كثيرًا، لكن ها هي الآن يُطلب منها أن تحلق.

ترددت كيكو. حتى مجرد التفكير في وضع شفرةٍ على تلك المنطقة أخافها. قالت: «لم أفعل ذلك من قبل». كان وينستون جالسًا على طرف السرير، وذراعاه الطويلتان النحيفتان تتدليان بجانبيه، وبتلقائيةٍ قارنته مع بيتر، الأصغر منه بخمسةٍ وعشرين عامًا، الذي يبدو أكثر قوةً، وأحسنَ بِنية. قفز وينستون نحوها بحماسٍ، وقد ارتسمت ابتسامةٌ على وجهه. وقال: «يمكنني فعل ذلك لكِ».

- حقًّا؟

لم تتحمس كيكو للفكرة، لكن وينستون نهض من السرير وسحبها معه إلى الحمام. قائلًا: «سأفعلها في الدش، ستكون تجربةً لطيفة. ولسوف أتوخَّى الحذر».

شعرت كيكو بأن ذراعها تُسحب، وجسدها يتبع الذراع. نظرت إلى وجهه -الأملس الخالي من الشعر- وطمأنت نفسها إلى أنه لا بدَّ يحلق وجهه كل يوم، حول المناطق الحساسة مثل الفم. لا بدَّ أنه يعرف كيف يفعل ذلك. ربما كان هذا هو هوسه: الحلاقة؟ لكن مع ذلك، فكرة الدم الناجم عن جرحٍ في مناطقها الحساسة يتدفق عبر مجرى الدش جعلتها تتردد. ماذا لو كان وينستون ميَّالًا إلى العنف، أو لديه نزعةٌ سيكوباتيَّة؟

قالت، وهي تبتعد عنه: «أنا خائفة».

لكنه عرَّض ابتسامته أكثر، وزاد من جهوده. أخيرًا، وافقت كيكو عندما عرض عليها أن تبدأ بحلاقة منطقته الخاصة أولًا. جعلها العرض تضحك، وشعرت بالاسترخاء لأول مرةٍ منذ أن بدأت المحادثة. شعرت كما لو أن بإمكانهما أن يكونا شريكين متساويين، أو على الأقل أن ليلتهما معًا قد اتخذت منحًى فريدًا، ربما، بالنسبة إلى وينستون، كانت هذه أيضًا تجربةً جديدة، وربما يمكن أن تكون الأفضل، والأخيرة من نوعها بالنسبة إليه. كانت كيكو في السادسة عشرة فقط، نعم، صغيرة جدًّا للاستقرار. ولكن مُنتِج! ممثلةٌ ومُنتِج. تبعته إلى الحمَّام وانتظرت بينما يفتح صنبور المياه، كان قد لفَّ نفسه برداء حمَّامٍ أبيض فائق النعومة. كانت الشفرة -جيدة ولامعة بلونٍ فضيٍّ على الجوانب، على الأرجح تلك التي يستخدمها لوجهه- موضوعةً على حافة حوض الاستحمام. أزال وينستون رداء الحمَّام لتتبيَّن كيكو أن رغبته في أوجها، لكنها فشلت في العزوف عن مقارنته ببيتر.

أدارت كيكو وجهها نحو النافذة، ورأت سماء سوداء داكنةً، وفي انعكاس النافذة، لمحت الشكل الضبابيَّ للسيد ياماشيتا يتحرك فوقها. كان كلُّ شيءٍ مملًّا جدًّا.

أغمضت عينيها وتذكرت «سبايس ماونتن»، لعبة الملاهي المفضلة لها ولبيتر. تخيلت النجوم في الظلام الحالك، وكيف كان جسدها يتراقص من جانبٍ إلى جانب. كانت تعرف ما الذي تتوقعه: بدايةً هادئة، ثم صعودًا حادًّا، فلفَّةً سريعةً، ثم وسطًا بطيئًا حيث يمكنك أن تلتقط أنفاسك والنجوم تبدو كأنها ترقص حولك في دوامةٍ من الدوار. كانت تلك اللحظات تمرُّ بسرعةٍ دائمًا.

تذكرت يد بيتر، الدافئة والناعمة، التي تمسك بيدها دائمًا. ربما هو من كان يخاف حقًّا، مرَّت أوقاتٌ أرادت فيها التحرر من قبضته، عندما تساءلت كيف ستكون «سبايس ماونتن» إذا تمكنت من الحصول على المقعد الأمامي لنفسها فقط. كانت ستمسك نفسها، تتأهب لجميع الصدمات والتقلبات، وسترى كلَّ شيء بوضوحٍ أكبر، وبدون عوائق. قد تشعر بالوحدة، وحتى الخوف، لكن الإثارة ستجد طريقها إليها أيضًا.

لم يدرك السيد ياماشيتا، ولكن كيكو كانت تبكي بصمت، وليس مردُّ ذلك إلى الخوف، الآن وقد اقترب كلُّ شيءٍ من النهاية، بل في الغالب، كانت تفتقد بيتر، تفتقد لطفه، وابتسامته، ووجهه الشاب الوسيم الذي تحطم عندما أخبرته بأنها لم تعد تحبه.

ربما يكون بيتر الآن جالسًا في منزله على كرسيه، مُمسكًا بعصا اللاكروس القديمة المُهترئة، يمضغ العلكة، ويترك الكرة المتَّسخة تضرب الحائط مرارًا وتكرارًا، صوت ارتطام الكرة بالحائط أصبح بمثابة خلفيَّة لكل محادثاتهما وكان يسبب لها الإزعاج، لكنها الآن تتوق إلى ذلك الإيقاع المألوف.

مكتبة
t.me/soramnqraa

في زمن الأشجار كريهة الرائحة

أبريل/ نيسان 2038

حلَّ مجددًا موسم الأشجار كريهة الرائحة. أغلقت يوكو نافذتها التي بدأ الظلام يزحف عليها لتتجنب الرائحة الكريهة. كانت تلك الأشجار تصطفُّ على طول الممرات في الحرم الجامعي، وفي كلِّ ربيعٍ تتفتَّح بِتلَّاتها، فتغمر المساحات الخضراء برائحةٍ سيئة. عندما سألت يوكو والدتها عن هذه الأشجار في الربيع الماضي، وهو أول ربيعٍ تقضيه خارج البلاد، أخبرتها والدتها أن اسمها العلمي هو الكمثرى البرادفوردية (Pyrus calleryana). كانت الرائحة تستمرُّ لبضعة أسابيع فقط، إلى أن تسقط الأزهار على الأرض.

تساءلت يوكو: هل أنا الوحيدة التي تُزعجها هذه الرائحة؟ إذا بدا أن الجميع في الحرم الجامعي لا يكترثون، بل وكانوا سعداء للغاية. حيث أخرجت الفتيات فساتينهنَّ وتنانيرهنَّ، أما الفِتيان فكانوا يرتدون ألوان السلمون والبرتقالي والكاكي الوردي، وتزامن إزهار هذه الأشجار

مع شعورٍ بالاحتفال ساد في الأجواء. الرائحة الكريهة والفرح، هذا هو الربيع في المدرسة الداخلية. بقيت أمام يوكو سنتان فقط، ثم ستنتهي من هذا كلِّه، وربما تختار كليَّة تخلو من الأشجار ذات الرائحة الكريهة، في مكانٍ بعيدٍ عن ماساتشوستس.

***

صدر صوت أنينٍ عالٍ وغير مبالٍ من الغرفة الداخلية. إنه تشارلي كانتر، الطالب في السنة الأخيرة وقائد فريق التجديف. نظرت يوكو إلى الباب، حيث كان حذاء الباليه ذو الطباعة الفهديَّة المألوف بالنسبة إليها محشورًا أسفل الباب ليخلق فتحةً صغيرةً جدًّا، وهي الطريقة التي تتبعها برنادين للامتثال لسياسة المدرسة بترك الحذاء عند الباب.

كانت يوكو قد طلبت الحصول على غرفةٍ فرديَّة في العام الماضي، لكنها سحبت رقمًا مرتفعًا في القرعة السكنية، وها هي الآن عالقةٌ في واحدةٍ من تلك الغرف المزدوجة المتصلة المحرجة مع طالبةٍ جديدةٍ في السنة الثانية، برنادين من مدينة نيويورك. في البداية، أثارت برنادين اهتمام يوكو. إذ تتمتع بمظهرٍ متهاونٍ، يكاد يكون فوضويًّا، كأنها لا تبالي بجمالها. وفي البداية، كانت برنادين لطيفةً جدًّا مع يوكو، تتبعها كجروٍ ضائعٍ في أنحاء الحرم الجامعي، لكن سرعان ما جذبت انتباه فتياتٍ أُخرياتٍ بنفس القدر من البرود واللامبالاة، وبسرعةٍ كذلك، لفتت أنظار الفِتيان.

اعتادت يوكو أن تراقب عدد الفِتيان الذين جاءوا إلى غرفة برنادين في الزيارات المسموح بها وغير المسموح بها، ومع حلول ربيع هذا العام، ومع حلول موسم الأشجار كريهة الرائحة، كان العدد قد بلغ بالفعل اثنَي عشر شابًّا. كانت يوكو تستمتع بقراءة قائمة الزوَّار في سجل الزيارات، حيث وُضعت القائمة على طاولةٍ جانبيَّة في الغرفة

المُشتركة، مما جعلها مُتاحةً للقراءة لمن يرغب، حيث تُدرج فيها أسماء الفتيات وأسماء الزوَّار وتاريخ وتوقيت الدخول والخروج. كانت برنادين دائمًا تكتب اسمها بخط يدٍ واثقٍ يشغل المساحة بأكملها، عموديًّا وأفقيًّا، وتكتب الاسم الأول فقط: «برنادين»، إذ تعرف أنها الوحيدة التي تحمل هذا الاسم، أما أسماء الفتيان فكانت مُخربَشة على نحوٍ عشوائيٍّ، وقد دُوِّنت أسماؤهم الأولى والأخيرة.

ألقت يوكو نظرةً استطلاعيَّة حول غرفتها لتحصي أشياءها، وهو ما تفعله كلَّما أحضرت بيرنادين أحدهم إلى الغرفة. كانت يوكو تعلم أن من غير المرجح أن يأخذ أحد الفتيان أي شيءٍ من ممتلكاتها، لكنها ذات مرة، عندما عادت من المكتبة، وجدت انطباعًا خفيفًا على سريرها. هل جلست بيرنادين وأحد ضيوفها على سريرها؟ هل قبلا بعضهما؟ لم تواجه يوكو زميلتها في الأمر. لم تكن غاضبةً، كما لم تكن متزمتةً، ولكن منذ ذلك الحين، أصبحت أكثر يقظةً في الحفاظ على ترتيبها وتنظيمها، وحرصت على وضع كل شيءٍ في مكانه.

يمتدُّ سرير يوكو بين نافذتين، وغطاؤه مفروشٌ ومطويٌّ بدقةٍ على ثُلث طوله، حاكته والدتها لها قبل أن تأتيَ إلى ماساتشوستس، بلونٍ أخضر غابَويٍّ، ومطرَّز بفطرٍ أحمر وأبيض وبنيٍّ وأرجوانيٍّ -منقَّطٍ، وقصيرٍ، وطويلٍ، وممتلئٍ- على طول الحافة.

عندما سألت والدتها عن مخلوق الغابة المُفضل لديها، أجابت يوكو بأنه الفِطر. حيث تزامن السؤال مع قراءتها عنه في ذلك الوقت، وتطوَّر اهتمامها به، إذ كانت في طور كتابة تقريرٍ لصف العلوم عن اللغة السريَّة للفطريات وكيفية تواصلها من خلال شبكة اتصالاتٍ تحت الأرض. كانت الفطريات، ورسائلها، ضروريةً لصحة الغابة وبقائها. بطريقةٍ ما، كانت حيَّة مثل أي حيوان آخر. ربما توقَّعت إيكو أن تجيب يوكو: الثعلب، أو

البومة، أو الأرنب، لكنها لم تتردد، بل قالت مستعدةً للتحدِّي: «إذًا، الفِطر هو خيارك».

لمست يوكو حافة البطانية المطويَّة للخلف، ومرَّرت أصابعها على فطر الأمانيت السلس. اليوم، لم يلمس أحد سريرها. عدَّلت اللافتة فوق رأس سريرها: «لا يدخل هنا من يجهل الهندسة»، حيث سبق واشترتها في أثناء رحلةٍ عائليةٍ إلى اليونان قبل خمس سنوات. قبل أن تأتي يوكو إلى المدرسة، اعتادت أن تُعلِّق اللافتة فوق باب غرفتها في المنزل، ولكن هنا لم يُسمح لها بترك الأغراض الشخصية في الممر.

على أيِّ حال، كانت بيرنادين سيئةً في الرياضيات، وليس بمقدور يوكو أن تستبعدها من غرفتها الخاصة، أليس كذلك؟

جلست يوكو إلى مكتبها، حيث تنتظرها واجباتها. على المكتب، مسنودةً إلى الحائط، ثمَّة أشياء ثلاثة: كرةٌ صغيرةٌ مصنوعةٌ من خيوطٍ ذهبيَّة، تمثل نكتةً داخليَّة بينها وبين والدها، وبجانبها صورةٌ مؤطَّرةٌ لعائلتها تعود إلى زمنٍ بعيد، حيث كان عمر يوكو ربما أربع سنوات، وعمر يُومِي ست سنوات، وكوكو ما تزال طفلةً صغيرة، ووالداها يقفان خلفهنَّ أمام بوابة معبدٍ في اليابان، وكانت آيي تقف بجانبهم، بعيدةً عنهم بضع خطوات، بدت آيي مرتبكةً، كأنها لا تعرف ماذا تفعل بيديها الفارغتين، كانت عجوزًا بالفعل سنة التقاط الصورة، وبعد بضع سنواتٍ فقط، ستتقاعد وتغادرهم. كما تدلَّى سوارٌ من صُنعِ كيكو من زاوية الإطار، مكوَّنٌ من خرزاتٍ ورديَّة باستثناء ثلاث خرزاتٍ تظهر عليها حروف كلمة «SIS» (أخت). كلُّ شيءٍ موضوعٌ في مكانه الصحيح.

رنَّ هاتفها على المكتب، بجانب كتاب اللغة الصينيَّة المفتوح، لقد فاتتها مكالمةٌ من يُومِي. وضعت الهاتف ووجهه لأسفل، وحاولت التركيز على إنهاء مقالتها. كانت يوكو في أعلى مستوى في صفها لأنها

تستطيع قول أي شيءٍ بلغة الماندرين، لكنها متأخِّرةٌ بالقراءة والكتابة مقارنةً بالآخرين، وقد اكتسبت طلاقتها اللغوية في الكلام بحلول سن الخامسة، بفضل آيي، التي لم تتحدث معها سوى بالصينية. نظرت يوكو مرةً أخرى إلى الصورة، ثم عادت بتركيزها إلى الكتاب المدرسيِّ. كانت هي الوحيدة من بين الشقيقات الثلاث التي حافظت على التواصل المُنتظم مع مربيتهنَّ السابقة، التي تعيش الآن في الريف بعد تقاعدها.

وجدت أن حفظ الحروف الصينية وكتابتها بترتيبٍ معيَّنٍ من الأعلى إلى الأسفل ومن اليسار إلى اليمين، أو أيًّا كان، يمثِّل مصدر إزعاجٍ كبيرٍ في حياتها المدرسية. لم يكن الأمر صعبًا، لكنه يستغرق الكثير من الوقت، وأكثر ما أزعجها هو عدم الكفاءة في هذا الأمر. لماذا؟ لم يعد هناك أحدٌ بحاجةٍ إلى الكتابة اليدوية بعد الآن، إذ بإمكانها أن تملي مقالةً كاملةً في تطبيق. إنها لتكره هذه الخطوات القديمة الروتينيَّة التي لا تزال مُتَّبَعة في التعليم.

تحمَّست يوكو لتعلُّم اللغة اليونانية القديمة عندما وصلت إلى المدرسة، حيث اعتقدت أن ذلك قد يساعدها في فهم غموض الإغريق، تلك الموهبة الفريدة لديهم، وشريط العبقرية والابتكار، ونهايتهم. لكن اللغة، على الأقل في مرحلتها الأساسية، لم تمنحها أي رؤًى عظيمة، كما استغرق تعلُّم اللغة اليونانية من الصفر وقتًا كبيرًا من وقت دراستها للرياضيات، التي كانت متقدمةً بشكلٍ كبير هنا مقارنة بمدرسة «SH Foreign».

لطالما افترضت يوكو أنها بارعةٌ في اللغات، فهي تتحدث أربع لغاتٍ بطلاقة: الصينية، واليابانية، والفرنسية، والإنجليزية، وتفهم لغةً خامسةً وهي «لغة شانغهاي»، لكنها لم تُدرك مدى العمل الذي يتطلبه

اكتساب حتى الكفاءة الأساسية في لغةٍ غريبةٍ تمامًا إلا عندما وصلت إلى المدرسة الثانوية. كانت قد ولدت، في الأساس، في بيئةٍ متعددة اللغات.

رنَّ هاتفها مجددًا. علمت يوكو أن المُتَّصل سيكون يُومِي، التي تُقيم في سكنٍ جامعيٍّ يبعد عن مدرستها مسافة نصف ساعةٍ فقط بالقطار. على الرغم من قُربهما الجغرافي، وبعد عائلتهما، لم تلتقيا منذ عطلة الشتاء الماضية في شانغهاي.

همست يوكو، أخيرًا وهي تلتقط الهاتف: «مرحبًا». سألت يُومِي، بصوتٍ يملؤه الازدراء كعادتها: «لماذا تهمسين؟». أجابت يوكو ببساطةٍ لتشرح الوضع: «ثمَّة شخص هنا».

- إذًا اذهبي إلى مكانٍ آخر.

- حسنًا. انتظري.

غادرت يوكو الغرفة بهدوء، وتأكدت من أن الباب الخارجي لم يصطدم بالحذاء الثاني ذي الطباعة النمريَّة. وفي الردهة، وضعت الهاتف على أذنها وبدأت تمشي باتجاه السلالم.

بدأت حديثها: «إذًا... كيف حالكِ؟».

خلال العطلة، خاضت يوكو ويُومِي مشاجرتين: كانت الأولى جدالًا حول الجامعات. في إحدى ليالي العشاء، وبينما تخوض العائلة نقاشًا حول الجامعات التي تفكِّر يوكو في التقدم إليها، ورد ذكرُ جامعة هارفارد ضمن القائمة، وبعد العشاء، عندما كانت الأختان تشاهدان مسابقةً غنائيةً على التلفاز، طلبت يُومِي منها أن تزيلها من القائمة. قالت: «لماذا لا تعيشين حياتكِ وأعيش أنا حياتي؟ لماذا لا تذهبين إلى باريس؟ يمكنكِ أن تسلكي مسار والدي نفسه. ذلك سيجعله سعيدًا».

- نعم، لكني أريد الانضمام إلى أفضل برنامج. هارفارد ليست حتى خياري الأول. لديَّ خيارات أخرى أيضًا.

قالت يُومِي: «جيد. لا تلتصقي بي».

- متى التصقتُ بكِ من قبل؟ أنا ذهبت إلى أمريكا أولًا.

- أنا من اقترحت عليهم أن يرسلوكِ بعيدًا. لم أستطيع تحمُّل وجودكِ حولي، ومع أصدقائي طوال الوقت.

- مهما كان. لا أصدقكِ. ولا يهمني ما تفكرين فيه.

- أنتِ لا تهتمين بما يفكر فيه أحد، وهذا ما يجعلكِ خطِرة جدًّا.

الآن، حافظت يُومِي على نبرةِ صوتٍ خفيفةٍ على الطرف الآخر من الخط، وأجابت: «أنا بخير. على أحسنِ ما يُرام».

فتحت يوكو باب الدَّرج وجلست على سُلَّم الطابق الثالث، وأُغلق الباب الثقيل المضاد للحريق خلفها، ثم سألتها وهي تقضم الجزء الداخليَّ من خدِّها: «رائع. ما الأمر إذًا؟».

- حسنًا، أفكر في الانتقال من السكن الجامعي. الحياة في السكن الجامعي سخيفة، إنها تقييديَّة. أنتِ مع الجميع طوال الوقت. أحتاج إلى بعض المساحة.

سألت يوكو: «حقًّا؟ ظننتُ أنَّكم تتمتَّعون بكل الحرية الموجودة في العالم».

- نعم، ولكن الأمر ليس نفسه.

- نفس ماذا؟

- كأن تكوني بمفردك.

- حسنًا، لكنني لا أعتقد أنكِ تستطيعين فِعل ذلك حتى لو أردتِ. جامعة هارفارد لا تسمح للطلاب الجُدد بالسكن خارج الحرم الجامعي.

- أستطيع. لا يوجد رقيبٌ دائمٌ على غرفتي. ثمَّة شابٌّ من ماليزيا يستأجر جناحًا فاخرًا في فندق في بوسطن.

- هل تريدين العيش داخل فندقٍ في بوسطن؟

- لا! لكن يمكنني الحصول على مكانٍ صغيرٍ خارج الحرم الجامعي في كامبريدج. هناك الكثير من الخيارات.

- امم، حسنًا. فلتفعلي ذلك إذًا.

- حسنًا، أحتاج إلى مساعدتك.

لفَّت يوكو شعرها حول أصابعها، ثم وضعت طرفه في فمها، تمضغه حتى أصبح كتلةً رطبة. وسألتها: «كيف؟».

- أحتاج إلى بعض المال.

- أليست لديكِ بطاقة ائتمان؟

- لا يمكنك دفع بدل إيجار شقةٍ ببطاقة ائتمان. لا بدَّ من دفع بدل إيجار شهرٍ أو شهرين مُقدَّمًا.

- ماذا عن بطاقة الخصم الخاصة بكِ؟

- لقد استنفدتُ مخصَّصاتي.

- حقًّا؟

نظرت يوكو إلى ساعتها، وأضافت: «لا زلنا في اليوم الخامس من الشهر»

- أيًّا يكن. احتجتُ إلى بضعةِ أشياء. كم لديك من المال؟

- أنا أيضًا أحتاج إلى المال.

- نعم، أعلم، لكنك في مدرسةٍ داخلية. ألا يوفِّرون لكِ كل شيء؟

اعتادت يوكو أن تطلب طبق «باد تاي»[1] للعشاء في معظم الليالي، فذلك يجنِّبها التوتر الذي تشعر به في قاعة الطعام مرةً واحدةً في اليوم. وعلى عكس باقي الطلاب، لم تكن تذهب كثيرًا إلى وسط المدينة لشراء القهوة من «ستاربكس» أو لشراء أشياء من المتاجر المحلية، فوسط المدينة أثار قلقها أيضًا، لذا اختصرت زياراتها إلى هناك على تلبية حاجاتها التي لا يمكن إيصالها إليها في الحرم المدرسي.

ردَّت يوكو على يُومِي: «إنهم لا يوفِّرون كل شيء»

- اسمعي، إنَّها حالةٌ طارئةٌ نوعًا ما. زميلاتي في الغرفة مروِّعات، إنهنَّ حقيراتٌ فعلًا، ويعاملنني معاملةً فظيعة.

سألت يوكو مُندهشة: «أيعاملنكِ بفظاظة؟».

- نعم. لا يتحدثن معي. يعاملنني كأني لا شيء. وضعن كلَّ أغراضي في صندوق وأخبرنني أساسًا أنني بحاجة إلى الرحيل.

استمعت يوكو إلى صوت أختها الذي أثار شعورها بالغثيان. كان صوت يُومِي مرتبطًا في ذهنها بالخوف والألم، لذلك عندما تسمع تسجيلات لصوتها هي نفسها تتفاجأ كيف أن صوتها يشبه صوت يُومِي إلى حدٍّ كبير.

- لماذا لا تتحدثين مع إدارة السكن؟ قد يجدون لكِ غرفةً جديدة.

- لا، لا يمكنهم ذلك.

---

(1) باد تاي هو طبقٌ تقليدي من المطبخ التايلاندي، ويعتبر واحدًا من أشهر الأطباق في تايلاند وعلى مستوى العالم. وباد تاي يعني حرفيًا «المقلي التايلاندي»، وهو يعكس التنوُّع والتوازن في النكهات التايلاندية التي تجمع بين الحلو والحامض والمُملح والحار في وجبةٍ واحدة.

- لماذا أنتِ متأكدة؟ لم تحاولي، أليس كذلك؟

أجابت يومي: «سأصبح بلا مأوى»

- يا إلهي، أنتِ دراميةٌ جدًّا. أين أنتِ الآن؟

- أنا في غرفة أحد الأولاد. سأقضي الليلة معه.

- لماذا يعاملنكِ بهذه القسوة؟ هل جميعهنَّ سيئاتٌ معكِ في الوقت نفسه؟

ثم أضافت بحذر: «يُومِي، هل حدث شيءٌ ما؟».

- حسنًا. نعم... حدث شيءٌ.

أجابت يوكو بتوجُّس: «ماذا؟ ماذا حدث؟ يمكنكِ أن تخبريني».

- لقد أغضبتهنَّ بعض الشيء. نوعًا ما... أخذت بعض أشيائِهن.

- ماذا؟ مرةً أخرى؟

- أعلم. أعلم. لديَّ مشكلة. ولكن تعلمين ماذا؟ هن في الواقع أكبر حقيرات.

- ماذا أخذتِ؟

- بعض الملابس. ولا أدري ربما أخذت أحذيةً، وكتبًا، وأقلامًا، ومعجونَ أسنانٍ، وفوطًا صحيَّة.

أسقطت يوكو شعرها من فمها. فعلاج هذا الأمر يتجاوز مُجرد مضغ الشعر. قالت: «أخذتِ أشياء منهنَّ جميعهن؟ كيف اكتشفن ذلك؟».

- وجدن الصناديق تحت سريري. بحثن في أشيائي.

تجاهلت يوكو التناقُض في كلام أختها. وسألت: «صناديق؟ هل سيقمن بإبلاغ الإدارة؟ هذه تُعد جريمة، يُومِي. أنتِ الآن شخصٌ بالغ».

- أعلم، بالطبع!

توقفت يُومِي قليلًا، قبل أن تُضيف: «قُلن إنهن لن يُبلغن عني، ولكن بشرط أن أغادر الغرفة فورًا وألا أعود أبدًا».

- وماذا عن بقية أشيائكِ؟

- سيوضِّبنها لي.

- يُومِي، هذا ليس بالأمر الجيد. أنتِ لم تعودي طفلةً في الثانية عشرة. عليكِ أن تتوقفي عن هذا التصرف.

- أعلم. أعلم، حسنًا؟ أعلم.

- وماذا ستفعلين حيال ذلك؟ هذه مشكلة. إنها مشكلةٌ حقيقية. إنها حالةٌ مرضيَّة. يجب أن تراجعي أحد المتخصِّصين. لا أعرف ماذا أقول لكِ!

- أراجع أحد المتخصصين؟ جديًّا؟ كفاكِ.

- نعم. مثل طبيب. طبيبٌ نفسي. هذا أمرٌ فِعلي. ثمَّة مصطلحٌ فعليٌّ لهذه الحالة.

- لا يهمني المصطلح. ولا تفكري حتى في إخبار أيٍّ شخصٍ عن هذا الأمر. لا أستطيع تصديقكِ الآن. أنا آتي إليك في حاجةٍ، في حالةٍ سيئةٍ للغاية، وأنتِ تخبرينني بأن أذهب إلى مكانٍ آخر. شكرًا.

انتظرت يوكو أن تُغلق أختها الخط في وجهها، كما اعتادت أن تفعل في نهاية مُعظم مكالماتهما النادرة.

سألت يُومِي: «أما زلتِ هنا؟».

ردَّت يوكو: «نعم، أنا هنا».

- اسمعي. ربما سأذهب إلى مختص. ربما لاحقًا. لكن ماذا عليَّ أن أفعل الآن؟ أعني الآن فورًا؟ إنني مُشرَّدة، يوكو.

- تعلمين أن تلك الجلسات العلاجية سريَّة. قانونيًّا لا يمكنهم إخبار أيَّ شخصٍ بما تخبرينهم به.

تعلم يوكو ذلك لأنها بدأت بزيارة الطبيب النفسي في الحرم الجامعي منذ الخريف الماضي. بعد حادثة انتحارٍ في الحرم، طُلِبَ من الجميع في فصلها زيارة الطبيب مرتين، ولم تتوقف يوكو عن الذهاب منذ ذلك الحين. ولدهشتها، كانت تستمتع بالمحادثات، التي غالبًا ما دارت حول أختها الكبرى وكيفية التعامل مع «العلاقات الأسريَّة السامة». ما قاله لها السيد كوريليني أسبوعًا تلو الآخر يتلخَّص في أنها لا تستحق أن تشعر بالألم بعد كلِّ تفاعلٍ مع يُومِي، وأن لها الحق في حماية نفسها، وأن الحُب لا يُعرَّف بالألم. ومع ذلك، فإن التأثير الذي تملكه أختها عليها، كما وصفه السيد كوريليني، تجدَّد مع هذه المكالمة، مع صوتها المألوف. كانت يوكو تُسحب مرةً أخرى إلى دوامة الأخت الكبرى، وشعرت أيضًا بالشفقة على أختها، تلك التي كانت موجودةً منذ بداية وجودها، والتي شكَّلت حياتها بعنفٍ وقسوة، وتلاعبت بها وِفق مزاجها السيء.

- أرجوكِ، يوكو. يجب أن تساعديني. أنتِ الوحيدة في العالم التي يمكنها مساعدتي. أنتِ أختي.

- لماذا لا تتصلين بأمي؟ تعلمين أنها ستساعدكِ.

- لماذا لا تتصلين بأبي وتخبرينه أنكِ بحاجة إلى القليل من المال هذا الشهر؟ سيساعدكِ.

- لكن حتى لو حصلتِ على المال، يجب أن تحصلي على مساعدةٍ حقيقيَّة.

تنهَّدت يُومِي، وقالت: «لا أريد أن أخبر أمي وأبي. سيغضبان كثيرًا».

- ويجب عليهما أن يغضبا.

- نعم، لكنكِ تعرفين كيف سيكون الوضع: سيواصل أبي التحدث إليَّ لعدة أيام، وستبكي أمي وتقول: «ماذا فعلت لأستحق هذا؟»، ثم بعد ذلك لن يرغبوا في الحديث عن الأمر مرةً أخرى. سيكون الأمر مزعجًا جدًّا وسيأخذ وقتًا طويلًا.

- ربما يحتاجون إلى معرفة الحقيقة.

- اسمعي، أنا أيضًا غاضبة! أكره هذا الوضع. هل تظنين أنني أحب هذا الوضع؟ هل تظنين أنني أحب فعل هذا؟

ثم أضافت بنبرةٍ أكثر هدوءًا: «هل تظنين أنني أحبُّ ما أنا عليه؟».

- إذا كنتِ لا تحبين ذلك، فتوقَّفي!

- ليس الأمر بهذه البساطة، حسنًا؟ إنني لا أستطيع السيطرة على نفسي.

- كلامكِ هذا محضُ هراء.

عاد الغضب إلى صوت يُومِي الآن، كما هو معتاد، وقالت: «وماذا في ذلك؟ ماذا ستفعلين؟ ستتصلين بالشرطة؟ وتشين بأختكِ؟».

- بصراحة؟ ربما يجب عليَّ فعل ذلك.

- بربِّكِ! لن تفعلي ذلك. كنت أتحدَّث بسخريةٍ فقط.

- ولكن ربما يجب أن أفعل. ربما تحتاجين إلى الشعور بعواقب أفعالكِ مرةً واحدة.

- يوكو! سأذهب إلى السجن. هل ستضعين أختكِ في السجن؟

- ليس الأمر كأنني أرغب بمعاقبتكِ. لكن كيف ستتغيَّرين إلا هكذا؟

- وماذا عن مشاعر أمي وأبي حيال ذلك؟ حيال خيانتكِ للعائلة، أليس كذلك؟

- ربما سيشكرونني لاحقًا.

- سيلقون اللوم عليكِ للأبد. تمامًا كما تلومكِ كيكو فيما يتعلَّق بلوسي.

انتظرتا، كل منهما متمسكةٌ بنصيبها من الصمت، حيث إن هذا الصمت ما هو إلا لعبةٌ وحربٌ قديمة بينهما. عندما كانتا صغيرتين، وخلال مشاجراتهما، كانت واحدتهما تركض إلى والدتهما، بينما تقف الأخرى منتظرة، ولم تكن والدتهما تتحمل الشجار، أو بالأحرى لم تكن تتحمل شجارهما، وتقول لهما، مهما طال شجارهما: «تعاملا مع الأمر بين بعضكما»، وتخرج هذه الكلمات من فمها بتلك النبرة الهادئة المهدِّدة، الصوت الذي يعني أنهما على وشك الوقوع في مشكلة، وهي تغطي أذنيها بيديها، رافضةً الاستماع إليهما. كانتا تقفان هناك: الأولى التي تشعر بالظلم، صامتة، والثانية التي تدافع، صامتة. كل منهما تعلم أن والدتهما ستغضب من الأولى التي تتجرأ وتتحدث. في النهاية، كانت تلوح لهم بيدها، وتقول: «ليس لديَّ اليوم بطوله!».

- يوكو. من فضلكِ.

أصبح صوت يُومِي الآن أقرب ما يكون إلى الهمس: «من فضلكِ»، ثم بدأت تبكي، وهي تُضيف: «يوكو. يوكو. أنا في مكانٍ سيئٍ جدًّا هنا. يوكو»، وراحت تذرف الدموع، وتتابع: «أنتِ الوحيدة التي يمكنني اللجوء إليها. يوكو. سأغيِّر من نفسي. أستطيع أن أكون أفضل، وأختًا أفضل لكِ. فقط أحتاج إلى مساعدتك الآن. أحتاج فقط إلى تجاوز اليوم. يوكو. يوكو» ثم نادتها مختنقةً بدموعها: «يوكو!».

سماع صوت أختها ينادي اسمها باستمرار يكاد يكون أكثر من أن تتحمله. كان مثيرًا للاشمئزاز، لا سيما وهي تتخيَّل وجه يُومِي، مبللًا بالدموع، ومجعدًا في الفوضى القبيحة التي تصبح عليها عندما تبكي. يُومِي هي التي تبكي في أثناء مشاهدة الأفلام، وتفرك دموعها وأنفها

عندما تتوالى أسماء الممثلين على الشاشة. «الحساسة»، كانت تقول والدتهما دائمًا عن يُومِي. أما بالنسبة إلى يوكو، فهذا اللقب لا يصح لها، بل إن ألقابًا مثل: الشريرة، والمريرة، والكارهة، كانت الألقاب الأكثر دقَّة.

صاحت يُومِي: «يوكو! هل ما زلتِ هنا؟».

- أنا هنا.

- لماذا لا تقولين شيئًا؟

سألت يوكو: «إذًا... هل العيش خارج الحرم الجامعي ممكن حقًّا؟ وماذا عن السنة القادمة؟».

- من يدري؟ سأفكر في ذلك لاحقًا.

- وكم تحتاجين بالضبط؟

ردَّت يُومِي: «كم معكِ؟».

- ليس كثيرًا.

سألت يُومِي بإلحاح: «كم بالضبط؟».

- أعتقد أن لديَّ ما يقرب من ثمانمائة أو مثل ذلك.

- حسنًا. سأستأجر غرفةً أصغر، وأبحث عن شريك سكنٍ. سأردُّ لك المال عندما أحصل على مخصَّصاتي الشهر المقبل.

- هل تعتقدين أن هذه فكرةٌ جيِّدة؟ أمن الجيِّد أن تحصلي على شريك سكن؟

- إنه أمرٌ عادي.

- أعني، من الواضح أنه ليس كذلك. لا شيء على ما يرام.

- لقد تعلمتُ درسي.

- أريد الفلوت الخاصة بي.

ساد الصمت.

دار الشجار الثاني الذي خاضتاه خلال عطلة عيد الميلاد حول آلة الفلوت، إذ إن يوكو كانت على يقين من أن يُومِي قد أخذتها. فمنذ أن توقفت يوكو عن العزف عليها بعد المدرسة الابتدائية، ظلَّت آلة الفلوت في مكانها على الرف العلوي من مكتبتها في المنزل. لم تكن يوكو تمارس العزف، لكنها كانت تحب وجودها هناك، فضيَّة ولامعة وصغيرة. كانت تلك الآلة دليلًا على أنها فعلت شيئًا مختلفًا، وأنها تستطيع القيام بذلك، وأنه من المحتمل جدًّا أن تفعل شيئًا آخر غير ما يتوقعه الناس منها في المستقبل.

في يومها الأخير في المنزل، اختفت الفلوت. بحثت هي ووالدتها في كل مكان، وأخيرًا أدركت يوكو أن يُومِي قد أخذته. واجهت يوكو أختها، التي أنكرت الأمر على نحوٍ غير مُتوقَّع. لماذا تأخذ الفلوت؟ لم تكن تعزف عليه. لم تكن حتى تحب صوتها، الحاد والمزعج وفقًا لكلماتها التي لطالما نهرت يوكو بها عن العزف عليها. اندفعت يوكو إلى حقيبة يُومِي وأفرغتها على الدَّرج في منزلهم، حيث تدحرجت الملابس من أماكنها المنظَّمة بعناية. لم تكن هناك فلوت.

في وقتٍ لاحق فقط، بعد عودتهم إلى الولايات المتحدة، بدأت يوكو تتخيل وجود حجرةٍ مخفيَّة في الحقيبة، حيث يمكن أن تكون الفلوت الصغيرة محشورةً على طول الحافة الصلبة، تتخبط بلا حماية. كانت حينها مشحونةً بالعواطف وغير عقلانيَّة لدرجة أنها لم تُجرِ بحثًا دقيقًا.

قالت يُومِي: «حسنًا، سأرسل إليكِ الفلوت بالبريد».

لتردَّ يوكو بعبارةٍ واحدةٍ فقط: «أرسليها مغلَّفة بفقاعات حماية»، لم تكن تنوي الضغط على أختها أكثر. فالانتصار على يُومِي كان دائمًا

هشًّا. دونت يوكو التفاصيل على هاتفها بينما أمْلت يُومِي رموز التحويل لحساب العملة الرقمية عبر مكبر الصوت. فبهذه الطريقة لن يتمكن والداهما من معرفة أين ذهب المال.

قالت يُومِي ليوكو: «فقط أخبريهم أنك كنتِ تشترين بعض المجلات المُصورة الرقمية أو شيئًا من هذا القبيل. سيصدقون أي شيء تقولينه».

بعد أن أجرت يوكو التحويل وأغلقت الخط، عادت إلى غرفتها في الممر. اختفى الشبشب المطبوع بنقشة الفهد وكان الباب مغلقًا. نادَت يوكو: «بيرنادين؟» ولكن لم يصلها أيُّ رد.

***

لم تكن يُومِي تعلم أين اختفت تلك الفلوت الصغيرة السخيفة. حسنًا، لقد أخذتها بالفعل. ثم لفَّتها داخل رجل إحدى بناطيلها، ولفَّت البنطال وحزمته في حقيبتها.

لكن هل ما تزال الفلوت في البنطال؟ وهل ستراها يومًا مرةً أخرى؟ أبعدت يُومِي هذه المشكلة عن ذهنها حاليًا. كيف ستتمكن من النجاة من هذا الوضع؟ فمن شبه المستحيل أن تواصل الدراسة في هارفارد. ربما يمكنها أن تأخذ إجازة، وتقطع صلاتها بالجامعة، يمكنها أن تقوم بتدريبٍ عملي، أو تبدأ مشروعًا صغيرًا ولن تضطر إلى العودة إلى الدراسة مرةً أخرى. ثم، لاحقًا، إذا أرادت، يمكنها أن تعود إلى الدراسة بصفحةٍ بيضاء، أو ربما تذهب إلى جامعةٍ مختلفة في بلدٍ مختلف مثل إنجلترا أو فرنسا.

لم يتبقَّ سوى بضعة أسابيع من الفصل الدراسيِّ الربيعيِّ، يمكنها أن تصمد لبضعة أسابيعٍ أخرى. نعم، سيتحدث الناس، لكن الصيف سيأتي ويذهب، وإذا اختفت، ستتلاشى الشائعات تدريجيًّا من أذهانهم.

غادرت يُومِي بيت السلم وعادت إلى غرفة جاي. كان نائمًا. دخلت السرير الضيق بجانبه وعبست، كانت رائحته كرائحة الفِتيان، الفِتيان الذين لم يغيِّروا ملاءاتهم طوال الفصل الدراسي. لفَّ أطرافه الطويلة حولها ودسَّ وجهه في شعرها. سحبت يُومِي شعرها من تحت كتفها وتجاهلت رغبته.

في صباح اليوم التالي، أرضت يُومِي جاي وأقنعته بأن يقطع كل دروسه، بالإضافة إلى تدريبات كرة القدم، إذ شرحت له أنها دخلت في شجارٍ مع رفيقاتها في السكن، يتمحور حول سوء تفاهمٍ كبيرٍ حول ما يُستخدم بشكلٍ جماعيٍّ، وما لا يُستخدم.

قالت مستنكرةً: «كيف لي أن أعرف أنهم لا يرغبون في تبادل الملابس؟ أنا وأخواتي نتشارك في كلِّ شيء. ربما هو أمرٌ مرتبطٌ بالثقافة الصينية». ورفعت كتفيها بلا مبالاة، وأضافت: «لقد كنَّ لئيماتٍ جدًّا، جاي. لذلك قررت أن أجد مكانًا إضافيًّا، لأتفادى كل تلك السلبية. الأمر ليس كأنني بحاجة إلى ملابسهم أصلًا. لديَّ ملابسك». وابتسمت له. لقد جاءت إلى غرفته دون أيِّ شيءٍ من ممتلكاتها، ارتدت طوال الليل أحد قمصانه التي تحمل شعار فيريتاس.

أعرب جاي عن رغبته بمساعدتها في البحث عن بعض الشُّقق. ثم سألها: «هل يمكنني أن أقضي بعض الليالي هناك أيضًا؟ سيكون لدينا المزيد من الخصوصية»، حيث إن جاي يقيم في غرفةٍ منفردة في مبنى آدامز، لكن الحمام مشترك.

قبَّلت يُومِي أنفه قائلة: «سأحب ذلك».

اعترف جاي بحبِّه لها قبل أسبوع، لكن يُومِي لم ترد عليه بالكلمة نفسها، وبالرغم من معرفتها أن تصرُّفها هذا قاسٍ بعض الشيء، لكنها لم تشعر بالحُب. لم تستطع إجبار نفسها على حبِّه، كانت لا تزال تحت

تأثير انفصالها عن سفين. بعد صيفٍ قضته في ركوب القطار العابر لسيبيريا، والتجوال في النوادي الليلية بموسكو، والسهر حتى الصباح في الليالي البيضاء لمدينة سانت بطرسبرغ، ثم انفصالهما للدراسة في جامعاتٍ مختلفة، واعترافه بعد أسبوعين من بداية الفصل الدراسي بأنه رافق ثلاث فتياتٍ أُخريات، انهار عالمها تمامًا. تحوَّل كونها من كونٍ بحجم العالم بأسره -روسيا والصين وبوسطن وبالو ألتو- إلى كونٍ بحجم سريرٍ واحد في غرفةٍ مشتركة بأربعة أسرَّة في جناح الطلبة الجُدد في فناء هارفارد.

لم تشعر يُومِي يومًا بأنها أكثر ضياعًا، أو أقل حبًّا، أو أكثر يأسًا من تلك الأشهر الأولى في فصلها الدراسي الأول. وبعد أن خرجت من قوقعة اليأس التي كانت فيها، أمضت أسابيع تحاول اللحاق بزملائها الذين بدأوا بالفعل في تحديد النوادي التي يفضلون الحفلات فيها والمطاعم الليلية التي يترددون عليها، والذين كانوا قد اشتركوا بالفعل في الأندية والأنشطة. لم يكن بوسعها سوى التشبُّث بأطراف الدائرة الاجتماعية لرفيقاتها في السكن.

كنَّ ثلاث فتياتٍ شقراوات، كلهن من الجنوب. حسنًا، إحداهنَّ من جنوب فلوريدا، وأخرى من تكساس، والثالثة من جنوب كاليفورنيا، ولكن بالنسبة إلى يُومِي، كان كل ذلك في الأساس الشيء نفسه. وفي كل الأحوال، كانت الفتيات متشابهات جدًّا في الشكل.

بالنسبة إلى خططها الدراسية، كانت يُومِي قد خطَّطت لدراسة تخصُّصٍ في التاريخ، أو ربما دراسات شرق آسيا، ولكنها وجدت ذلك أيضًا مخيبًا للآمال في الحرم الجامعي. فالطلاب في الصفوف التي حضرتها في الأسابيع الأولى من المدرسة، قبل موعد الإضافة والحذف، كانوا بعيدين جدًّا عن الواقع، فهم إما أمريكيون من أصل آسيوي، أو

أنهم من البيض، معظمهم لم يزر آسيا من قبل، وبعضهم لم يدرس حتى اللغة الصينية أو اليابانية أو الكورية. أما أفكارهم، رغم تعبيرهم عنها بشكلٍ جيد وبآراءٍ قوية، كانت مجرد أفكارٍ سطحية وقوالب نمطية. حسنًا، يذكرون اسم إدوارد سعيد - وماذا بعد؟ تهانينا. شعرت يُومِي أنها تبدأ كل جملةٍ بعبارة: «في الواقع، في شانغهاي...»، أو: «في الواقع، في اليابان...». هل هذا هو أفضل ما يمكن أن تقدمه هارفارد؟

***

الشقة الأولى التي شاهداها كانت في بورتير سكوير، على بُعد ميلٍ واحدٍ تقريبًا من الحرم الجامعي، وهي مسافةٌ مثاليَّة للركض، إذا تمكنت من الركض إلى الصف والعودة مرتين أو ثلاث مرات في اليوم، ستحقق عددًا جيدًا من الأميال، إذ صمَّمت يُومِي على ألا تكتسب وزن «السبعة كيلو غرامات» التي عادةً ما يكتسبها الطلاب الجُدد، بل حتى ألا تكتسب ثلاثة كيلو غرامات.

طرقت يُومِي وجاي على باب الشقة، الموجودة في منزلٍ تم تقسيمه إلى عدَّة وحدات، فتح الباب شابٌّ في الثلاثين من عمره تقريبًا، قدَّم نفسه باسم بن، ودعاهما إلى الدخول. نظر جاي حوله، وعلى وجهه علامة استياء.

كان بن طالب دكتوراه في علم الاجتماع، وكان قد أكمل كل شيءٍ عدا الرسالة، وقد أقام في الشقة الموجودة بالطابق الأول من المنزل لمدة ثلاث سنوات، وعمد إلى تأجير غرفة النوم الصغيرة منذ أن انتهى تمويله.

سأل جاي: «إذًا أنت هنا طوال اليوم؟».

رد بن: «أحيانًا أكون في المكتبة».

كانت الغرفة نظيفةً وبسيطة، ومحتوياتها: سريرٌ، ومكتب، وكرسي، أما الحمام فمشتَرَك، وموجود خارج غرفة المعيشة. سأل جاي: «ومن يعيش في الطابق العلوي؟».

أجاب بن: «شابَّان تخرجا حديثًا من معهد ماساتشوستس التقني MIT، ويعملان على تأسيس شركةٍ ناشئة، وقد انتقلا إلى هنا منذ ستة أشهر».

قال جاي: «حسنًا، فهمت». ثم سأل بن: «هل الشقة لكما معًا؟» أجابت يُومِي بابتسامةٍ وهي تدفع شعرها خلف أذنها اليسرى: «لا، إنها لي وحدي».

سألها بن: «وأنتِ، أتدرسين في جامعة هارفارد؟ لقد رأيت عنوان بريدكِ الإلكتروني».

- نعم، صحيح.

- في أيِّ قسم؟

- دراسات شرق آسيا.

- أوه، رائع. أحيانًا أذهب للدراسة في مكتبتكم. إنها مكتبةٌ جيدة.

وافقته يُومِي الرأي، رغم أنها لم تذهب إليها سوى مرةٍ واحدة، إذ تدرس عادةً في مكتبة لامونت.

سألها بن: «كم تبقَّت لك من سنوات؟» أجابت يُومِي: «ثلاث سنوات». وأدركت أن بن قد افترض أنها طالبة دراساتٍ عليا.

- أوه، إذن سأكون قد رحلت منذ زمنٍ طويل قبل أن تنهي دراستكِ.

ثم أضاف وهو يرفع أصابعه المتقاطعة في الهواء، تعبيرًا عن الرجاء: «أتمنى ذلك». ضحكت يُومِي ضحكةً أكبر مما يستحقه الموقف.

نظر جاي إلى ساعته وقال: «هيه، يُومِي، لدينا ذلك الموعد». وعندما نظرت إليه، أومأ برأسه نحو الباب. شكرت يُومِي بن، وأخبرته أنها ستتواصل معه لاحقًا، ثم خرجت مع جاي. وفي الشارع سألته: «لماذا فعلتَ ذلك؟ لقد كان لطيفًا».

- بربِّكِ، يُومِي؟ تعيشين في منزلٍ مع ثلاثة رجال وأنتِ وحدكِ هناك؟ وحمامٌ مشترك؟

- - لا بأس. إنهم طيِّبون.

سخر جاي من ردِّها قائلًا: «أمامكِ الكثير لتتعلميه عن الرجال». ثم قبَّلها بعنف، ووضع ذراعه حول ظهرها، وسألها: «ما الأماكن الأخرى التي ستعاينينها بعد هذا؟».

قلبت يُومِي عينيها، لكنها تأثرت بمشاعر الحماية التي أظهرها جاي. كان فتًى ريفيًّا من أيوا، وقد نشأ في مزرعة. وأجابت: «يوجد مكانان آخران. لكن هذا كان الأرخص. لم أتحدث مع والديَّ عن الإيجار لأنني أعرف أنهما لن يوافقا. ليس لديَّ سوى بضع مئاتٍ في حسابي الآن».

أومأ جاي، وقال: «ولكن، هل سيكون موعدنا التالي مع شابٍّ أم فتاة؟». نظرت يُومِي إلى الملاحظة التي دوَّنتها على ساعتها، وأجابت: «فتاة. إلا في حال كان اسم آرييل يصحُّ لفتى».

- لا أحد يعرف هذه الأيام.

ابتسما لبعضهما البعض، وسارا باتجاه المنزل التالي.

***

فتحت آرييل باب المبنى وصعدت الدرجات الثلاث التي أمامهم. لاحظت يُومِي جاي وهو يسرق نظراتٍ متفحِّصةً. آرييل كانت يهودية، وطالبةً في كلية التربية، تتخصَّص في الطفولة المبكرة. قبل أن تفتح باب الشقة، حجزتهما على الدَّرج، واستغرقت وقتًا طويلًا في تقديم نفسها، ثم أمضت وقتًا أطول وهي تتحدث عن تجربتها الأخيرة في القوات العسكرية.

لم تُعجب يُومِي بآرييل. لم تعجبها فضولية جاي تجاه المواضيع العسكرية، كما لم يعجبها توجيه آرييل حديثها إلى جاي فقط. لكن أكثر ما أزعجها هو أنها كانت في منتهى الجمال، بدءًا من ساقيها الطويلتين في التنورة القصيرة للغاية، وصولًا إلى قوامها الذي يثبت صحة وصفها لتدريب الجيش، والحياة في الثكنات، والقتال في الخطوط الأمامية، وعندما بدأت آرييل بسرد الأحداث المُتعلِّقة بالسياسة والحروب، سقطت يُومِي في بئر معلوماتٍ ضيقٍ ومظلم نتيجة معرفتها المحدودة بسياسة الشرق الأوسط، ولم يعد بالإمكان استعادتها منه.

عرضت آرييل على يُومِي وجاي غرفة النوم، التي كانت الوحيدة في الشقة، أما هي فستنام في غرفة المعيشة، على الأريكة القابلة للسحب.

راحت يُومِي تتأمل برودة آرييل الصبيانية، ومظهرها الشبيه بعارضة أزياء، وسلوكها الاجتماعي، وعرفت أن هذا المزيج ما هو إلا وصفةٌ ناجحةٌ لكارثة. لم تستطع يُومِي أن تكون باردةً وبسيطة بهذه السهولة، أو مرحةً وسعيدة حقًّا. سعيدةٌ بالحرب! تخيلت يُومِي آرييل، وهي تحمل السلاح، مبتسمة، تقاتل الثوار مرتديةً تنورتها القصيرة.

سألت يُومِي: «عفوًا، هل يمكنني استخدام الحمَّام؟».

- بالطبع! إنه هناك.

أشارت آرييل إلى الباب القريب من الأريكة. إذًا كلُّ تحركات يُومِي ستكون قريبةً من سرير الفتاة.

- عظيم. شكرًا.

دخلت يُومِي وأقفلت الباب خلفها. ومن مكانها سمعت صوت آرييل وجاي يتحدثان ثم يضحكان. بدأت يُومِي بعملها، حيث فتحت خزانة الأدوية الموجودة فوق الحوض بهدوء، ويا للمفاجأة السارَّة! إذ رأت أن خزانة آرييل زاخرةٌ بجميع أنواع الحبوب. أعادت يُومِي تقييمها للفتاة: تحت هذا المظهر الجميل، ثمَّة عقلٌ مضطرب.

رأت يُومِي أيضًا عُلبة من حبوب منع الحمل، وبجانبها، في حاويةٍ بلاستيكية شفافة، ما اعتقدت أنه حاجزٌ مهبليٌّ. كانت يُومِي قد سمعت عن هذه الأشياء من قبل، لكنها لم ترَ واحدةً فعلًا. حيث إنها بدورها تحصل على الحقنة التي تقدمها خدمات الصحة في هارفارد مجانًا في بداية العام الدراسي.

فتحت يُومِي علبة الحاجز المهبلي بحذرٍ وفحصت الجهاز، لتجده ضخمًا، يمتد بعرض راحة يدها، مما دفعها مجددًا إلى إعادة تقييم آرييل مرةً أخرى. تخيلت جاي وهو يرتكب خطأً، تخيلته يزل، ويعاشر هذه الفتاة، فابتسمت. على الرغم من ذلك، لم تكن يُومِي سعيدةً لأن حبيبها -حسنًا، ربما حبيبها- أظهر توددًا جريئًا نحو آرييل. الفكرة الأولى التي راودت يُومِي تمثَّلت في ثقب الحاجز المهبلي، ثقبًا صغيرًا لا يمكن رؤيته بالعين المجردة، لكنها لم تستطع العثور على أي أداةٍ لِفعل ذلك.

بدلًا من ذلك، وضعت يُومِي في جيبها زجاجة كريم أساس مستعمل جزئيًّا، بدرجةٍ أغمق بثلاث درجاتٍ من لون بشرتها الفاتحة، وزوجًا

من العدسات اللاصقة اليومية، ونصف زجاجةٍ من دواء الريتالين، ثم تحقَّقت من مظهرها - بدا جيدًا - وشعرت بتحسنٍ كبير مقارنةً بما كانت تشعر به قبل دخول الحمَّام، وعادت لتنضم إلى الآخرين.

كانت آرييل تقول: «... وهذا هو الوقت الذي أدركت فيه أنني أريد العمل في مجال التعليم». قالت يُومِي، ويدها في جيبها، تعبث بحبَّات الريتالين المتناثرة: «مرحبًا يا رفاق».

ردَّت آرييل: «مرحبًا يا عزيزتي! إذًا، ما رأيكِ؟» نظرت يُومِي إلى جاي، الذي أومأ لها بتشجيع. وقالت: «لا أعرف. أحتاج إلى التفكير في الأمر، فبدل الإيجار مرتفعٌ قليلًا».

قالت آرييل، مظهرةً وجهًا حزينًا، كأنها فعلًا حزينة لأن يُومِي لن تكون رفيقتها في السكن: «أوه». شعرت يُومِي برغبةٍ في طعنها في عينيها. رفع جاي إصبعه نحو آرييل بأسف، كأنه يعتذر عن تصرف يُومِي، كأنها طفلةٌ سيئة السلوك تحتاج إلى التعامُل معها. ثم سحبها إلى زاوية الغرفة.

- يُومِي، هذا المكان مثالي! قريبٌ من الحرم الجامعي، ونظيف، وآرييل تبدو رائعة. إذا كانت المشكلة ببدل الإيجار، يمكنني مساعدتكِ لبضعة أشهر...

لانت تعابير يُومِي، وقالت: «حقًّا؟».

وضع جاي يديه على خصر يُومِي، وهمس لها: «لقد كنت جادًّا فيما قلته لكِ ذلك اليوم الآخر».

نظرت يُومِي إلى وجهه وحرَّكت شفتيها بصمت قائلة: «أنا أحبك أيضًا».

ابتسم. وابتسمت.

- لكن دعنا نرى المكان الأخير قبل أن أقرِّر، حسنًا؟ لم يتبقَّ أمامنا سوى مكانٍ واحد فقط.

عادا إلى حيث كانت آرييل جالسةً على الأريكة التي ستنام عليها. وقالت يُومِي بلطفٍ: «قد أستأجر الغرفة، لكن هل يمكنني التأكيد في وقتٍ لاحق من الليلة أو يوم غد؟».

أجابت آرييل: «بالطبع. خذي وقتكِ. سأكون هنا».

شعرت يُومِي بالرضا وهي تغادر مكان آرييل. نعم، ربما كانت تواجه مشكلةً صغيرة، لكنها لم تكن جاهلةً بما تفعله، بل إنها قادرةٌ على التحكم بنفسها، وجاء فعلها هذا بقرارٍ منها وباختيارها، ربما لم يكن الاختيار الأكثر لطفًا، لكنه كان الخيار الأنسب لها.

وعلى أي حال، تستطيع يُومِي أن تكون لطيفةً عندما تريد ذلك، يمكنها أن تكون ألطف فتاةٍ على وجه الأرض، كما هو حالها مع جاي. ضغطت يُومِي على يد جاي، وقرَّرت أن تكون لطيفةً وسعيدة وسهلة التعامُل لبقية اليوم.

***

الشقة الأخيرة هي الأغلى ثمنًا، ولكن بفارقٍ بسيطٍ فقط، حيث إنها مؤثثةٌ وتشغل طابقًا خاصًّا في الطابق الأرضي من منزلٍ في ديفيس سكوير. عندما طرقا الباب، لم يجب أحد، لذا اتصلت يُومِي بالرقم الموجود في الإعلان.

ردَّ المالك: «مرحبًا، سأكون هناك خلال عشر دقائق. آسف جدًّا، أنا قادم من الجهة الأخرى من المدينة. هناك مفتاحٌ تحت السجادة، افتحا الباب، وادخلا»، واعتذر بضع مراتٍ أخرى قبل أن يغلق الخط.

وجد جاي المفتاح تحت السجادة وفتح الباب. قبل أن تدرك يُومِي ما يحدث، كان قد حملها بين ذراعيه كطفلٍ وعبر بها عتبة الباب. عندما أنزلها داخل المدخل، رأته يبتسم بفخرٍ. وقال: «لطالما رغبتُ في فِعل ذلك». ردت يُومِي: «لم أرغب يومًا في ذلك». تغيرت ملامح وجه جاي، وأدركت يُومِي أنها تفسد اللحظة وتخرِّب كل شيء. فاستدركت ضاحكةً: «إنني أمزح فقط. انظر إلى وجهك».

انعكس ظلٌّ من الألم في عينيه، لكن يُومِي تجاهلته وبدأت تتفحص المكان. كانت الشقة صغيرة، ومكوَّنةً من غرفة نومٍ واحدة مع مطبخٍ صغير على طول الجدار، وقد سُوِّرت النافذة بقضبانٍ معدنية. قالت وهي تتجه نحو جاي، الذي كان يتفحص غرفة النوم: «يمكن أن يكون هذا مكاننا معًا. ما رأيك؟» ولفت ذراعيها حوله وأسندت رأسها على منتصف ظهره، كما اعتادت أن تفعل مع سفين. وأضافت: «مكاننا الصغير».

استدار جاي وعاد ليحتضنها، ثم قال وهو يقبِّل جبهتها: «أنتِ قاسيةٌ أحيانًا، أليس كذلك؟». نظرت يُومِي إلى الأسفل وهزت رأسها، قائلةً: «لا أقصد أن أكون كذلك... أعلم أنني لست مثاليَّة. أنا آسفة. لا أدري لماذا». أجاب جاي بعد لحظةٍ: «لا بأس. أستطيع أن أتحمل ذلك».

ابتسمت يُومِي لكنها لم ترُد، بل أغلقت الباب الأمامي وعادت إلى جاي، لتدفعه بلطفٍ نحو غرفة النوم.

أوشكت الدقائق العشر على الانتهاء، فارتدت يُومِي وجاي ملابسهما. جلست يُومِي على حافة الفراش العاري، تراقب جاي وهو يربط حذاءه.

وقالت: «لا أريد المغادرة. لا أريد العودة إلى الحرم الجامعي. ربما سأفعل كل شيء عن بُعد. ربما يمكننا البقاء هنا لبقية العام. ربما يمكننا أن نبقى في السرير طوال اليوم والليل وربما حتى طوال الصيف. ما رأيك؟».

رفع جاي نظره من على حذائه. هل كان عليه أن يربطه بإحكامٍ كل مرة؟ وقال: «أتمنى أن نستطيع ذلك، يُومِي».

سألته: «إذًا، لماذا لا نفعل؟ لتذهب هارفارد إلى الجحيم. وبئسًا لكرة القدم أيضًا. لا نحتاج إليهما».

- ربما أنتِ لا تحتاجين إليهما.

- لا! يمكننا أن نذهب بعيدًا، بعيدًا جدًّا. نعمل، ونحب، ونعيش، ونفعل الأمور بطريقتنا الخاصة. لاحقًا، يمكننا أن ننجب بعض الأطفال. أطفالٌ جميلون مختلطو العرق. أجمل أطفالٍ في العالم.

ضحك جاي وقال: «ونسميهم سوزي وتوتسي وموتسي».

- أي أسماء تريدها!

- كاليفورنيا، لم أذهب إلى كاليفورنيا من قبل.

- حسنًا! كاليفورنيا! لنذهب! لنذهب الآن!

ثم سمعا صوت طرقٍ على الباب. التفتا لينظرا، وتمكَّنا من رؤية ظلٍّ مشوشٍ لامرأةٍ ترتدي معطفًا داكنًا من خلال الزجاج المثلج.

- هل أنتما هنا؟ هل أقفلتما المزلاج؟

همست يُومِي لجاي: «لا. لا تفتح الباب».

- يُومِي، هي تعلم أننا هنا.

- لا. لا، لا، انتظر قليلًا. لنرى.

تشبثت بكمِّ جاي، تمنعه من مغادرة الغرفة. جلست يُومِي وجاي لحظةً أخرى، بينما استمرت المؤجِّرة في الطرق على الباب.

- مرحبًا؟ مرحبًا؟

بعدها بدأ هاتف يُومِي يرن. التقطت الهاتف، وقالت بصوتٍ مرِح: «آه! عذرًا. كنَّا نشغِّل الدش، نتحقق من ضغط الماء. سنأتي حالًا!» في تلك اللحظة، شعرت يُومِي أن الشقة الفارغة بأرضياتها العارية وسقفها المنخفض، ومطبخها الصغير، وثلاجتها القديمة، ونوافذها المؤمَّنة هي آخرُ مكانٍ على وجه الأرض.

ابتعد جاي عنها وذهب ليفتح الباب.

مولودٌ بقلبٍ عليل

يونيو / حزيران 2037

وُلِدتُ بقلبٍ عليل، أحد صمامته لا يُغلق إغلاقًا كاملًا، مما يؤدي إلى تسرُّب الدم باستمرارٍ من جانبٍ إلى الآخر. لم أكتشف ذلك إلا قبل بضع سنوات، بعد أن أغمي عليَّ في أثناء عملي بتسليم الطرود تحت المطر. الأيام الممطرة هي دائمًا الأكثر ازدحامًا في توصيل الطرود، إذ لا يرغب الناس بالخروج إلى الشوارع التي تغمرها المياه، ودائمًا ما يحدث خطأٌ ما: ينغمر طردٌ أو ظرفٌ بمياه المطر، أو يبرد الطعام، أو يبدأ الغطاء الذي يحميك ودراجتك في تسريب مياه المطر على عُنقك. الناس أيضًا يصبحون أكثر وقاحةً في الأيام الممطرة، ويكونون أكثر جوعًا وغضبًا من المعتاد، فيتصلون مرارًا وتكرارًا للتحقُّق من حالة الطلب.

أُغمي عليَّ وأنا أنزل الدَّرج في منزلٍ مكوَّنٍ من ستة طوابق في شارع وولوموتشي. كان الرجل قد طلب حرفيًّا زجاجةَ ماءٍ واحدةً وجزرةً واحدة. فتح بابه قليلًا وأخذ الكيس، وذراعه المليئة بالبقع الشمسية

تمتد للاستيلاء على البلاستيك كأنني لصٌّ يحاول اقتحام منزله. أغلق الباب في وجهي، دون أن ينبس بكلمة، أو تصدر عنه حتى همسة شُكر. تركته، واستدرت لمتابعة التسليم التالي، وأنا متأخرٌ بالفعل.

استيقظت على الدرجة بين الطابقين الثاني والثالث. كانت هناك عجوز تقف فوقي، تحمل كيسًا من القمامة المبللة التي كانت تُسرِّب على يدي. ربما أيقظتني رائحة القمامة الكريهة، أو السائل اللزج المتساقط على راحتي، فتقيأت فورًا.

في المستشفى، أخبرني الطبيب أنني تعرضت لنوبةٍ قلبيَّة طفيفة، ولكن حالتي مستقرة، ثم أطلعني على مشكلة الصمام وسألني إذا كانت هذه الحالة خلقيَّة. لم أكن أعرف. لم أستطع قول شيء، لم أكن أجريت فحصًا لقلبي من قبل. عندما أخبرت الطبيب أنني أعمل في توصيل الطلبات، هزَّ رأسه وقال: «أليس هنالك شيءٌ آخر يمكنك العمل به؟» وأضاف: «أنت ما زلت شابًّا، في بداية العشرينات من عمرك. ابحث عن فرصٍ جديدة». ربما حان الوقت للتفكير في تغيير مهنتي، وذلك من أجل صحَّة قلبي.

عندما زارتني أمي في المستشفى بعد بضعة أيام، أخبرتني أنه كان هناك بالفعل شيءٌ ما يتعلق بقلبي عند ولادتي، ولكن بما أنني بدوت طبيعيًّا في أثناء نشأتي، فقد نسيت الأمر في نهاية المطاف. على أي حال، لم نكن نستطيع تحمُّل تكاليف الفحوصات الصحية المنتظمة. أخبرتها أنني سأترك عمل التوصيلات. فقالت: «حسنًا»، لم تكن يومًا ممن يتدخلون في حياتي.

لم أخبر الطبيب بالحقيقة كاملة، نعم، عملتُ في توصيل الطلبات منذ أن كنت في الثامنة عشرة من عمري، إلى جانب قيادة سيارة أجرةٍ في الليل. كانت الوظيفة مُرهِقة، والزبائن سيئين، وكانت أيام المطر

الشديد، والصيف الحار لا تُطاق. لكنني لم أُفصح عن الشيء الآخر الذي يضغط على قلبي: كنت أشارك في سباقاتٍ ليليَّة.

أصبحت سباقات الليل حديث الجميع، فالكلُّ سمعوا عن السائقين المُقنعين، لكن لا أحد يعرف من هم حقًّا. لو أنني أخبرت الطبيب أنني أحدهم، فهل سيصدقني؟

كوَّن الناس نظرياتهم الخاصة حول هؤلاء السائقين، حيث تنوَّعت الأقاويل بين كونهم سائقي حركاتٍ بهلوانيةٍ في الأفلام، أو متسابقين محترفين من هونغ كونغ، أو أبناء الأغنياء الذين يتنافسون على مبالغ كبيرةٍ من المال، ولم يخطر ببالهم الحقيقة أبدًا: كانت هذه السباقات حيلةً تسويقيَّة تديرها شركات السيارات نفسها، حيث يتم اختيار السائقين من ورش السيارات الليلية على أطراف المدينة -حيث تذهب سيارات الأجرة للصيانة وتعبئة الوقود خارج ساعات العمل- وأيضًا من السيارات الخاصة وشاحنات التوصيل. كانت لقطات الكاميرات الأمنية التي تُظهر سيارة فيراري تسرع عبر شوارع شانغهاي في الساعات الأولى من الصباح، وتتسلَّل عبر متاهةٍ من الشوارع كأنها ثعبانٌ صامت، ثم تختفي كأنما بلمسةٍ سحريَّة... كانت هذه اللقطات بمثابةِ فرصةٍ ذهبيَّة لشركة فيراري من حيث التسويق. كنَّا نكسب مالًا جيدًا من سباق سياراتهم عبر المدينة، وقد ادَّخرت جزءًا لا بأس به من المال من هذه السباقات أيضًا، لكن الضغط تزايد عليَّ، وبدأت أشعر بضيق التنفس في نهاية السباق، كنت على وشك الإغماء، وقلبي ينبض بجنون.

في سباقات الليل، يكمن السر في معرفة الأماكن التي يحبُّ رجال المرور الوقوف فيها، كما عليك أيضًا معرفة مواقع كاميرات المراقبة، بالإضافة إلى الحرص على إبقاء لوحة السيارة مغطاة، وكان عليك، في الأساس، أن تبقى غير مرئي. بالطبع، لكلِّ مدينةٍ نقاطها العمياء،

التي لم تكن كثيرةً في شانغهاي، وأصبحت أقلَّ مع مرور السنوات. ولكن كان بإمكانك الانطلاق بسرعةٍ على الطريق السريع، والانزلاق إلى سلسلةٍ من الأزقة التي لا تحمل أسماء، وتُدحرج السيارة فيها بصمتٍ على وضعية «المحايد»، ثم تختفي في مرأب، حيث تترك السيارة، وتغيِّر قبعتك وسترتك، وتخرج مرةً أخرى إلى ليل الشوارع.

دائمًا ما ينتظرنا شخصٌ في مكان الوقوف المحدد، ليمسح السيارة من الأعلى إلى الأسفل. كنَّا نرتدي القفازات والأقنعة، فلا نترك خلفنا أيَّ أثرٍ أو بصمةٍ تدلُّ علينا. ارتفعت مبيعات هذا الطراز من السيارات ارتفاعًا ملحوظًا في تلك السنة، حيث اقتناها كلُّ شابٍّ من أثرياء شانغهاي، حتى الأقنعة والقبعات التي كنَّا نرتديها شهدت ارتفاعًا في نسبة المبيعات.، وقد أطلقوا عليها اسم «تأثير السائق المقنع». لم نكن حماةً يقاتلون الجريمة، بل كنَّا مجرد محترفين يبيعون السيارات.

لكن هل كان الأمر يستحق المخاطرة بالتعرُّض لنوبةٍ قلبيَّة أخرى؟ اتصلتُ بـ «لي»، صديقي في الورشة الذي سبق وأعدَّ لي أول سباق. وقلتُ له: «لقد انتهيت، أنا خارج اللعبة»، قلت قولي بحسمٍ شديد، وأغلقت الهاتف.

تركت عمل التوصيلات وسباقات السيارات في لحظةٍ واحدة، وتعاقدتُ مع وكيلٍ ساعدني في الحصول على وظيفة قيادةٍ خاصة. كنت أستمتع باستخدام معرفتي بشوارع المدينة والاختصارات، وأقود بهدوءٍ دون أن أزيد السرعة، أو أقطع الطريق على الآخرين. لطالما منحتني عجلة القيادة سعادةً حقيقيَّة.

تعلمتُ القيادة في عام 2025، وهو العام الذي بدأت فيه السيارات ذاتية القيادة بالظهور في الأسواق. أعلنت جميع شركات السيارات عن ذلك بفخرٍ: «2025 هو عام السيارات ذاتية القيادة!» «الاستقلالية

في 2025!» كنت في الثالثة عشرة من عمري، وأتذكر رؤية كل تلك التصريحات في الأخبار والشعور بالضغط. كان الوقت يمرُّ سريعًا بالنسبة إليَّ، إذ تلحُّ عليَّ رغبتي في القيادة، ومردُّ ذلك إلى ألعاب السباق في صالات الألعاب التي كنت ألعبها في أثناء نشأتي، كنت الأفضل تصنيفًا في حيِّنا، وكانت القيادة هي الشيء الوحيد الذي أجيده.

قضيت يوم السبت في استدعاء سيارات الأجرة، الخيار الأرخص على جميع التطبيقات. وقمت برحلاتٍ قصيرةٍ على طول البوند حتى استقللت أخيرًا مقعدًا خلفيًّا في سيارة أجرةٍ صفراء قديمة الطراز في شانغهاي. مقاعدها مغطاةٌ بغطاءٍ من الفينيل، وأبازيم أحزمة الأمان مدفونةٌ في اللحامات، ويستحيل استخدامها. في المقعد الأمامي، خلف حاجزٍ بلاستيكيٍّ مخدوش، جلس رجلٌ مسنٌّ، يداه مرتخيتان على عجلة القيادة، وناقل الحركة اليدويِّ، وبجانبه ثمَّة تُرمس زجاجي يحتوي على ماءٍ بنيٍّ تعلوه طبقةٌ من أوراق الشاي المتحلِّلة.

حيَّيتُه ببعض الكلمات بلهجة شانغهاي، فردَّ عليَّ قائلًا: «مرحبًا، أيها الشاب»، بصوت هادئٍ وغير متعجِّل، مميز بلهجة سكان وسط المدينة. كان الشيب قد غزا رأسه، ويرتدي بنطالًا رسميًّا مكويًّا بعناية، وقميصًا بياقةٍ طويل الأكمام. إنه من نوع سائقي الأجرة الذين كنت أنتظرهم.

طلبت منه أن يأخذني عبر البوند إلى الطرف الآخر من نهر سوتشو، إلى الحي العشوائيِّ، أحد آخر الأحياء التي كانت ما تزال قائمةً في ذلك الوقت. في هذا الحي ولدتُ ونشأت، وأقصده لزيارة جارنا العجوز، السيد شي، من حينٍ لآخر (حيث حصل والداي على شقةٍ جديدةٍ في أطراف المدينة، في جيادينغ). هُدم معظم حيِّنا العشوائي، وأُزيل أغلبه باستثناء قسمٍ صغيرٍ في الزاوية حيث كان السيد شي صامدًا في وجه الإخلاء كنوعٍ من الاحتجاج. لم يكن لديه ماءٌ ولا كهرباء، ولا حتى نوافذه

مزوَّدة بالزجاج، بل مجرد هيكلٍ لمنزلٍ مع مربعاتٍ يغطِّيها بالقماش في الشتاء. اعتاد شي أن يوقف دراجته تحت شجرةٍ كبيرة بجانب منزله، ويُعلِّق أرجوحةً من أغصان الشجرة المنخفضة، وفي الأيام المشمسة كان يستلقي عليها دون قميص. كان شي هو الذي يروي لي قصصًا عن قيادته لشاحنته عبر البلاد لتوصيل شحنات الفواكه والخضراوات من مدينةٍ إلى أخرى، كما أنه يملك مجموعةً من بطاقات التبادل عليها صورٌ لسيارات السباق على جانبٍ واحد، ومعلومات عن تلك السيارات على الجانب الآخر.

توقَّفت عملية هدم الحي بسببه، فأصبحت العشوائية الآن، من الناحية العملية، دورةَ قيادةٍ مفتوحةً. خلال طريقنا إلى هناك، بدأتُ أتحدث مع السائق، السيد وانغ. سألته عن أجره مقابل ساعةٍ من القيادة حول المدينة، ثم عرضتُ عليه المبلغ نفسه إذا قضى ساعةً في تعليمي القيادة.

- كم عمركَ، يا صبي؟

كنتُ طويل القامة وعريض المنكبين بالنسبة إلى عمري. أخبرته أن عمري ستة عشر عامًا، تفحَّصني السيد وانغ جيدًا من خلال المرآة الخلفية، بينما كانت يداه تتنقلان بين التروس، وأومأ برأسه موافقًا.

قضينا تلك الساعة في القيادة عبر الحي المهدوم. كنَّا نقود إلى منزل عائلة فنج القديمة، ثم إلى منزل عائلة لو، وبينهما كان منزل صديق طفولتي مينغ يي، الذي أصبح الآن طباخًا في مطعمٍ غربيٍّ في وسط المدينة.

كان العجوز شي غائبًا في ذلك العصر، فدُرنا بالسيارة حول منزله، وأطللت إلى الداخل من الباب والنوافذ الفارغة.

تعلمتُ بسرعة. أحببت شعوري وأنا خلف المقود، أتحكم في المسار، وأرى ثم أشعر بنسيج الأرض. التراب الذي يحدُّه أساسٌ خرسانيٌّ فارغٌ يمتدُّ إلى بقعٍ من العُشب الطري. أحببت التحدي الذي واجهته في تنسيق قدميَّ وذراعيَّ، والاندفاع المُرضي للمقود عندما أغيِّر التروس.

كان السيد وانغ يستعد للتقاعد. تفاوضت معه على صفقة: سأتمرن وأتحسَّن، ثم أقود سيارته طوال الليل، أملأ خزان الوقود، وأعطيه 50 بالمئة من الأرباح. ولأن عرضي هذا أفضل من لا شيء، قبلَ به.

كنت مجرد طفلٍ، طفلٌ أحمقٌ في سيارة أجرة ليليَّة قديمة، أكتشفُ أسلوبي في القيادة وأتعلم عن السيارات بنفسي. لكن لا أحد ممن يطلبون سيارة أجرةٍ رخيصة في الثالثة صباحًا يتساءل أو يراقب عمر السائق، بل يكونون عادةً في حالة سكرٍ، أو تعبٍ، أو في حالة حبٍّ تُعمي أبصارهم عن الملاحظة.

***

جافاني النوم مؤخرًا، وقد بدأ ذلك في فصل الربيع، عندما أخبرتني العائلة التي كنت أقود سيارتها طوال السنوات الخمس الماضية أن ابنتهم الكبرى، يُومِي، تستعدُّ للانتقال إلى الولايات المتحدة للدراسة. كنت أشعر أحيانًا كأنني أبٌ لتلك الفتاة، أو ربما عمُّها، أو بالأحرى أخوها الأكبر، وذلك بالنظر إلى أن الفجوة العمرية بيني وبين يُومِي لم تتجاوز السبع سنوات. بدأت الأحلام في ذلك الوقت، ثم بدأت الليالي التي قضيتها بلا نوم.

في واحدٍ من أحلامي المتكرِّرة، تلاحقني يُومِي بدراجةٍ هوائية، وهي درَّاجة شقيقتها الصغرى نفسها، الدراجة التي كنت أضعها في الجزء الخلفي من الفان إلى جانب دراجات والديها وأخواتها. كنت أصحبهم إلى مسار الدراجات المرتفع في بودونغ، الذي يمتدُّ على طول النهر،

حيث أوقف السيارة وأراقب العبارات وهي تتنقل ذهابًا وإيابًا، حتى ينادونني لأقلَّهم وأعيدهم إلى المنزل. كانت الدراجة وردية اللون، ومزيَّنةً بشراشيب تتدلى من المقبضين.

في الحلم، تكون يُومِي قد بلغت الثامنة عشرة، كما هي في الواقع، لكنها لا تزال تقود تلك الدراجة الطفولية، وهي تتخلف عني في أثناء قيادتي لسيارة التاكسي القديمة. أراقبها في مرآة الرؤية الخلفية، لكنني أشعر أنه يجب عليَّ أن أبتعد، أن أبتعد بسرعة، لكن ومهما قدتُ بسرعة، لا أستطيع التخلص منها. تنظر إليَّ عبر المرآة، وتكشف عن أسنانها. تشير إليَّ، صارخةً بكلمات لا أستطيع سماعها أو فهمها. ينتهي الحلم، وأستيقظ دائمًا سابحًا بعرقي.

والأسوأ من الأحلام هي الرؤى التي بدأت تداهمني. بدأت هذه الرؤى بعد فترةٍ قصيرةٍ من شرارة الأحلام الأولى، حيث يظهر وجه يُومِي في ذهني ظهورًا متقطِّعًا عندما أكون في السرير مع إستيل. وصل الأمر إلى درجة أنني لم أعد قادرًا على ممارسة الحُب. لم أستطع أن أتحكَّم بزمام الأمور كما يجب.

أنا وإستيل معًا منذ ثلاث سنوات، لكنها لا تبالي كثيرًا، إنها أكبر مني سنًّا، وقد التقيت بها عبر الإنترنت، تبلغ من العمر أربعين عامًا لكنها في قمة اللياقة، وتدير أعمال استيراد مُستحضرات التجميل بمفردها. نلتقي في الغالب في عطلات نهاية الأسبوع، عادةً في شقتها، التي تقع في مستودع طائراتٍ سابقٍ على أرصفة شمال البوند القديمة، والذي تم تقسيمه إلى مساكن فاخرة. كما أنَّ شقتها بالإضافة لكونها مسكنًا لها، فهي أيضًا مستودعٌ لكل منتجاتها، شقةٌ بجدرانٍ عالية، وسريرٍ معلَّق، ونوافذ طويلةٍ تُبقيها نصف مغلقة معظم الوقت لأن الشمس قد تُفسد جميع زجاجات اللوشن والتونر والسيروم المكدَّسة على الرفوف على

طول الجدران، لديها كلُّ شيءٍ يمكنك تخيله. كما تبدو الشقة لناظرها كأن أحدهم جاء ورشَّها ببندقية قوس قزحٍ نظرًا لأنها زاخرةٌ بالألوان.

يأتي عمال الشحن مرة واحدة في اليوم، في الخامسة مساءً، لتعبئة الملصقات وتحضير الطلبات لالتقاطها آليًّا. في الصباح، تصوِّر إستيل مقاطع فيديو لنفسها وهي تجرب منتجاتٍ جديدة، وتضع المكياج، وتجرِّب تسريحة شعرٍ جديدةً. في فترة ما بعد الظهر، تتولَّى الإعلان، والمحاسبة، وخدمة العملاء. إستيل: المرأة القادرة، والمثيرة، والمستقلة. إستيل التي تفوق مستواي بكثير، فبالمقارنة معها نجد أن مظهري هو الشيء الوحيد الذي يصبُّ في صالحي، وربما أيضًا كوني أصغر منها سنًّا.

إنها لا ترغب في الزواج، ولا تريد إنجاب الأطفال، بل تنحصر اهتماماتها في تنمية أعمالها. زجاجات ومستحضرات تدخل وتخرج، لتقضي بعض الوقت مكدَّسةً ومعروضةً على رفوفها، ثم تنتقل لتُكدَّس على رفوف النساء الأخريات.

بعد أن تنام إستيل أخرج من شقتها متسللًا في الليل، تلمع الزجاجات، ويتسلَّل ضوء القمر عبر النوافذ، ليزيد من لمعان كلِّ شيء. لا أستطيع النوم جيدًا في شقتها، فثمة أشياءٌ كثيرة، وألوانٌ كثيرة، وروائح كثيرة. أشعر أن عقلي يدور، يجرف معه كل هذه البلاستيكيَّات اللامعة، والزجاج المُصنفَر، والتغليفات القابلة للتحلل، أشعر كأن كائناتٍ حيَّة، تحاول أن تقول شيئًا، كأنها جوقةٌ من المنتجات، وأتساءل: هل ترغب في الحياة أم ترغب في الموت؟

خرجتُ إلى حرارة الممر، ثم إلى ساحة الانتظار، وجلست في سيارة السيد وانغ، إذ أحتفظ بالسيارة من أجله. لقد تقاعد لكنه كانَ لا يزال يسمح لي بالقيادة، لم أقُد كثيرًا، إذ لست بحاجة إلى المال حقًّا ولكنني

كنت أعطيه نصيبه من القليل الذي أكسبه من قيادة التاكسي. كانت السيارة تفوح برائحته: كرات النفتالين والشاي الأسود. أما المقاعد الرمادية، فقد مُسحت مراتٍ عديدةً حتى أصبحت صلبةً كالبلاستيك.

تكاد ألَّا ترى سائقين على الطريق في الليل، فمعظم السيارات التي رأيتها كانت سياراتٍ ذاتية القيادة، تسير بأقصى سرعة. أطفأت علامة «شاغر» وأبقيت عينَي مفتوحتين، منتبهًا لتلك السيارات. كانت سهلة التمييز، فهي تحافظ على وتيرةٍ ثابتة. رحتُ أُسرع نحوها، مندفعًا إلى الأمام، ضاغطًا بقدمي على دواسة الوقود. جعلت من الأمر لعبةً: أزيد السرعة، أنحرف إلى اليسار، ثم إلى اليمين. لكن دائمًا، كانت السيارات تنزلق بسلاسةٍ مبتعدةً عنّي، محافِظةً على مسافة حوالي خمسة أمتارٍ بيننا، كأننا مغناطيساتٌ مهيَّأةٌ على التنافر. ظللتُ أفكر، ربما هذه المرة ستتعطل السيارة، سيختل النظام. فكرة حدوث خلل في البرنامج كانت تبقيني على أعصابي. كنت أحب تحريك السيارات، كأنها قطعٌ من أحجية.

في مرحلةٍ ما، بدأت أُغلق عينيَّ، وذلك بفعل التعب جزئيًّا، ومع نافذة مفتوحةٍ قليلًا، والرياح الباردة تضرب وجهي، نظرت إلى الخارج فرأيت امتدادًا من الطريق أمامي، كنت أعلم أن بإمكاني القيادة لبضع ثوانٍ إذا أبقيت يدي مستقيمةً على المقود. فعلتها مرةً بعينيَّ مغلقتين، ثم واصلت فعلها، لفتراتٍ أطول. رأيت في مُخيلتي سيارتي تنطلق على الطريق السريع، والسيارات ذاتية القيادة تفسح لي الطريق. أصبحت واحدًا منها، كأنني روبوت، كأنني إحدى تلك السيارات. شعرت كأنني أذوب في الشارع، في المدينة. في الواقع، كل شيءٍ حولي كان يتحول إلى سائلٍ بطيءٍ، وكثيفٍ، ومعدنيٍّ كالزئبق.

زدت السرعة إلى الحدِّ الذي أضغط فيه على دواسة تاكسي السيد وانغ حتى تلتصق بأرضية السيارة. على الطريق السريع المرتفع، كنت أسير بأقصى سرعة، أعدُّ الثواني وعيناي مغلقتان. كنت أحيانًا أتخيل الانحراف، والاصطدام، والطيران في السماء، والتحليق بعيدًا.

***

بالطبع، كان ليُومِي صديق، شابٌّ وسيم يُدعى سفين. كانا يمسكان بأيدي بعضهما في السيارة، حيث أُوصلهما إلى المول، أو إلى السينما، أو المطاعم. عندما بلغ السابعة عشرة، اشترت له عائلته سيارة موستانج سوداء قابلة للكشف، شُحنت من الولايات المتحدة بتكلفةٍ باهظة، وفقًا لتعبيره الذي يحبُّ استخدامه أمام الجميع.

سفين من النوع الذي يرغب دائمًا في الخروج، ويحبُّ الحفلات، وصحبة الآخرين. أما يُومِي، فكانت، كما رأيتها، تشبه والدتها إلى حدٍّ كبير: هادئةٌ، ومتحفظة، ومتزنة، وجميلة أيضًا. كنت أعلم أنها جادةٌ في دراستها، ومجتهدةٌ في عملها. أما يوكو، الابنة الوسطى، فكانت مثل والدها: تهتم بالعلوم، والرياضيات، ونادي الروبوتات الذي يجتمع مساء كل أربعاء. ثم كيكو، المشرقة، والساحرة، والمسرحيَّة، والراقصة، والمحبوبة.

أما بالنسبة إلى إيكو وليو، الأم والأب، فدائمًا ما يبدوان متأرجحَين بين طرفين متناقضين. في بعض الأحيان، يمسكان بأيدي بعضهما، وتجلس إيكو في حضنه، يتهامسان بالفرنسية، حتى كدتُ في بعض الأحيان أن أقول لهما: «اذهبا وابحثا عن غرفة». وفي أيامٍ أخرى، يسود بينهما صمتٌ بارد، ويحدق كلاهما من نافذته، أو يتجادلان، وعادةً ما يدور الجدال من طرفٍ واحد، ليو، ويكون جدالًا قويًّا، وباللغة بالفرنسية

دائمًا، أما إيكو فترد أحيانًا بتعليقاتٍ لاذعة، وبنبرةٍ حادة لا تستخدمها مع أي شخصٍ آخر.

اقتنيتُ ذات مرةٍ منهجًا لتعلُّم اللغة الفرنسية، بدافع الفضول لمعرفة ما إذا كنت سأتمكن من متابعته. لكن اللغة، بقواعدها المعقَّدة وأصواتها الفريدة، أفلتت مني. أما اليابانية، وهي اللغة التي تستخدمها إيكو وبناتها فيما بينهن، واللغة السريَّة التي يتواصلن من خلالها دون علم والدهن، فقد فهمتها على نحوٍ أفضل، إذ تشبه في نطقها لهجة شانغهاي، مع بعض التداخل في الكلمات مع اللغة الصينية. كنت أشعر أن ليو يشعر بالإقصاء عندما تتحدث عائلته بهذه اللغة، رغم أنه، بحسب علمي، لم يحاول أبدًا تعلُّمها. أما عندما تجتمع البنات الثلاث بمفردهن، فإنهنَّ يتحدثن باللغة الإنجليزية.

بدأت في تعلُّم اليابانية من خلال قراءة المانغا. أصبحت تلك هوايتي، ووسيلتي لقضاء الليالي حينما لا أكون خلف مقود سيارة الأجرة، أو برفقة إستيلا. بدأت بقراءة الشونين، وكنت أدرس الكانجي الأساسية المختلطة مع الكانا، وأحاول ببطءٍ فهم مجريات القصة. لاحقًا، انتقلت إلى قراءة السينين، ومن بين الأعمال التي قرأتها: «الشبح في القوقعة» (Ghost in the Shell)، و«غول طوكيو» (Tokyo Ghoul). كما احتفظت بدفتر ملاحظاتٍ أدوِّن فيه كل الكلمات التي لا أعرفها. وبعد قراءة المانغا، رحتُ أشاهد الأفلام أو المسلسلات المقتبسة منها، وأوقف المشهد بعد كل حوارٍ لأكرِّر ما قيل: «كل الأشياء تتغير في بيئةٍ ديناميكية. محاولتك للبقاء كما أنت هي ما يحدُّ من قدراتك»، «لا يوجد شيءٌ أكثر حزنًا من دميةٍ بلا روح»، «هل تستطيع أن تقدم لي دليلًا على وجودك؟».

دخلت يُومِي وسفين إلى السيارة، وكانا يتحدثان. عادةً ما أحاول إبقاء نظري على الطريق، لكن في النهاية أجد نفسي أصغي إلى ما

يقولون. من المدهش ما يمكن للسائق اكتشافه، كأن الركاب ينسون أنك موجود، فيستمرون في الحديث بلا توقفٍ عن أنفسهم، وعن بعضهم البعض، وعن الموظفين. لقد عرفت كل التفاصيل عن علاقات أفراد الأسرة ببعضهم، وأصبحتُ على درايةٍ بالرواتب والمكافآت السنويَّة لكل فردٍ من العاملين. ولذا أعتبر نفسي حارسَ أسرارهم.

تكون معهم في العُلبة المعدنية الصغيرة نفسها، لكن لكلٍّ منكم مقعده الخاص. عليك أن تبقي وجهك إلى الأمام، بحيث يمكنك أن تسرق نظرةً إلى الخلف بين الحين والآخر، لكن ليس كثيرًا. الراكب اليقظ سيلاحظ أعينك وهي تتردد بين الطريق والمرآة الخلفية، وما من موقفٍ أكثر إرباكًا من التقاء نظراتك بنظرات ركابك في تلك النافذة الصغيرة. أعينٌ تلتقي بأعين، فقط الحواجب والمقلتين المتوترتَين المترقبتَين، كلٌّ شيءٍ مكبَّرٌ، وفضوليٌّ، وغيرُ مرحَّب به.

لا يمكنك الاستمرار في التحديق، حتى لو كانوا يقضون وقتًا ممتعًا وأنت تودُّ أيضًا أن تضحك وتبتسم. لا يمكنك الاستمرار في النظر، رغم أن الأطفال يكونون بدايةً ظريفين، ثم يكبروا قليلًا ليصبحوا لطفاء، ثم جذَّابين. يمكنك فقط أن تلقي تحيةً سريعة، ونظرةً عابرة على الملابس، قميصٌ ضيِّق، أو تنورةٌ قصيرة تُظهر المفاتن. إذا التقت عيناك بعينَي الفتاة في المرآة، ستدرك أنها كانت تحدق. لماذا؟

تشعر بردة الفعل في جسدك، فتتنفس بهدوءٍ. يجب أن يختفي هذا الشعور قبل أن تصل إلى وجهتك، تفتح الباب، وتفتح الصندوق الخلفي. تفكِّر في الطريق، وتتساءل: هل يمكنك أن تأخذ منعطفًا إضافيًّا؟ أو أن تسير ببطءٍ في الحارة؟ أتفكِّر بحركة المرور في شارع نانجينغ الشرقي؟ ممتاز. أم ظروف الطريق، وأعمال الصيانة؟ رائع، حاوِل أن

تركِّز. بحلول الوقت الذي تصل فيه، تكون قد هدأت، واستعدت المسافة الفاصلة بينك وبينهم.

دار جدالٌ بين سفين ويُومِي، فنال مني الاضطراب حالًا، إذ مهما يكن موضوع تلك المشادة العاطفية البسيطة بينهما، كنت مستعدًّا للوقوف في صفِّ يُومِي. في الواقع، هذا هو أصعب ما في الأمر بالنسبة إليَّ: حينما أعرف الإجابة على سؤال يطرحانه، أو حين أكون مقتنعًا أنني بكلمةٍ واحدة يمكنني مساعدتهما على فهم بعضهما البعض، ومع ذلك، يجب عليَّ أن أظل صامتًا. لم يكن لي الحق في أن أتصرف كمستشارٍ بينهما.

قالت يُومِي: «لا أعتقد أن هذه فكرة جيدة، يا سفين. ماذا عن قبولك في الجامعة؟ قد يسحبونه. ماذا لو حصلت على سجلٍ جنائيٍّ؟ أو، ليمنع الرب، حُكم عليك بالسجن؟».

أجاب سفين: «لن أذهب إلى السجن، فأنا لديَّ حصانةٌ دبلوماسية».

كان والد سفين السفير الروسي في الصين، أما والدته، وهي امرأةٌ سويدية طويلة جدًّا، فتعمل في معرضٍ فنيٍّ في وسط المدينة، حيث كثيرًا ما يحضر سفين ويُومِي افتتاحات المعارض هناك، حيث يشربان الكثير من النبيذ المجاني، ثم يتصلان بي بعد انتهاء الحفلات لآخذهما إلى المنزل.

تمتمت يُومِي بصوت منخفضٍ: «أحمق»، ثم سألته بالصوت المنخفض ذاته: «هل حقًّا تحبني؟»، وهي تعلم تمامًا أن سفين لا يفهم ما قالت. كم رغبت أن أخبرها، بل أن أصرخ قائلًا: «لا، يُومِي، هو لا يحبكِ!».

بعدها رفعت صوتها، قائلةً: «أنت تخاطر بكل شيء. ماذا عن هذا الصيف؟ ماذا عنَّا؟».

- أنت تعرفين رأي والدي، وإصراره على التوقُّف عن دعمي ماليًّا بعد التحاقي بالجامعة. يُومِي، بهذه الطريقة يمكننا إنجاح الأمر. بهذه الطريقة أستطيع السفر لرؤيتكِ في العطلات الدراسية. من كاليفورنيا إلى بوسطن. ويمكنني أن أستقدمكِ إلى كاليفورنيا أحيانًا أيضًا.

علمتُ أن الأمر انتهى. فيُومِي لطيفة، تمامًا مثل والدتها، أما رجُلاهما فيفلتان دائمًا من كل شيء.

- متى سيكون ذلك؟

- هذا الأسبوع. انسحب بضعةُ أشخاصٍ من السباق، وقد أخبرني إريك بالأمر أمسًا، وبالتالي أستطيع أن أشارك في السباق. إنه سباقٌ للمبتدئين، وإن حللتُ ضمن المراكز الأولى، سأربح جائزةً مالية، وأكسب أيضًا فرصةً للمشاركة في سباقاتٍ مستقبلية، إنه لأمرٌ جلل! تخيلي ما يمكنني كسبه طوال الصيف.

- وهل ستقود سيارتك الخاصة؟

- لا، هم يوفرون لنا السيارات.

- لكن كيف ستتمكن من قيادة سيارة غير سيارتك؟

- يمكنني قيادة موستانغ، من طراز سيارتي ذاته.

كنت أستمع إليهما من المقعد الأمامي، وقلبي ينبض بشدةٍ في صدري، وليس ذلك فقط لأنني شعرت بالاستياء نيابةً عن يُومِي، التي لم يكن لها ما أرادت، بل لأن ذلك الشعور القديم عاد ليتملكني مرةً أخرى، حيث بدأت الرغبة في السباق تتفتح في داخلي من جديد. فما السباق إلا إدمانٌ على ما أعتقد، شأنه معي كشأن المقامرة مع مدمنيها.

أنزلتهما أمام منزل يُومِي، ونظرتُ إلى الساعة. لا تزال لديَّ نصف ساعةٍ قبل أن أضطر إلى اصطحاب كيكو من درس البيانو. اتصلت بصديقٍ لي عبر خطٍّ مشفَّر، لم أتحدث معه منذ ما يقارب خمس سنوات. سألني: «كيف حالك مع حياة السائقين؟».

- بطيئة.

- أراهن على ذلك. هل اشتريت لنفسك واحدةً من سيارات البويك تلك؟

- مرسيدس.

- ليس خيارًا سيئًا. أود أن أراك تقوم بحركة دورانٍ بالإطارات مع إحدى تلك السيارات.

- هل ما زلت تدير الأمور؟

إذ كان لي يعمل كوسيط بين السائقين وشركات السيارات.

- بالطبع. هناك سباق هذا الأسبوع. هل تريد المشاركة؟ سباق هواة، جامح . انسحب بضعة سائقين في اللحظة الأخيرة خوفًا من الصحافة. كنت أبحث عن بديل، لكن، بصراحة، لم أفكر مطلقًا في سؤالك.

- نعم، لأنني قلت لك...

- إنك لن تشارك في سباقٍ مرةً أخرى.

- لكنني مهتمٌ هذه المرة. ما هو مسار السباق؟

- أنت تعلم أنني لا أستطيع إخبارك حتى يوم السباق.

- صحيح. القواعد كما هي إذن؟ ماذا بشأن الجائزة المالية؟

- القواعد تغيرت قليلًا. الأمور اختلفت منذ آخر سباقٍ لك، يا صديقي. إذ قلَّ عدد دوريات الشرطة مع ظهور السيارات ذاتية القيادة،

لكن كاميرات المراقبة موجودةٌ في كل مكان، وتقنية التعرُّف على الوجه مذهلةٌ الآن، لذا عليك تغطية وجهك بالكامل، وسنوفر نحن البدلات.

- إذًا التكنولوجيا أصبحت أفضل. وماذا عن الجائزة المالية؟

- ما تزال نفسها: خمسمئة ألف، بالإضافة إلى الخمسين.

لطالما ذكَّرتني السباقات بألعاب الصالات التي لعبتُها في طفولتي، حيث كان أصدقائي يتجمعون خلفي، ينتظرون أن أحطِّم الرقم القياسي، رقمي القياسي السابق. لم تكن الصالة في الواقع صالة ألعابٍ بالمعنى التقليدي، بل مجرد مجموعةٍ من ثلاث ألعابٍ قديمةٍ أُلقيت جانبًا لتتعفن في زاويةٍ مهملةٍ من الحي، سقفناها نحن الأطفال بسقفٍ معدنيٍّ مكسور، ومددنا الكهرباء عبر سلك تمديدٍ طويل وموصول بمنزل تشين. لم تكن الصالة في الواقع صالة ألعابٍ بالمعنى التقليدي، بل مجرد مجموعةٍ من ثلاث ألعابٍ قديمة أُلقيت جانبًا لتتعفن في زاويةٍ مُهملةٍ من الحي، سقفناها نحن الأطفال بسقفٍ معدنيٍّ مكسور، ومددنا الكهرباء عبر سلك تمديدٍ طويلٍ وموصولٍ بمنزل تشين. كانت والدته تفصل التيار عندما تعود من العمل، وتصرخ فينا بشأن إهدار الكهرباء وتضربنا على رؤوسنا بخِرَقها.

أحيانًا أفكر في الحياة كما لو أنها لعبة فيديو، شانغهاي هي الموقع، وأنا أرتقي في المستويات ببطءٍ. بدأت بسيارة الأجرة الليلية، أتعلم القيادة وأتعرف على معالم المدينة، ثم انتقلتُ إلى الدراجة النارية للتوصيل، وكلُّ توصيلٍ ناجحٍ في الوقت المحدد كان بمثابة عُملةٍ ذهبية، وإشارة رنين، أو تقدمٍ جديد. وبعدها وصلت إلى مستوى المناورة بين زحام المدينة، لتوصيل الفتيات إلى المدرسة، وإلى كل أنشطتهن. السباقات، الأموال الكبيرة، والإثارة التي تأتي من فعل شيءٍ غير قانوني.

لكن ما المستوى التالي؟ ما هو المستوى التالي بالنسبة إليَّ؟ أهو حياةٌ مع إستيل، وأنا محاطٌ بالزجاجات وعبوات الجل والكريمات؟

ليس أمامي سوى المضي قدمًا. سمعت مؤخرًا من أصدقائي أن العجوز شي تُوفِّي في منزله الفارغ، ولم يعثروا على جثته إلا بعد يومين، وفي اليوم التالي، بدأت أعمال بناء مركزٍ تجاريٍّ جديد. الآن، لم يعد للحي الفقير وجود. في ليلة السباق، شربت القهوة طوال المساء للحفاظ على طاقتي. لم أنم جيدًا منذ أشهر، لكنني كنت أعلم أن الأدرينالين سيتولى الأمر بمجرد أن أبدأ القيادة. حاولت ألا أفكر في قلبي، إذ إنه سيصمد بقدر ما قُدِّر له أن يصمد. دقات قلبي غير المنتظمة بدأت تعود مؤخرًا، والشيء الوحيد الذي يعالجها هو أن أُسرِّع من نبضات قلبي، ليدقَّ بسرعةٍ تجعل من المستحيل أن يتخطى نبضةً واحدة. القيادة في الليل، والإسراع، هذا هو الحلُّ الوحيد لكل شيء.

سحبت قبعتي إلى أسفل حتى غطت عينيَّ، وخرجت من شقتي، متخذًا طريقًا متعرجًا نحو المترو. خرجت في محطة ساحة الشعب المزدحمة، ثم بدَّلت ملابسي في الحمام العمومي. عندما خرجت من المحطة، ضربني جدارٌ من الرطوبة الكثيفة، لدرجة أنني اضطررت إلى أخذ بضع أنفاسٍ عميقة قبل أن أواصل السير. اكفهرَّت السماء بلون رماديٍّ داكنٍ مائل إلى البنفسجي، مما يعني شيئًا واحدًا فقط: عاصفةٌ وشيكة، وبرقٌ حار، ومجارٍ مغمورة، وكل ما يصاحب ذلك من فوضى.

استقللت دراجةً ناريَّة صغيرة، وأخبرت السائق أن يُسرع. توقفنا أمام مستودعٍ على الشاطئ الشمالي، في داخله كُدِّست الحاويات البحرية.

بعد عدَّة مصافحات، ارتديت ملابسي الكاملة وتجهيزاتي، ودخلت الفيراري، ثم أدرت المُحرِّك. غرقت في مقعدها وتعرفت على الآلة، حيث عدَّلت ظهر المقعد، وضبطت مرايا الرؤية الخلفية، شعرت بالتوتر

في دواساتها، واستوعبتُ وزن المقود. كانت رائعة، بلونٍ أسود خالٍ من اللمعة، وأنيقةً، وجميلةً، في تمويهٍ مظلم يتناسب مع الليل. كان السائقون الآخرون قد دخلوا سياراتهم بالفعل، وجميعها سوداء اللون، تتراوح أنواعها بين البورش، واللامبورغيني، والموستانغ. رأيت ظلًّا رقيقًا لامرأةٍ داخل البورش، بأصابعها الدقيقة المغطاة بالقفازات على المقود. زُوِّدنا جميعًا بسماعات أذنٍ للتواصل من قبل المسؤولين عنّا. قال لي: «في حال احتجت إلى التواصل، الشرطة أو أي طارئ».

ثم، قبل بدء السباق بلحظات، انحنى لي إلى نافذتي المفتوحة وقال كلمةً واحدة: «ميناء سانجيا». وانفتح باب المُستودع الواسع. ضحكتُ، فسفين لن تكون لديه أي فكرة عن مكان ذلك. شمال المطار، بالقُرب من سلسلة منتجعاتٍ شاطئيةٍ متواضعة، حيث الرمال المُستصلحة من المحيط. سيضيِّع دقيقةً في إدخال المكان في جهاز تحديد الموقع. كنت أعلم أنني سأتجه جنوبًا بمحاذاة النهر، ثم أصعد الطريق الحلزوني إلى جسر نانبو لعبور منطقة بودونغ. كنت بالفعل في طريقي.

التزمت بالسير بمحاذاة الماء، وكان النهر داكنًا وسلسًا، وبفضل انخفاض المدِّ، كانت الغيوم الغاضبة تنعكس على الزجاج والمباني المعدنية على يميني، أما السماء فسيطر عليها الضباب المُتحرِّك، والمباني تحولت إلى أعمدةٍ من الألمونيوم الذائب. سمعت زئير اللامبورغيني خلفي مباشرةً، والبورش التي تقودها تلك المرأة، كانت متقدمةً قليلًا. أما سفين، فقد كان خلفنا جميعًا. مررنا بجوار القنصلية الروسية العامة، واتجهنا كلنا نحو جسر الحديقة.

يتكوَّن جسر الحديقة من ثلاثة مسارات، اثنان منهما باتجاه الجنوب، والثالث باتجاه الشمال. كنت أتبع المرأة، وقد دخلنا الجسر في المسارين الجنوبيين، وقد اعتراني شعورٌ جيد. كانت اللامبورغيني

تتقدم في المسار المتجه شمالًا، لكن ظهرت سيارةٌ ذاتية القيادة قادمةً مباشرةً في طريقها، وبالتالي وجب على أحدهما أن ينحرف جانبًا، بدأت السيارة ذاتية القيادة تتحرك يُمنةً ويسرةً، غير أكيدةٍ مما يجب فِعله في هذا الموقف حيث المسار الضيق، والسرعة العالية، وفي النهاية، اشتغلت فراملها، فتوقفت قبل أن نعبر. بالكاد ظلَّت مساحةٌ كافية للامبورغيني لتتسلل خلفنا، متجاوزةً السيارة ذاتية القيادة، لكنني سمعت صوت صريرٍ معدني، ورأيت اللامبورغيني تدور وتنحرف، ثم تصطدم بجانب الجسر.

سمعنا عبر سماعة التواصل صوتًا يستنكر قائلًا: «اللعنة، اللعنة!، فنظرتُ في المرآة الخلفية لأراقب ما يحدث، وهنا رأيت يُومِي.

كانت تقف على ممر المشاة في الجهة المقابلة للحادث. شعرت بالارتباك، هل أخبرها سفين أن تنتظره هناك؟ هل طلب منها الحضور لتدعمه؟ أم أنها جاءت بمفردها، تنتظر على الجسر لتلقي نظرةً عليه، أو على الموستانغ؟ ماذا كانت تفكر؟ هل هي بخير؟ راودتني رغبةٌ قويَّة بأن أعود أدراجي، أن أرجع إلى الجسر، وأن أخلع القناع، بل حتى أن أفتح باب السيارة وأسحبها إليها، ربما لأعيدها إلى المنزل.

ترددتُ، وتساءلت: هل كنت سأفعل ذلك بدافع الخضوع للعائلة، أم لحُسن نيتي، أم لعاطفتي تجاه يُومِي، أم لشيءٍ آخر؟ ثم تدخَّل العقل، وبدأت أرى الأمور بصورةٍ أوضح، إذ كيف ليُومِي أن تعرف وجهتنا، فضلًا عن مسارنا؟ لا، لا يمكن أن تكون هي. أدرت عينيَّ عن المرآة، مدركًا أن تلك التي رأيتها كانت مجرد فتاة، أي فتاة. قاومت الرغبة في النظر مجددًا إلى الجسر، الذي راح يبتعد عني أكثر فأكثر مع مرور الثواني. كل نظرةٍ خاطفة، وكل نفسٍ، وكل التفاتةٍ إلى الخلف أو إلى الجانب تستنزف طاقتك، وتقود في النهاية إلى إخراجك من السباق.

ابتعدت البورش أكثر فأكثر، أما سفين فكان متأخرًا كثيرًا. ربما تباطأ على الجسر، معتقدًا أنه رآها، معتقدًا أنه سيعوِّض الوقت لاحقًا، لكنه لم يعرف أن الوقت الضائع لا يُعوَّض أبدًا.

انعطفتُ إلى الشارع الواسع في البوند. حاولت البورش أن تقطع طريقي من اليسار، فتحركتُ إلى اليمين. لكنها انسحبت فجأةً، ورأيت أنني في مواجهة تمثال أسدٍ، وهو واحدٌ من عدة تماثيل تحرس المباني على طول الطريق. مررت من الفتحة الضيقة بين الأسد والحافة، مهدئًا سرعتي قليلًا.

من تظنني هذه المرأة؟ من هي؟ لن أعرف أبدًا. قد تكون جذابة، وقد تكون مسنَّة، أو ربما سائقةً خاصة مثلي، بل لا يمكننا حتى استبعاد احتمال أن تكون إستيل، فما الذي أعرفه عن إستيل على أي حال؟ كنَّا نعيش حياتنا الخاصة في الغالب، نلتقي في عطلات نهاية الأسبوع أو في المساء. لكن الليلة، كنَّا نحن السائقون جميعًا مثيرين، أشبه بكياناتٍ خارقةٍ في أقنعتنا وبدلاتنا وسياراتنا.

تابعتُها عبر المباني المهيبة لفندقَي «بينينسولا» و«روزفلت». ثم ظهر شرطيٌّ على دراجةٍ ناريَّة من الزقاق بين فندقي «فيرمونت» و«بيس هوتيل»، وانعطف إلى اليمين متتبعًا البورش، لذا قررتُ تغيير الخطة، فانحرفتُ بعيدًا عن المياه متجهًا نحو شارع نانجينغ الشرقي، الذي يُخصَّص عادةً للمُشاة فقط. وفي المرآة الخلفية، رأيت تراجع نهر هوانغبو، ورأيت وميضًا من البرق في انعكاسه، ومع ذلك، لم يبدأ المطر بعد.

انطلقتُ بسرعةٍ على ممر المُشاة، مغيرًا السرعات. مررت بالمحلات التجارية، ولافتات النيون، والأضواء، بينما كانت أفق بودونغ والمياه تتلاشى في مرآتي الخلفية. كان بعض الناس يسيرون في أزواج،

يشيرون نحوي وأنا أمرُّ بسرعة البرق. وبدأ ثلاثة شُبَّان، جميعهم يرتدون قبعات الطهاة وملابسهم البيضاء، يهتفون لي، وأخرج متسوِّلٌ هاتفه ليلتقط الصور، وكانت عربات الترام الحمراء القديمة متوقفةً في مُنتصف الشارع، فتنقَّلت بينها، للتسلية فقط. عند نهاية ممر المُشاة، انعطفت إلى شوارع البوند الخلفية المتشابكة. لم يكن هناك أي أثر للبورش أو لسفين.

خلف الواجهة التاريخية للمباني، تتفرع الشوارع على نحوٍ غير منتظم، متقاطعةً كأن الرب قد ألقى كومة من النودلز المقلية بالصويا على الأرض ورسم خريطة شانغهاي على صورتها. خلف الواجهة المثالية للبوند، ببنوكه وفنادقه، تنتشر الأزقة المتعرِّجة المليئة بالمطاعم الرخيصة، حيث تفتح المدينة فمها، وتتثاءب بنَفسٍ ليليٍّ ينبعث منه البخار والنكهات الشهية.

عدتُ إلى البوند ولاحظت أن شيئًا ما قد تغير. انضمت إلينا عدَّة سيارات سباق، لكنها لم تكن سوداء. كانت صفراء وحمراء وورديَّة. فسألت عبر جهاز الاتصال الداخلي: «ما هذا؟».

أجابني صوت المرأة، وكان منخفضًا وحادًّا: «إنه نوعٌ من المزاح، يريدون أن يكونوا مثلنا».

مرَّ على الناس وقتٌ طويلٌ وهم ينتظرون سباقًا آخر، فمنذ أن بدأنا، ظهرت سباقاتٌ حاولت أن تُحاكي سباقاتنا، مُنظَّمةٌ من قِبل هواةٍ ومن خلال جمعياتٍ سريَّة، لكنها لم تكن بالمستوى المعقد من الرعاية التجارية الذي نتمتع به. كانت تُفكَّك بسهولة، وتُفرض عليها الغرامات، ويُحتجز من ينظمها. هؤلاء الأشخاص لم يكونوا على درايةٍ بأقنعة التخفِّي الصحيحة، أو كيفية تجنُّب الطرق المليئة بكاميرات المراقبة، بل كانوا يفعلون ذلك للمتعة، لأنهم يستطيعون. أحبوا الشوارع الكبيرة

ذات الأضواء الساطعة وحركة المُشاة، مثل: شارع نانجينغ لو، ووكانغ لو، والبوند. وها نحن نصطدم بسباق هواةٍ من هذا النوع الآن.

اقتربت مني سيارة مازيراتي من الجهة اليسرى وأنزل السائق النافذة، وصرخ: «جيو[1]!» فزدتُ من سرعة المحرك وانطلقت بعيدًا، دون أن تظهر البورش في الأفق. اقتربت مني سيارة فيراري أخرى من الجهة اليمنى، نزع السائق قبعته وصرخ وسط هدير المحركات: «مَن أنت يا رجل؟ فقط قل لي، بيننا فقط!». لوحتُ له بالابتعاد. كانوا يتدخلون، وكنت على وشك الخسارة. فصاح الرجل، بينما تجاوزته: «تبًّا لهم، صحيح! سأغطي ظهرك!».

يتطلب سباق الشوارع، قبل كلِّ شيء، إلمامًا جيدًا بالشوارع نفسها. لذلك، يُعد العاملين في التوصيل، والسائقين الخاصين، وسائقي سيارات الأجرة من أفضل السائقين، أما الشبان الأثرياء الذين يقودون سيارات نادرة، ويأخذون الفتيات الجميلات إلى المطاعم المزدحمة في منطقة شينتياندي، فلا يشكِّلون منافسةً حقيقيَّة. ناورت بين بعض السيارات ذات القيادة الذاتية. وفي مرآتي الخلفية، رأيت سفين يقترب من جديد.

سمعت صوت صفَّارة الشرطة، كانت هناك سيارات شرطة خلفنا، لكنها بدت بعيدة. كنت على وشك الوصول إلى جسر نانبو، وسينتهي الأمر قريبًا. وفجأةً، انتابتني حالةٌ من الصفاء، وأصبح كل شيءٍ من حولي أكثر وضوحًا، وأكثر إشراقًا. شعرت كأن الزمن يتباطأ، وأستطيع رؤية كلِّ شيء بتركيزٍ شديد.

انعطفت إلى المسار الأيسر ثم عبرت الخط الأصفر المُزدوج. أصبحت الآن في مواجهة حركة المرور القادمة. في الليل، تسير السيارات ذاتية القيادة بسرعةٍ كبيرةٍ على طول البوند. تقدمت مباشرةً في منتصف

(1) عبارة تشجيع صينية تعني «أعطِ كل ما عندك!».

الطريق، فانحرفت السيارات تلقائيًّا لتفسح لي المجال، شعرت كأني سكينٌ تقطع نبتة الكراث، وتشطرها إلى نصفين، كأن الطريق يتفتح أمامي مثل لوحة رقصٍ مُتقنة.

ثم سمعت صوت سفين عبر السماعات، وهو يضيء أنوار سيارته نحوي من مساره، ويقول: «عليك مساعدتي، سيارتي جنَّ جنونها!»، ومن مرآتي الخلفية رأيت سيارة الماستنغ وهي تتأرجح يمينًا ويسارًا.

بينما كانت السيارات تتناثر مبتعدةً عني، تخيلت عالمًا بلا سفين، تخيَّلتُ يُومِي من دون سفين، حيث تتلاشى تلك اللحظات التي تمرر يُومِي فيها إبهامها على يده في المقعد الخلفي من السيارة، وتختفي رحلتها القادمة إلى روسيا في الصيف، أو الرحلات إلى كاليفورنيا في الخريف. فما علاقتها به إلا علاقة متأرجحة، قائمةٌ على زواجٍ مُحتمل، وتقلبات الحُب والكره، إنها لا تستحق هذا. لم أرغب في مساعدته، أردت فقط الحصول على الجائزة المالية، لكنني أيضًا لم أُرد أن يكون هو من يمسك به رجال الشرطة، وأن يُكشف أمام العالم على أنه سائقٌ مُقنَّع.

أبطأتُ سرعتي، وتراجعت إلى حيث كانت سيارته، ثم فتحتُ نافذتي، وسألته: «ما الأمر، يا فتى؟»، ودون أن ينطق بكلمةٍ، ضحك سفين وانطلق مسرعًا متجاوزًا إياي.

ذلك الماكر الصغير! انطلقت خلفه، وقلبي يكاد أن يخرج من حلقي، لا بل كان ينبض في عينيَّ. تملَّكني الغضب إلى حدٍّ أنني كدت أفقد شعوري بيديَّ على عجلة القيادة، غضبٌ شديدٌ متأججٌ لدرجة أنني شعرت كأنني خارج جسدي. بدلًا من رؤيته أمامي مباشرةً، وسماع ضحكاته عبر السماعات، كنت أرى نفسي الآن من بعيد، كأنني أجلس مجددًا في صالة الألعاب القديمة، العجلة مفصولة عن السيارة، والشوارع تتبدل بين منظور السائق، ورؤيةٍ من علٍّ.

كنت آخذ يُومِي إلى المدرسة في أول يوم عملٍ لي. لا، كنت أحقق أهداف التوصيل على دراجتي القديمة. لا، كنت في الثالثة عشرة أتعلم القيادة. لا، كنت في العاشرة وأحقق أعلى رقم قياسيٍّ لنفسي في اللعبة. أسمع أصوات أصدقائي يهتفون ويصرخون تشجيعًا لي، وأنا مستعدٌّ لِفعل أيِّ شيءٍ للفوز. رأيت العم شي مستلقيًا في أرجوحته، والسيجارة تتدلى من شفتيه، عيناه مغمضتان كأنه نائم، لكن عندما اقتربت سمعته يقول: «أنت الأفضل، يا فتى».

اقتربتُ من جسر نانبو بسرعة 240 كيلومترًا في الساعة. وقد أصبح الرعد قريبًا وصاخبًا الآن، يخترق زئيره ضجيج المحرك. سيهطل المطر في أي لحظة، سريعًا وكثيفًا، كستارةٍ تُنزل على آخر مشهدٍ في العرض، مُخفِيًا آثارنا، ومؤمِّنًا لنا غطاءً حاميًا. انحرفتُ بعجلة القيادة إلى اليسار بقوةٍ، وسيارتي تزحفت بفعل الجهد، وأنا أصعد إلى حيث كان سفين. صدمت سيارته بقوة، وأخذتُنا بسرعةٍ أعلى نحو صعود الطريق الحلزوني. أعلى وأعلى، نلتف في دوامةٍ ضيقةٍ نحو مدخل الجسر. في تلك الحالة شعرت كأنني أرتفع إلى الأبد، نحو السماء، نحو السُّحب، جاهزٌ للانفجار. أغمضت عينيَّ لثانيةٍ واحدة، ثم لثانيتين أُخريين. كل حركة من حركاتي كانت بطيئةً ودقيقة، كنت بلا وزن، أمشي بسلاسةٍ، مُتّحِدًا مع السيارة، والطريق، والمدينة.

وميض

أغسطس / آب 2035

ازداد الصيف في شانغهاي حرارةً، بل في كلّ مكانٍ أيضًا، وأصبح الخروج في مُنتصف النهار شبه مستحيل، فعمدت الفتيات إلى قضاء ساعاتٍ طويلةٍ في النادي، تحت الماء وحول حوض السباحة. بدأت عاصفةٌ حراريَّة تتجمع في الأفق هذه الليلة، ما الذي يتجمَّع في الهواء؟ الكهرباء الساكنة، أم الرطوبة؟ أيًّا يكن، فقد كان الليل ثقيلًا، ومشبعًا بتلك الأجواء.

استلقت إيكو وليو في السرير، ومن خلف النافذة، كان الرعد يُزمجر قريبًا ثم يبتعد، فيما يضرب البرق كالسوط. فتحَ الزوجان الستائر جميعها، وأطفآ الأنوار ليشاهدا العرض في الخارج. تدفَّق الهواء البارد من فتحات التهوية مباشرةً على جسد إيكو، المجرد من الملابس باستثناء الملابس الداخلية، وكان الغطاء متشابكًا بين ساقيها، بحيث لا تتعرض للبرد.

قالت إيكو: «لا بدَّ ستطير العناكب هذه الليلة».

منذ سنواتٍ، في ليلةٍ ضربت فيها عاصفةٌ حراريَّة مشابهة لعاصفة هذه الليلة، اندفعت الفتيات إلى غرفة والديهما، إلى سريرهما، يصرخن ويطالبن بالحماية من الرعد. كان ليو يعشق تلك الليالي، حين يتجمَّع الجميع حوله، والفتيات يتمسَّكن به بشدَّة، ويُعبِّرن عن خوفهنَّ على نحوٍ مسرحيٍّ وصاخب. كان يضحك ويفتح جميع الستائر، ليبدؤوا في عد الثواني بين البرق والرعد. لقد تمتَّع ليو بالقدرة على تحويل أيِّ شيءٍ إلى متعةٍ، بفعل ثقته اللامحدودة، وجاذبيته الساحرة.

وجد ليو فيلمًا وثائقيًّا عن البرق وكيف يُضَخ كطاقةٍ في الأرض، وكيف تستخدم العناكب تلك الطاقة، لتعود إلى الهواء مجددًا وتطير باستخدام الرياح، حتى أنها قد تعبر المحيطات. جلست الفتيات يتابعن الشاشة بتركيزٍ، بينما كانت الصواعق تضرب من حولهم. وفي لحظةٍ ما، ضرب البرق قُرب النوافذ لدرجة أن المبنى اهتز استجابةً لذلك، واحترقت شجرة النخيل الطويلة الموجودة خارج المبنى، متحوِّلةً إلى ساقٍ سوداء متفحِّمة، يتصاعد منها البخار.

قالت إيكو وهي تُداعب شعر الفتيات محاولة طمأنتهن: «إنَّ البرق لا يضرب المكان نفسه مرتين»، وكانت يوكو تحدق إلى الخارج، ووجهها ملتصقٌ بالزجاج رغم توسلات إيكو بأن تبتعد. بينما راحت يُومِيّ تخبر كيكو بأن الناس يأكلون العناكب في أثناء نومهم، لتردَّ الأخيرة بأنها ستلصق فمها بشريطٍ لاصقٍ كلَّ ليلة حتى لا تتمكن العناكب من الدخول.

لكن هذه الليلة، لم تسمع إيكو شيئًا من غُرف الفتيات، لا خطوات خفيفة ولا أصوات. لم يعدن خائفات. وضعت إيكو يدها برفقٍ على صدر ليو، ثم نقلتها بخفَّةٍ إلى طرف أنفه. فسألها: «ماذا تفعلين؟»، لتجيب

مبتسمةً: «إنه عنكبوت، يحاول الطيران إلى فمك، لقد نشَّطته صواعق البرق».

وضع ليو جهازه اللوحي جانبًا وألقى عليها نظرةً، تلك النظرة التي تقول: ها أنتِ مجددًا على طبيعتك. لكنها لم تكن نظرةً سيئة، بل نظرةٌ مُحِبَّة. لقد انتهزت فرصتها. التفت نحوها بسرعةٍ، وبلحظةٍ ماكرةٍ قرصها، مستخدمًا طرف إبهامه ليمسح قطرة عرقٍ تنزلق من عنقها إلى صدرها. وأضاء البرق الغرفة للحظة.

في تلك اللحظة، رأت إيكو عضلاته، وقوامه المتوتر، وهو يتحرك ليضع يديه ورُكبتيه على السرير، وقد علت وجهه ابتسامة التركيز، تلك الابتسامة التي عرفتها لسنواتٍ طويلة، والتي كانت دائمًا تعني الشيء البسيط والمضمون ذاته.

لا تزال إيكو وهي في الخامسة والأربعين من عمرها محافظةً على لياقتها وجاذبيتها. لم يعبر ليو عن إعجابه بها على نحوٍ مُتكرِّر، ولذلك تحبُّ أحيانًا أن تسأله، فيجيبها، لكنها تعلم ذلك في قرارة نفسها، وأحيانًا تراه يحدق إليها من بعيدٍ عبر الغرفة. أما هو الآخر فكان وسيمًا، وقد احتفظ بشعره، وبكتفيه العريضتين، وبهيئته الرشيقة.

شعرت بدفءٍ في قلبها، وقد تسارعت نبضاته. انزلقت قطرةٌ أخرى من العرق على وجهها، فلعقها بلسانه. كانت يده تنزع ملابسها الداخلية، تتحسس استعدادها. شعرت بطاقةٍ تسري في جسدها، وسمعت الرعد يتردد في البعيد.

تحرك رأسه إلى الأسفل، ولسانه يستكشف جسدها. أغمضت إيكو عينيها، واستمتعت بصوت المطر الذي بدأ يضرب النوافذ بشدة. ألقت نظرةً سريعةً إلى النافذة فرأت مياه المطر تتدفق عليها في موجاتٍ عنيفة. ستكون هناك فيضاناتٌ أخرى. عليها أن تتحقق من أن الدراسة

غدًا ستكون عن بُعد، وعليها أن تذكِّر السائق بتغيير الإطارات إلى تلك الخاصة بالوحل. فكرت فيما إذا كانت جميع النوافذ في المنزل مُغلقة، لكنها بعد ذلك قررت أن تتجاهل تلك الأفكار، وأوقفت عقلها عن التفكير.

في أثناء لحظتهما الحميميَّة، قبَّلها ليو، كأن هذه القبلة هي آخر قبلةٍ في هذا العالم، إذ دائمًا ما يقبلها بتلك الطريقة، بعمقٍ، وبشغفٍ غامر. مهما كان الأمر، وسواء في اشتداد الحرارة، أو في عواصف الصيف، يبقى هذا الشيء المميز بينهما دائمًا.

مهورٌ على الجبل في المدينة البحريَّة

مايو/ أيار 2034

تتدرَّب يُومِي في عطلات نهاية الأسبوع على مهارات البقاء على قيد الحياة، إذ يصطحب والدها العائلة إلى مِلكيتهم التي تبعد نصف ساعةٍ عن وسط شانغهاي، حيث تمارس هي ويوكو وكيكو أنشطة تقطيع الحطب، وإيقاد النار، وصناعة الأسلحة البدائية، واصطياد الحيوانات الصغيرة. أما مع والدتهنَّ، يدرسن النباتات والزراعة وكيفية تحضير الخُبز في الفرن الخشبي.

أظهرت يُومِي براعةً في الزراعة، وبرزت مهارة يوكو في نصب الفخاخ، أما كيكو فكانت تجيد تصميم الملابس. حسنًا، لم تكن جيدة حقًّا، لكنها صمَّمت قطعًا ذات لمساتٍ رائعة، وكان بمقدورها هي ووالدتها أن تقضيا اليوم كلَّه في الخياطة، بينما يعمل الآخرون في الأرض أو في الغابة. لقد صنعتا قطعًا جميلة، من بينها سراويل من

قماشٍ أخضر مُرقَّع، ومطرَّزةٌ بكرومٍ تتسلق الساقين، وقمصانٌ من الجلد والفرو.

كان البيت محاطًا بغابةٍ صغيرةٍ في متنزه، يقع على جبل، وبقُربه بحيرة. بعد أن اشترى والدهم قطعة الأرض، قضوا ستة أشهر في بناء المنزل وتخطيط الحديقة. اضطر الجميع إلى أداء الأدوار المنوطة بهم، فهذا ما أراده والدهم طوال الوقت، أراد أن يبنوا المنزل معًا، وهو الأمر الأكثر أهميةً بالنسبة إليه، وغايته الأساسية. لذلك أمضوا عطلات نهاية الأسبوع على مدار سنةٍ تقريبًا وهم يقطعون، ويصقلون، ويزرعون، ويطرقون بجانب طاقم البناء. بدأوا العمل بعد السنة القمريَّة الجديدة، وكانوا جاهزين للانتقال إلى المنزل بحلول الخريف.

كرهت يُومِي العطلات الأسبوعية تلك، إذ كانت ترغب في الذهاب إلى الحفلات مع أصدقائها، كما أرادت أن تقضي بعض الوقت بمفردها. فهي في عُمر المراهقة، وحياة المراهقين تدور حول عطلات نهاية الأسبوع. أما يوكو، فرفضت مُعظم دعوات الحفلات، لكنها لم تكن تهتم كثيرًا بالأصدقاء أو بأشياء من هذا القبيل. وكيكو، التي كانت لا تزال طفلة، غمرتها السعادة بالحياة في المزرعة.

أما بالنسبة إلى الأُم والأب، فقد كانا يتشاجران كثيرًا عندما يذهبان إلى المزرعة، لم تكن إيكو تحبُّ تلك الأنشطة، ففي النهاية، كان هذا المشروع هو مشروع ليو المُفضَّل، وهذه الهواجس هواجسه الخاصة، وكان يجرُّ الجميع معه في هذه الرحلة، كما اعتاد دائمًا.

وكنوعٍ من الاحتجاج، لم تُبدِ إيكو تفاعلًا، ولم تُقدِّم عونًا إلا بأقلِّ ما يمكن، إذ تساعد في الطهي والتنظيف، ولكن كل ما له علاقةٍ بالبقاء على قيد الحياة مما لا يعجبها -مثل نصْب الفخاخ، والتخييم، وإشعال النار- فتتجنبه تمامًا، بل أحجمت حتى عن مرافقة العائلة إلى المزرعة

في بعض عطلات نهاية الأسبوع. في العطلات التي تتغيب فيها عن الحضور، تقضي البنات وقتهنَّ مع والدهن، الذي يقدِّم لهنَّ شطائر الجُبن المشوي في كل وجبة. حوَّل ليو كل شيءٍ إلى لعبةٍ أو مشروعٍ، حيث يظهر حماسه قائلًا: «هلمُّوا بنا لنزرع!»، «لنذهب في جولة!»، «هيًّا نتدرب على الصيد بالسهام!»، وكان الأمر مرهقًا. وعندما يعودون إلى المنزل، كان يأخذ حمامه ثم ينسحب إلى ركنه -قُرب المدفأة- مع كتابٍ ضخم، وكانت يُومِي تتولى كل شيء: تنظيف المكان، والتأكُّد من أن الفتيات دافئات وجافَّات، وأن لديهن وجبةً خفيفة، حيث توقد الفرن وتحضِّر رغيفًا ساخنًا من الخبز، ثم تعدُّ اتصال الأقمار الصناعية وتشغل فيلمًا لكيكو. كانت تفضل وجود والدتها، لكن ليس عندما تتشاجر مع والدها طوال اليوم، فشجارهما هو أسوأ ما يمكنها تحمُّله.

في هذا الأسبوع، حزمت يُومِي حقائبها، وقررت الابتعاد عن كل هذا الشجار. وتحت ملابسها المطوية، وولاعة النار، والسكين، وفلتر المياه، وضعت المسدس الأسود الصغير من طراز «سيغ ساور»، إذ سبق واشترى والدها اثنين من هذا النوع من السوق السوداء، عن طريق صديقٍ له كان لديه اتصال بالمصنع الذي تُصنع فيه الأجزاء في غوانزو. لم يُسمح للفتيات بلمسها، لكن والدها علَّم يُومِي كيفية إطلاق النار عندما بلغت الخامسة عشرة.

سألت يوكو وهي تقف في المدخل، تراقب أختها الكبرى: «إلى أين تذهبين؟»، ردَّت يُومِي: «سآخذ هايامي في جولةٍ».

- لماذا تحزمين كل هذه الأشياء؟

حدقت يُومِي إلى يوكو. ويوكو بدورها كانت تحدق إليها، ثم نظرت إلى الخيمة المطوية في يد أختها، وتردَّد صوت تحطُّم صحنٍ على الأرض من الطابق السفلي. سألت يوكو: «إلى متى ستغيبين؟».

- لا أعلم. إلى أن تنتهي الأمور.

- أيُّ أمور؟

قالت يُومِي: «إلى أن يتوقفا عن الشجار»، ولم تُضِف عبارة «أيتها الغبية»، لكن كان ذلك واضحًا في نبرة كلامها.

- إنهما لا يتشاجران بسببك.

- وماذا في ذلك؟

- ذلك يعني أن مغادرتك لن تحلَّ مشكلتهما.

حاولت يُومِي أن تبرِّر وجهة نظرها، قائلةً: «ومع ذلك، ربما يتوقفان، عندما يدركان أنني غادرت».

- هذا ليس منطقيًّا. إنني لا أفهم دافعكِ.

- ليس عليكِ أن تفهمي. فقط لا تخبريهما بأي شيء.

- سآتي معكِ.

ردَّت يُومِي بسرعة: «ظننت أنكِ لا تفهمين موقفي».

- لديَّ أسبابي الخاصة.

- حقًّا؟ وما هي؟

- أُفضِّل أن أكون في الغابة على أن أبقى محبوسةً في المنزل، وأسمع هذا الشجار طوال عطلة نهاية الأسبوع.

- حسنًا.

لم تجد يُومِي ما هو أفضل لتقوله.

- أترين؟ هذا منطقي.

- أيًّا يكن. سأغادر في غضون عشر دقائق.

سألت كيكو: «إلى أين أنتما ذاهبتان؟»، وكانت تقف في المدخل، ممسكةً بقطتها دوريس، القطَّة التي تنحدر من سلالة «راغدول»، والتي حصلوا عليها من مربي قططٍ في عيد ميلاد كيكو قبل أربع سنوات. كانت تعيش في المزرعة بسبب حساسية يوكو تجاه القطط.

- عزيزتي، سنأخذ المُهور في جولة.

- أريد أن آتي معكما.

قالت يُومِي: «كيكس، أنتِ لا تتقنين ركوب لوسي جيدًا بعد».

- نعم أُتقن! لقد ركبتُها طوال اليوم الأسبوع الماضي مع أبي. أصبحت جيدةً معها الآن. وأصبحت تطيعني.

ردَّت يُومِي بصوتها الذي يدل على أن النقاش قد انتهى: «كيكس، من الأفضل أن تبقَيْ في المنزل».

- لا أريد البقاء في المنزل. أريد أن آتي معكما.

قالت يوكو: «لا، عزيزتي، لا يمكنك ذلك».

- لماذا؟ ولا تناديني عزيزتي وتظنين أنكِ تستطيعين إخباري بما يمكنني فعله وما لا يمكنني فعله.

استلمت يُومِي دفَّة الحديث، قائلةً: «فقط... لا يمكنكِ، كيكس. سنعود لاحقًا».

صرخت كيكو وهي تركض خارج الغرفة، نزولًا إلى الطابق السفلي: «أكرهكما! أكرهكما أنتما الاثنتين!».

تحطَّم طبقٌ آخر في المطبخ، وتوقفت يُومِي ويوكو للحظة، تستمعان إلى الأصوات القادمة من الأسفل. لم يكن من المُتوقع أن ينتهي الأمر قريبًا، وكما يحدث عادةً ستُحضِّر الأم عشاءً بسيطًا وتتركه على الطاولة، في حين يتبعها الأب، وهو يتحدث ويتحدث غاضبًا، ثم سيختفيان في

غرفتهما، لِيَلي ذلك صراخٌ وشجار، وصوت الأب العالي سيُهدر في أنحاء المنزل. كان بإمكانه الاستمرار طوال اليوم، وهكذا سيضيِّع عطلة نهاية الأسبوع بأكملها في صمتٍ وتوتُّر. الأب متجهِّم في زاويته، يأخذ «باي» في جولاتٍ طويلة، أما الأم فستبدو أفضل، ستكون لطيفةً معهن، لكنَّه لطفٌ مُتصنَّع، وسعادةٌ مُختلَقَة، إذ تبدو شفتاها دائمًا على وشك الارتجاف، وكانت يُومِي تكره هذا الارتجاف.

- دقيقتان. سأخرج من الفتحة.

- سأكون سريعة.

ركضت يوكو نحو الخزانة وحشرت بعض الجوارب والملابس الداخلية ومعطفًا مُضادًّا للمطر في حقيبة. تشاركت الفتيات غرفةً واحدةً كبيرة، إذ لم تكن رفاهية الحصول على مساحاتٍ منفصلة في عالمِ ما بعد الكارثة ممكنة، وفقًا لتعبير الأب. وفي النهاية، كان ذلك أفضل لتعزيز الروابط بينهن، خاصةً أنهن ينشغلن أيَّما انشغال خلال الأسبوع، ولكلٍّ منهنَّ شخصيتها المختلفة. شغلت غرفة الفتيات الطابق الثاني من المنزل بالكامل، مكوَّنة من ثلاثةِ أسرَّة موضوعةٍ في ثلاثِ زوايا، وخيمة تيبي كبيرة في الزاوية الرابعة، بالإضافة إلى الكتب، والألعاب، والفساتين، وأدوات التجميل المتناثرة في كل مكان، على الرغم من إصرار والدهنَّ على اتباع أسلوب حياةٍ بسيط يعتمد على البقاء.

تحت سرير يُومِي ثمَّة فتحة تؤدِّي إلى مزلقة تمرُّ عبر الجدران السميكة للمنزل، وتنزل إلى مخبأ تحت الأرض خاص بالعائلة، وفي نهاية المزلقة، ثمَّة بابٌ مزوَّدٌ برمزٍ سريٍّ: 252525 يُومِي، يوكو، يوكيكو. بعد إدخاله يفتح الباب على ممرٍّ يمتدُّ إلى أقصى زاويةٍ من الأرض. والفكرة الأساسية من وجوده تتمثَّل بكونه عنصر أمان في حال حدث شيءٌ وتمت مُداهمة المنزل، إذ يمكنهم الهرب مع خيولهم، أو

البقاء تحت الأرض والخروج بين الحين والآخر لجمْع الخضراوات. كما كان هناك نظام كاميرات متصلٌ بنظام رشاشات المياه.

كان الروبوت المزوَّد بكاميرا للرؤية الليلية قادرًا على حفر الجذور وقطف الخضراوات في الظلام. أما في الإسطبلات، فقد كانت هناك أكياسٌ من الطعام والماء ومعدات التخييم مخبأةً تحت مستلزمات الركوب وأدوات العناية بالخيل.

قالت يوكو: «أنا جاهزة»، وقد ارتدت بنطالًا من الجينز وحذاءً وقبعة، وحملت حقيبة ظهرٍ في يدها. أومأت يُومِي برأسها بهدوءٍ ثم دفعت سريرها بعيدًا عن مكانه دون إصدار صوت. طوت السجادة الورديَّة جانبًا وحدَّدت اللوح الخشبي المفكوك، ثم نزعت المِزلاج وفتحت الفتحة، تمامًا كما اعتادوا أن يتدرَّبوا على ذلك في آخر سبتٍ من كلِّ شهر.

قالت يوكو: «سيغضب والدنا كثيرًا».

ردَّت يُومِي: «لا أهتم»، ثم انزلقت إلى داخل الحفرة.

توازنت يوكو على الحافة داخل المزلقة وأغلقت الفتحة فوق رأسها، ثم دفعت نفسها لتنزلق عبر الجدار، نزولًا إلى النفق تحت الأرض. كانت يُومِي أمامها، تشعل إحدى المصابيح التي تحتفظ بها في كومةٍ عند أسفل المزلقة.

قالت يُومِي: «لنذهب»، وهي تعمل على فتح القفل السري. انفتح الباب وسارتا عبر بقية النفق حتى وصلتا إلى السلم وتسلَّقتا إلى الأعلى. انتهت الفتحة إلى كشكٍ فارغٍ في الإسطبل تحت كومةٍ من القش، وبدأت يُومِي بإزاحة القش وهي تخرج، ثم راحت تضحك.

تسلقت يوكو للخروج وعرفت سبب الضحك، إذ كانت كيكو في الإسطبل، مرتديةً ملابس الركوب، وقد جهَّزت فرسها لوسي، ووضعت عليها السرج.

قالت كيكو: «استغرقتم وقتًا طويلًا».

أجابت يُومِي: «حسنًا، يا صغيرتي. نقطة لكِ على المحاولة. يمكنكِ القدوم معنا».

امتطت يُومِي ويوكو الخيول، وانطلقت الفتيات الثلاث باتجاه الغابة، محافظاتٍ على الإسطبلات في مرمى البصر بينهم وبين المنزل.

قالت يُومِي: «استمرِّي يا صغيرة، وإلا يمكنكِ العودة إلى المنزل»، ثم اختفَين بين صفوف الأشجار.

كانت الغابة أشبه بفراغٍ ساحر، وبمجرد دخولهم، أحاط بهم الصمت البارد والظلام، وشعرت كلٌّ واحدةٍ منهن، وبدرجاتٍ متفاوتة، بالارتياح لترك المنزل خلفها، والخوف من التقدُّم نحو المجهول، لكنهنَّ عزمن على الرحيل دون أدنى شك. أظهرت الخيول الصغيرة حماسًا، فالفتيات لم يخرجن من قبل دون والدهنَّ ورفيقه الحصان القديم «باي»، الذي تُرك وحيدًا مع الجواد العامل في الإسطبلات. حتى الأحصنة هايامي، وريفن، ولوسي أدركن أن هذا اليوم مميز. حيث تقدَّمت هايامي، الفرس الكستنائية الخاصة بيُومِي، بثقةٍ، وبدت فرسًا صغيرةً مقارنةً بقامة فارستها الطويلة، لكنها اكتسبت غرور فارستها المبالغ فيه. أما ريفن، بسوادها الشديد إلى الدرجة التي يبدو فيها لونها أرجوانيًّا، فكانت الفرس الخاصة بيوكو. ولوسي، فرس كيكو البيضاء ذات البقع الرمادية، كانت الأكبر سنًّا، والمُدللة الملقبة بـ «طفلة قوس قزح»، إذ اعتادت كيكو أن تسرِّح شعر لوسي الخشن في ضفائر صغيرة، وتُزيِّنها بحباتٍ ملوَّنةٍ بألوان قوس قزح.

امتطت الفتاتان الأصغر سنًّا خيولًا صغيرةً بارتفاع 12.2 شبرًا، أما يُومِي فبلغ ارتفاع فرسها 14.2 شبرًا، لكنها كانت مستعدةً لركوب حصانٍ كبير الحجم، وأحيانًا كان والدها يسمح لها بركوب «باي». لم يُسمح لهن بالذهاب إلى الغابة بمفردهن، بل حُرِّم عليهن ذلك من قِبل الوالد، وعندما يذهبن معه، كنَّ يتدربن على التنقل بين الأشجار، أو البحث عن الطعام. أما في الأيام التي كانت والدتهن ترافقهن فيها، كانت تركب خلف والدهن على ظهر «باي» العريض، وجسدها النحيل منحنٍ على جسده، وكان الشيء الوحيد الذي يهم والدتهنَّ في المزرعة هو جمع النباتات والتوت والجذور والفطر، حيث تجد في المطبخ مجموعاتٍ من الكتب اليابانية والصينية والفرنسية عن فن البحث عن الطعام، وقد صمَّمت والدتهن تطريزاتٍ معقدة للنباتات الصالحة للأكل في غابتهن وعلقتها على جدران المطبخ، أو ثبَّتت مغناطيسًا صغيرًا خلفها ورتَّبتها على الثلاجة وغسالة الصحون.

اقترحت يُومِي: «أريد تسلُّق الجبل».

فردت يوكو: «لن يبحثوا عنَّا هناك».

لكن كيكو اعترضت قائلةً: «تلك ليست أرضنا».

ردت يُومِي وهي تركل مُهرها «هايامي» لتقوده إلى أعماق الغابة: «وما المشكلة؟».

كان الطريق محاطًا بالخيزُران على كِلا الجانبين، وأوراقه تهمس لبعضها البعض بينما الفتيات تتقدَّمن إلى الأمام، وعلى الطريق المرصوف، ولم يُسمع سوى صوت حوافر الخيول وهي تصطدم بالحجارة. سبق وركبت الفتيات خيولهنَّ على هذا الطريق مراتٍ عديدة من قبل، إذ يصعدن مع والدهن إلى الغابة، ثم إلى الجبل، ويدُرن حول المتنزه، حيث يوجد فندقان صغيران خلفه، وبعد المرور بهما،

يصلون إلى النهر. كان اتّباع الماء والابتعاد عن الغرباء جزءًا من الخطة، ومن هناك، يجب عليهم العثور على القارب الصغير الراسي على نهر «هوانغبو». تلك كانت الخطة، ونقطة اللقاء في حالة الحاجة إلى مغادرة المدينة أو البلاد، أو إذا ما فُرِّقوا بفعلِ فوضى كارثةٍ ما. وبمجرد الوصول إلى نهر هوانغبو، يمكنهنَّ أن يستقللن قاربهن الشراعي الكبير الراسي في الشمال، ومن هناك ينطلقن إلى البحر، إلى بحر الصين الشرقي، وصولًا إلى الجزيرة الصغيرة في وسط المحيط الهادئ.

الحقيقة أن والدهنَّ كان قد اشترى حصةً كبيرة في أحد الفنادق، حيث بُنيَ منزلهم، ومزرعتهم، وإسطبلهم، وحتى قن الدجاج، على أرض هذا الفندق. وخلال الأسبوع، كان موظفو الفندق يعتنون بحيوانات الأسرة، ويروُون المحاصيل ويسمِّدونها، وينظِّفون الخيول ويغسلونها.

غطَّت أراضي الفندق الجانب الجنوبي من الجبل المنخفض، أما في القمة، فثمَّة مسكنٌ خاصٌّ آخر. وكانت الفتيات يتجنبن الجانب الشمالي للجبل، المخصص للعامة، والذي يحتوي على مسارات التنزه التي يرتادها سكان المدينة أمثالهم للهروب من روتين نهاية الأسبوع. وفي الأيام الحارَّة جدًّا، تتوجَّه الفتيات إلى الفندق، حيث يعرفهن كل العاملين، وتُقدَّم المشروبات غير الكحولية مجانًا لهنَّ في البار، ويقضين ساعاتٍ طويلةً في السباحة في المسبح. وعندما كان والدهن يشتكي من قضاء يُومِي وقتًا طويلًا في الفندق، كانت تردُّ عليه: «إن أردتنا ألا نستخدم الفندق، فلا تشترِ لنا فندقًا».

بحلول الوقت الذي بلغت فيه يُومِي الخامسة عشرة، كانت قد اعتادت على أن تُراقَب في المسبح من قِبَل الشبان الذين يعملون في الطهي والتنظيف وتقديم مشروبات الكوكتيل غير الكحولية لها. كانت يُومِي ترتدي البكيني، وتستعرض نفسها وهي تضع واقي الشمس على جسدها

شديد البياض، كما تساعد شقيقتيها في وضعه أيضًا. أما يوكو فتقرأ الكُتب في الظل، وتقلِّد كيكو شقيقتها الكبرى، بحيث ترتدي النظارات الشمسية وترشف المشروبات، ولم تخبر أمها أو أباها عن اختفاءات يُومِي في الحمَّام لمدة خمس عشرة أو عشرين دقيقة مع أحد العاملين في الفندق أو أحد عمال الإسطبل.

في المسبح، كانت يُومِي تطفو، ناظرة إلى السماء، والطفو هو ما جعلها تقع في حبِّ السباحة، لا سيما ذلك الإحساس بأن الماء يحتضنها، وبأن الأصوات من حولها تصبح مكتومة. في درس الفيزياء تعلَّمت عن وزن الماء، وكان من المفاجئ لها أن شيئًا رقيقًا كالماء، عندما يتراكم، يمكن أن يصبح ثقيلًا جدًّا. حسبت أن المسبح في الفندق يحتوي على ثلاثين طنًّا من الماء، وبما أن وزن الفيل الواحد يبلغ خمسة أطنان، تخيلت ستة أفيالٍ مكدَّسةً فوق بعضها البعض تملأ المسبح، وهي تسبح بين الأفيال، وتطفو على ظهور الأفيال.

انبهرت كيكو بيُومِي، لكنها كانت تخاف منها قليلًا أيضًا. كان بإمكان يُومِي أن تتغير تمامًا في لحظة، وتتحوَّل من فتاةٍ خجولةٍ ومهذَّبة، إلى فتاةٍ ساحرةٍ ومرحة، أو حتى إلى أختٍ قاسيةٍ للغاية، وأحيانًا تحدث هذه التغيُّرات جميعها خلال ساعةٍ واحدة.

أما يوكو، التي تحملت لسنواتٍ طويلةٍ وطأة غضب يُومِي، فكانت تحافظ على مسافةٍ بينها وبين شقيقتها الكبرى، متى استطاعت. ولكن في بعض الأحيان، عندما تكون يُومِي لطيفةً وصريحةً معها، تجد نفسها تنجذب إليها من جديد، فينفتح قلبها وتتعزَّز آمالها، ليتم سحقها في النهاية، كما يحدث دائمًا.

قادت يُومِي الفتيات صعودًا إلى الجبل على طول المسار الذي انتهى عند السور، حيث توجد لافتةٌ كُتِب عليها: «ملكيةٌ خاصَّة، ممنوع

الدخول». عندما وصلوا إلى هناك، فتحت يُومِي البوابة وأمسكت بها بينما مرت الفتاتان الأُخريان. انتظرتاها حتى تغلق البوابة، ثم أخذت مكانها في المقدمة مرةً أخرى. انتهى الطريق المُعبَّد الآن، واختفت جُدران الخيزران عن الجانبين، أصبحن بمفردهنَّ الآن على الجبل الحقيقي.

قالت كيكو: «دعونا نذهب إلى البيت الموجود في الأعلى». إذ إنها مهووسةٌ بذلك المنزل، كلما صعدوا نحو المزرعة في عطلات نهاية الأسبوع، كانت تشير إليه قائلة: «المنزل!»، أو ربما تقول: «سأعيش هناك يومًا ما. يمكنكم زيارتي إذا كنتم لطفاء معي»، وذات مرَّة قالت: «أعتقد أنه منزلٌ مسكون».

أجابت يوكو: «لكن من المُحتمل أن هناك من يعيش فيه، لا يمكننا أن نقتحمه بهذه البساطة».

ردَّت يُومِي: «لا أحد يعيش هناك. إنه فارغ».

- كيف تعرفين؟

- ذهبت إلى هناك مرة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- مع مَن؟

- بمفردي. لماذا تهتمين؟

- نعم، بالطبع.

- يمكننا الذهاب. أعرف الطريق.

صرخت كيكو بحماس: «أريد الذهاب!» وهي تقفز صعودًا وهبوطًا على ظهر لوسي. إن لوسي لفرسٌ عجوز، وقد اعتادت على تصرفات كيكو الطفولية، من الضحكات المفاجئة، والصراخ، والركلات في بطنها،

كما أنها تتحمل أن تُركب هكذا، بينما تمشي بسلاسةٍ دون أن تتأثّر، وهي تقترب من نهاية حياتها.

قالت يُومِي: «سنلعب في المنزل، وإذا أردنا، يمكننا أن ننصب المخيَّم هناك».

ردَّت يوكو: «هذا يُعتبر اقتحامًا»، لكنها كانت تتحدث مع نفسها مجددًا.

بدأت كيكو بالحديث: «أعتقد أن المنزل سيكون مذهلًا!»، واسترسلت لفترةٍ طويلة وهي تصف كلَّ ما تتخيله في الداخل: بركةٌ مليئة بالضفادع في المدخل الرئيسي، وسلَّمٌ حجريٌّ ملتفٌّ يليق بأميرةٍ (أو ثلاث أميرات!)، وثريَّاتٌ غطَّاها الغبار وبيوت العنكبوت، وعائلةٌ من القطط وأُخرى من الكلاب، وغرفٌ مليئة بالملابس الفاخرة، وقبَّعاتٌ واسعة مثل مراوح السقف، وجدران مزيَّنة بالأحذية، ومسبحٌ مطليٌّ باللون الأخضر الزمردي في قاعِه، وقد امتلأ الآن بالبط والأسماك والسراخس. أما القبو... آه، لم تُرد حتى أن تتحدث عنه، ولا يمكنها حتى أن تتخيَّله، لا أحد يمكنه إجبارها على النزول إلى هناك، فهناك أشياء لا توصف.

رغم أنفسهن، ابتسمت يُومِي ويوكو، ثم ضحكن معًا. شعرن كما لو أنهنَّ عُدن إلى الماضي، قبل أن تذهب يُومِي إلى المدرسة الإعدادية وتكبر، وتبتعد عنهن. حينما كنَّ يجتمعن جميعًا في حوض الجاكوزي الخاص بوالدتهنَّ، يلعبن ويتزحلقن ويصنعن «بكيني» من رغوة الصابون، يغطي أجسادهنَّ الطفولية الصغيرة المُسطَّحَة، الخالية من أي تضاريس أنثويَّة.

سألت يوكو وهي تنظر إلى السماء التي بدأت تظلم: «إلى متى سنبقى هنا؟».

أجابت يُومِي: «هل تحبين المزرعة؟ هل ترغبين في الاستمرار بالمجيء إلى هنا في كل عطل نهايات الأسبوع؟».

قالت يوكو: «لا أعلم. ليست سيئةً إلى هذا الحد».

- هيًّا، إنها الأسوأ. لا أحد يحبها إلا أبي. أمي تكرهها. وأنا أكرهها. كيكو، هل تكرهينها؟

ردت كيكو كما لو أن موافقتها واجبٌ عليها: «نعم، أكرهها».

لتجيبها يوكو: «لا، أنتِ لا تكرهينها. أنتِ تحبينها. تحبين الحيوانات، وتحبين صُنع الملابس مع أمي».

- لا، أنا أكرهها. هل تعانين من مشكلةٍ في السمع؟

ضحكت يُومِي وقالت: «إنَّ مشكلة يوكو أكبر من مجرد كونها مشكلةً في السمع».

ومن يُومِي انتقل الحديث إلى يوكو التي قالت: «أنتِ تريدين المجيء إلى هنا كل عطلة نهاية أسبوع، يا صغيرة. تحزمين حقيبتكِ وتستعدين كل يوم جمعة. وأنتِ من لا يزال يطلب إقامة ليلةِ الألعاب اللوحية يوم السبت».

ردَّت كيكو: «حسنًا، كان ذلك في السابق».

- قبل ماذا؟

- قبل أن أقول الآن.

- أنتِ تقصدين قبل أن تقول يُومِي. أنتِ تابعة، ومزعجة، والأسوأ من كل ذلك، أنكِ كاذبة.

- لستُ كذلك.

- أنتِ كذلك. ولا أطيق هذا.

- وأنا لا أطيق وجهكِ.

- وجهي يشبه وجهكِ، يا غبية. أكره رقصكِ الأحمق على الإيقاع. إنه سيئ.

قاطعتهما يومي، قائلةً: «حسنًا، اصمتي، يوكو. لا أعلم كم من الوقت سنبقى هنا، سنعود عندما نشعر بالملل، أو إذا أمطرت أو حدث شيءٌ ما. لكن يجب أن نوصل رسالتنا. لا ينبغي أن نكون هنا إذا لم نرغب في ذلك».

قالت يوكو: «أنتِ لا تحبين المزرعة. هذا سخيف. سأعود إلى المنزل».

استدارت يوكو برفقة ريفن وبدأت في النزول على الطريق. لكنها عندما ابتعدت عن أنظار شقيقتيها، نزلت من على الحصان وربطته إلى شجرةٍ. كانت الشمس قد غابت وأصبح الطريق أقل وضوحًا مما كان عليه عندما غادرن. كانت واثقةً من مهاراتها في الملاحة. ولكن في الظلام؟

أخرجت يوكو بعض الجَزر من حقيبتها وأطعمته لريفن. ثم أسندت رأسها إلى رقبة الحصان الدافئة وشعرت بملمس شعره الحريري. كانت ريفن أقرب إليها من شقيقتَيها مجتمعتَين. قضت وقتًا أطول وهي تكرههما، وتحسدهما، وتحاكمهما، وتتجادل معهما، أكثر مما كانت تستمتع بوقتها برفقتهما. لكن عقلانيتها ومنطقيِّتها فوق كل شيء، وبناءً عليهما أدركت أن فرص ضياعها ليست بالضئيلة، إنها ستقضي الليلة وحيدة، أما مع شقيقتَيها، على الأقل، ستشعر بالأمان الناجم عن الكثرة.

قالت وهي تهمس لحصانها: «يجب أن نعود، ريفي. لا نريد ذلك، ولكنه شرٌّ لا بدَّ منه». ثم فكَّت الحبل عن الشجرة واعتلت ظهره مرةً أخرى، ووجهته مباشرةً إلى طريق العودة.

لم تبادر يُومِي ولا كيكو إلى التفوه بأي شيءٍ عندما عاودت يوكو الظهور، وقد حمل صمتهما عتابًا وامتنانًا، وارتياحًا وخوفًا. شعرت الفتيات جميعًا بهذه المشاعر وفهمن بعضهن البعض دون تبادُل أي كلمة، وواصلن السير على ظهور خيولهنَّ حتى تعِبن وبدأت الخيول تبطئ خطواتها، لذا ترجلن عن ظهور المُهور، وسمحن لها بأن تشرب من مجرى ماءٍ صغيرٍ، ثم وجدن فسحةً خاليةً من الأعشاب لإشعال النار.

في هدوء الليل، شعرت يُومِي بحضور إيكو، إذ تخيلت أن والدتها توافق ضمنيًّا على هذا التمرد، وفي أوقاتٍ أخرى، كانت يُومِي تشعر بيقينٍ داخليٍّ بأن والدتهنَّ قد تُوفِّيت وتركتهن، ويتكرر لديها هذا الحلم، هذا الكابوس الذي لا ينتهي. كانت يُومِي تشبه والدتها كثيرًا، كأنها نسخةٌ طبق الأصل عنها، إذ لديهما الشعر الطويل الكثيف نفسه، والأنف المستقيم ذاته، والعينان السوداوان نفساهما، حتى الشفاه الرقيقة المتشابهة. كانت بشرتهما بيضاء كالطباشير، بياضًا يبدو كأنه قد يتناثر كالغبار. الفارق الوحيد هو أن وجه إيكو يغزوه النمش في الصيف، وهي سمة تجعل الأم أحيانًا تبدو أصغر سنًّا من ابنتها. في أوقاتٍ أخرى، تشعر يُومِي بشعورٍ غريبٍ عندما تتأمل والدتها، كأنها تنظر إلى نفسها في المرآة.

ربما لأن يُومِي تشبه والدتها إلى هذا الحدِّ، شعرت بأنها تفهم كل آلامها، وكل إحباطاتها، وكل الجدالات المكبوتة مع والدها، كأنها تعيشها بنفسها. لماذا عليها أن تتحمل كل ذلك؟ بالإضافة أيضًا إلى الكلمات التي يُوجِّهها والدها إليها هي نفسها: «يُومِي، عليك أن تعبِّري عن رأيكِ»، «يُومِي، يجب أن تكوني ألطف»، «يُومِي، يجب أن تبذلي كل جهدك في أي شيءٍ تختارينه».

أما هي، فكلُّ ما رغبت بقوله له يتلخص في عبارتين: «لا تزعجني. ابقَ بعيدًا». أحبَّت يُومِي أن تختبر الحريَّة على وسعها في الأيام التي سفر والدها بعيدًا بدافع العمل، أما فيما غير ذلك، فكان دائمًا هناك، يحتلُّ المساحة، ويمتصُّ الضوء مثل ثقبٍ أسود كبير. إذ ينزل عليها بوابلٍ من الأسئلة: «إلى أين تذهبين يا يُومِي؟ إلى الخارج؟ مع مَن؟ من سيقود؟ خذي السائق. متى ستعودين؟» كأن قصفها بالأسئلة كانت طريقته في التعبير عن الحُب، لكنه حبٌّ زائف، لا قيمة له، فلطالما ظلَّت وحيدة، تتولَّى رعاية نفسها بنفسها.

شعرت يُومِي الآن بنظرات شقيقتيها موجَّهة نحوها، تنتظران منها أن تقودهما. كانت تكره عبء كونها الكُبرى، إذ من المُفترض أن تكون الأذكى، والألطف، والأفضل، والأكثر سخاءً، والأكثر اهتمامًا. لكنها ليست كذلك، ليست الأذكى، ولا الألطف، ولا الأفضل، ولم تكن حتى الأجمل بفارقٍ كبير. كرهت يُومِي كونها «الأخت الكُبرى»، وليس شعور الكره هذا طارئًا بفعل الموقف، بل إنه متأصِّلٌ فيها، إذ تمنَّت لو لم تولد أختيها أصلًا، وشعرت برغبةٍ في أن تقول لهما الآن: «ابتعدا»، كما تفعل بالعادة كثيرًا، مرتين أو ثلاث مرات في اليوم، عندما يكنَّ معًا في المزرعة. ولكن إلى أين ستذهبان؟ فالليل يحيط بهن من كلِّ حدبٍ وصوبٍ، وقد توقفت الطيور عن غناء ألحان الشفق، وتولَّت الرياح والأشجار متابعة اللحن.

انتابت يُومِي مشاعر بأنها بعيدة، كأنها في عالمٍ آخر، وفي جسدٍ آخر. أما يوكو، فعلمت أنهنَّ قريباتٍ من المنزل، إذ لا يزلن على جبل المزرعة ذاته، أما كيكو، فلم تستطع التوقُّف عن التفكير في البيت المسكون. هل ستتمكن من الذهاب إليه؟ الآن شقيقتاها في حالةٍ مزاجية سيئة، لا يُسمح لها بطرح الموضوع، هل يمكنها الذهاب وحدها؟ هي ولوسي؟ كم تتشوق حقًّا لرؤيته! وهل سيكون ممتعًا هناك دونهما؟ تخيلت كيكو

نفسها، وهي تتنقل وحدها عبر الغرف الفارغة المهجورة، بدت الغرف مشؤومةً، ومخيفة، وتصاعدت المخاوف الغامضة وانتشرت في الأرجاء، وهي تملأ المكان بوجودٍ خفيٍّ ومقلق.

قالت يُومِي: «دعونا نأكل شيئًا»، فتوجَّه الجميع للعمل بصمت، يجمعون الحطب ويعدُّون دائرة النار. وبعثت الطبيعة الروتينيَّة للمهمة فيهم شعورًا بالراحة. انضمت يوكو إلى أُختيها حول النار. كانت كيكو قد جمعت مكوِّناتٍ لتحضير حلوى السمورز، حيث أخذت الأختان الصغيرتان قطع المارشميلو من الكيس وغرزتاها في أعواد، ثم أمسكتاهما فوق النار.

راقبت يُومِي كيكو وهي تحمِّص المارشميلو، فيتفحَّم تدريجيًّا، وكادت تشعر بطعم الرماد لمجرد النظر إليه، وبطعم الطبقة الرقيقة المتفحِّمة، المُحيطة بالحلاوة اللزجة التي تكاد تكون سائلةً. شعرت برغبة في أن تتناول قضمةً من يد الصغيرة، لكنها بدلًا من ذلك نهضت ومشت إلى حافة المكان الفسيح.

كانت الخيول الصغيرة مربوطةً إلى الشجرة، تحفر الأرض بحوافرها، فبالنسبة إليها أيضًا، هذه أول رحلةٍ تخوضها دون مرافقة باي، وقد شعرت بالسعادة، لكنها سعادةٌ لا تخلو من بعض التيه. تناولت كيكو المارشميلو المُحترق وتوجهت إلى لوسي لتداعب عنقها الناعم، وتشعر بالدفء يتخلل جدائل شعرها المزيَّنة بالخرز، وتركت لوسي تلعق السكر اللزج من على أصابعها.

فكَّرت يُومِي في فريق السباحة، لقد أبقوها في الفريق الثانوي بدافع اللطف على الأرجح، لكنها تدرك أن لا مستقبل لها في المنافسة، وأنها في النهاية ستضطر إلى الانضمام للفريق الترفيهي. حسنًا، سيوفِّر لها ذلك المزيد من الوقت تمنحه لأصدقائها ولدراستها، لكنها شعرت

بالحزن مسبقًا على فقدان الشيء الذي يخصُّها وحدها، فيوكو لديها الرياضيات، وكيكو لديها الرقص. إلى متى ستتمكن الفتيات من التمسُّك بما يخصهنَّ؟ يُومِي تحبُّ السباحة، لكنها ليست بارعةً فيها، وغالبًا ما تحلُّ في المرتبة الأخيرة في المنافسات، إذ لم تكن تمتلك القوة الكافية، ولكنها تشعر أن الماء هو المكان الذي تنتمي إليه، حيث تختبر حدود رئتيها، وإحساسها بالاندفاع عندما تدفع جسدها وهي تنطلق بعيدًا عن الجدار، وتتحرك عبر الماء كرصاصةٍ، أو كصاروخٍ انطلق من غوَّاصة. في بعض الأحيان تجد يُومِي نفسها تفضِّل الماء على اليابسة، بجسدها الذي يدفع ضد ثقل الماء، ولكنه يشعر في الوقت ذاته بانعدام الوزن.

فجأةً خطرت ليُومِي فكرة: بإمكانهنَّ العودة إلى الفندق بدلًا من المنزل، بإمكانهن أن يحجزن غرفةً لليلةٍ واحدة، ويمارسن السباحة في المسبح، هي وكيكو، وإذا أرادت يوكو البقاء في الغابة، فهي أكثر من مرحبٍ بها.

نال الجوع مناله من بطون الفتيات، إذ لم تفكِّر يُومِي في الطعام عندما حزمت أغراضها، بل انحصر تفكيرها كاملًا في الهروب. انبعث صوت القرقرة من معدتها الفارغة، واحتضنت ذلك الشعور بالفراغ، كأنها تحبه وتقدره. كان الجوع اليوم صغيرًا، كعصفورٍ صغير، وهي تشاهد أُختيها تشويان ثلاث أو أربع قطعٍ من المارشميلو دفعةً واحدة على الأعواد، فاض في قلبها حنان الأخت الكبرى المستعدة للتضحية من أجل أخواتها، وحدَّثت نفسها قائلة: «دعي الصغيرتين تأكلان».

ولكن قبل أن تُدرك ما يحدث، وجدت نفسها قد انتقلت حول النار إلى جانب كيكو، وامتدت يدها إلى كيس المارشميلو، وبدأت تملأ فمها. العصفور الصغير بدأ يُطعم، لكنه يُطعم بسرعةٍ كبيرة.

صاحت يوكو: «هيه! اتركي لنا شيئًا!»، بدا صوتها بعيدًا، رغم أنها كانت بجانبها تقريبًا. وقفت يُومِي وسارت نحو الغابة، ووصلت فقط إلى الحد الذي لا تزال تسمع فيه طقطقة النار، وقبل أن تتوقف أفكارها، ويصعد الإحساس المألوف بالحرقان إلى حلقها، سمعت أحدهم يقول: «ستتقيأ».

***

حاولت إيكو الاتصال بالفندق أولًا، لكنها لم تجد الفتيات هناك. لم يسبق أن اضطرت في حياتها كلِّها في الصين إلى الاتصال بالشرطة، حاولت تذكر الرقم، هل هو 110؟ أم 112؟ في اليابان، كان 110. في فرنسا، 17. 120؟ 911؟ هل ستضطر إلى الانتظار لمدة أربع وعشرين ساعة؟ أم ثمانٍ وأربعين ساعة؟ ضربت بيدٍ مرتجفةٍ الرقم 110. ولحُسن الحظ كان الرقم الصحيح. سألها شرطي: «ما المشكلة، سيدتي؟».

- بناتي، إنهنَّ مفقودات.

- حسنًا. متى كانت آخر مرة رأيتهن فيها؟

- هذا الصباح. لا. بعد الغداء، في حوالي الساعة الثانية.

أخذ الشرطيُّ أسماءهن، وأعمارهن، وأوصافهن الجسدية، وآخر مكانٍ شوهدن فيه وكذلك زوَّدته إيكو بوصفٍ للمُهور التي كنَّ يركبنها.

- إذا كنَّ قد أخذن المُهور، فمن غير المُحتمل أنهن ذهبن إلى المدينة. تخميني أنهنَّ يتجهن نحو الطبيعة، ربما صعودًا إلى الجبل. ماذا أخذن معهن؟

أخبرته إيكو عن معدات التخييم: خيمةٌ، وحزمةٌ من الوجبات الخفيفة.

- هل لديهن خبرة في الحياة البرية؟

- بالتأكيد.

- من الجيد أنهن مع بعضهن البعض.

- إنهن ماهراتٌ جدًّا في القتال.

- مثل، الكونغ فو؟

- لا، الجوجيتسو.

توقف للحظة. ثم سألها: «إذًا هل تريدين أن أُرسل فريق بحث؟ أم...».

- نعم، أريد فريق بحث! كلاب. أي شيءٍ لديكم. إذا كان يتطلب الأمر مالًا إضافيًّا، سندفع، لا مشكلة البتة. مروحية. نعم، لماذا لا نطلب مروحيَّة؟ ليس أمامنا الكثير من الوقت لنضيعه!

- سنتولى الأمر فورًا. سنرسل فريقًا إلى منزلكم للحصول على مزيدٍ من المعلومات. أرجو أن تنتظرينا حيث أنتِ.

أغلقت إيكو الخط. ودخل ليو، قائلًا: «أحد الأسلحة مفقود».

***

كم ستكرهه، ولن تسامحه البتَّة إذا حدث أيُّ مكروهٍ للفتيات، فقد استمرَّ في الثرثرة بأسلوبه المعتاد، ذلك الأسلوب الذي سمحت له به طيلة هذه السنوات. حيث يتَّبع طريقة المحاضرة، والحديث، والدرس، بينما تحاول هي كبت غضبها وإسكاته، باذلةً أيَّما جهدٍ في الاستماع، ومحاولة الفهم، مقاوِمةً الشعور بالعبثية والفشل. لن تكون يومًا كافية، وستظل دائمًا مشروعًا قيد التقدُّم، وهي التي تشعر غالبًا بالتعب الشديد لدرجةٍ تمنعها من المواجهة، كانت قد وصلت إلى حدها في ذلك المساء. لا أحد غيرها سيطبخ العشاء، لا أحد سيخطر بباله حتى التفكير في إعداد العشاء إلى أن يصبح الوقت متأخرًا، وكانت الساعة تقارب

الخامسة، والشمس منخفضةٌ في السماء بين الأشجار المنتصبة بفخرٍ خارج النافذة خلف زوجها الغاضب، وقد وقفت هي، صامتةً وفخورة، مثل تلك الأشجار. ستغرب الشمس قريبًا على هذا الجدال. وبسبب ماذا؟ بسبب أنها لم تلف ملابس السباحة المبلَّلة لفًّا مناسبًا، فأصبح نصف الملابس في سلة الغسيل رطبًا، وجفَّ الآن على الشرفة. وهذا، على ما وجده ليو، على ما يبدو، دليلًا على نمطٍ طويل الأمد: أسلوبها العشوائي والمتهاون، وعدم قدرتها على عيش حياةٍ مثالية.

حاولت إيكو أن تبقى هادئة، رغم اتهاماته، ورغم التعميمات التي لا مفرَّ منها حول عيوب شخصيتها، ورغم السرد المُرهِق لمحاولاتها تحسين نفسها على مر السنين وتقييمها. لكنها ذكرت العشاء، ثم أعادت ذكْره مرةً أخرى، وهي تعلم أن ذلك يزعجه، فما يريده ليو ليس إشارةً إلى ضرورة إنهاء الجدال للالتفات إلى المهام الأخرى، رغم أن هذا الجدال استمرَّ لأكثر من أربع ساعات، بل يريد اعترافًا بصواب رأيه، وحوارًا حول احتمالية التغلُّب على هذا العيب الشخصي، ومن ثم ضمانًا للسعادة، ووضْعِ برنامجٍ من ثلاث خطوات للمحاسبة. ولكن إيكو لم تمنحه ما يريد، بل اكتفت بأن قالت بهدوء: «سينال مني الجنون مناله إن لم تدعني أبدأ بتحضير العشاء». وبطبيعة الحال، صعَّد قولها من حدَّةِ غضبه، ومن خيبة أمله، ومن مطالبه أيضًا، لذا فتحت إيكو خزانة المطبخ، وأخرجت الأواني الخزفية واحدةً تلو الأخرى، ورمتها على الأرض لتتحطَّم بفِعل هشاشتها الشديدة.

***

عند ذكره للمسدس، اندفعت إيكو إلى العمل، إذ بدأت بحزم أمتعتها، استعدادًا للمغادرة. كان ليو يحوم حولها، ووقف في الباب قائلًا: «لا

تغادري هذا المنزل. إن غادرتِ الآن، فاعتبري قراركِ هذا نهايةً لزواجنا، فأنا لن أتقبَّل فعلتكِ، ولن أسامحكِ».

أدارت إيكو بصرها عن حقيبتها التي كانت تحزمها بشقِّ النفس، وقد شعرت بشيءٍ قويٍّ يجذبها للمغادرة، شعرت بقرار بناتها بالرحيل يجذبها مناديًا إياها من بعيد، ولم تستطع المقاومة. فقالت: «لقد طلبت منِّي أكثر مما أستطيع تحمُّله. هذا يكفي، لقد طفح الكيل».

ثم اندفعت متجاوزةً إيَّاه، وهي تُغادر المنزل.

***

عندما دخلت إيكو الغابة، عاد إلى ذاكرتها ذلك الوقت الذي فقدت فيه يُومِي، عندما كانت ابنتها تُقارب السنتين من العمر. حدث الأمر في المركز التجاري، حيث كانتا تتجولان في قسم البقالة بالطابق السفلي. في لحظةٍ كانت إيكو تمدُّ يدها لأخذ عبوة بيتزا مجمدة ويُومِي واقفة بجانبها، وفي اللحظة التالية اختفت يُومِي، ولم يعد لها أثرٌ في قسم المجمدات.

ركضت إيكو صعودًا ونزولًا بين الممرات القريبة، ثم ذهبت إلى أمين الصندوق وقالت: «أرجوكم أرسلوا رسالة»، لم تكن لغتها الصينية جيدة، لكنها استطاعت أن توصل ما تريد. وجاء في الرسالة المُذاعة: «يُومِي يانغ، يُومِي يانغ. من فضلك تعالي إلى منطقة المحاسبة. والدتكِ تبحث عنك».

ثم أظهرت للموظف عدَّة صورٍ ليُومِي ووصفت له ملابسها: فستانٌ مزيَّنٌ بالنحل، وشُجيرات التوت البرِّي، أما شعرها فمعقودٌ في ضفيرتين، وغرتها تنسدلُ فوق عينيها.

كادت إيكو أن تبكي وهي تصف ابنتها، وربما يعود السبب في ذلك إلى كونها في مراحل مُتقدِّمةٍ من الحمل، وهرموناتها متقلبةٌ. فكَّرت في احتمال فقدان طفلتها الأولى وهي على وشك إنجاب الثانية، سيكون ذلك أشد الأوقات حزنًا، بدلًا من أن تكون أكثر اللحظات سعادةً. ما كلُّ ذلك؟ أهو مأساةٌ؟ أم أنه سخرية القدر؟ لم تستطع أن تجد الكلمة المناسبة. عاشت إيكو، بطبيعة الحال، بين لغتين، وها هي الآن قد مرت عليها بضع سنواتٍ في الصين. كانت مفرداتها في اللغات جميعها ضعيفةً، تتداخل مع بعضها البعض، وتستبدل بعضها بالآخر. أما يُومِي، فكانت تتحدث الصينيَّة بطلاقة، وهي لغتها المفضَّلة، التي تستخدمها مع الخادمة، ومع والدها، ومع أصدقائها في الحضانة.

وضعت إيكو هاتفها جانبًا وأخبرت الموظف: «إذا جاءت، أبقوها هنا. سأبحث عنها أنا أيضًا».

أجاب الموظف: «لكِ ذلك، وسأخبر إدارة المركز التجاري، في حال غادرت قسم البقالة».

صرخ أمين صندوقٍ آخر قائلًا: «الكاميرات!»، ثم اندفع الثلاثة إلى غرفةٍ جانبية -هي في الحقيقة مجرد خزانة- مليئةٍ بالشاشات.

تفحَّصت إيكو الشاشات بسرعة، باحثةً عن الفستان المزيَّن بالنحل وشجيرات التوت البري، وانتقلت من قسم الشوكولاتة والحلوى، إلى قسم الحبوب، وقسم الآيس كريم، وهي الأماكن التي تحبِّها يُومِي. وفجأةً رأت العلم الأحمر الصغير الخاص بعربات تسوُّق الأطفال، بارزًا على عموده، كانت يُومِي تقف في قسم المأكولات البحرية الطازجة، تُحدق إلى سمكة جروبر ضخمةٍ. وصلت إيكو إلى قسم المأكولات البحرية قبل أن تدرك ذلك، وقد سلكت الطريق الأسرع دون أن تشعر، واكتشفت أنها

قد حفظت تفاصيل المتجر أكثر مما تظن. لقد مرَّ عليها وقتٌ طويل وهي تعيش هذه الحياة.

وجدت إيكو يُومِي في المكان نفسه الذي رأتها فيه على الشاشة، وكانت عربتها مملوءةً بالحلوى والشوكولاتة، مما يعني أنها بالفعل قد زارت ممراتها المفضلة أولًا. ركضت إيكو نحوها واحتضنتها بشدة، قائلةً: «يا صغيرتي. أين ذهبتِ؟ لماذا تركتِني هكذا؟ لم تكن ماما تعلم أين أنتِ. أرجوكِ لا تفعلي ذلك مرةً أخرى».

أجابت يومي: «ماما، قلت لكِ مرارًا إنني أريد أن أختار بعض الشوكولاتة».

- هل قلتِ ذلك، يا حبيبتي؟ لم أسمعكِ. أنا آسفة.

- أنتِ لم تسمعيني، ماما.

- آه، يا حلوتي، سأستمع جيدًا. ولكن لنعد إلى البيت الآن.

اشترت إيكو كل الحلويات التي وضعتها يُومِي في عربتها. وفي المنزل، بينما كانت يُومِي تلعب بسعادةٍ مع مربية الأطفال، جلست إيكو تفكِّر فيما كانت تفعله وتفكر به حين لم تسمع طلبات يُومِي المتكررة للشوكولاتة. لقد تركت ذهنها يَهِيم، وعقلها يشرد في رغبتها بالحصول على وظيفة. كانت تتساءل عن الاختلافات التي ستطرأ على حياتها لو وجدت عملًا، بدلًا من كونها مجرد أُم. هل ستكون هي نفسها مختلفة؟ هل ستتغير علاقتها بليو؟ ماذا عن علاقتها بنفسها؟ كانت تفكر، وهي تمدُّ يدها لتأخذ تلك البيتزا المجمدة، بأن حياتها ربما ستكون أفضل لو أنها امرأةٌ عاملة، وبالتالي مستقلِّة، وقويَّة، وقادرة.

والآن، ها هي تفقد بناتها مرةً أخرى. هل رحلن حقًّا؟ هل ضِعن أو تعرضن لهجومٍ أو اختُطِفن؟ ضجَّت المأساة في أحشاء إيكو، ومع ذلك تحركت بسرعة، تدفعها قوةٌ لا تقاوَم نحو ظلام الغابة. لم يعد أي شيء

يهم، حتى فكرة انهيار زواجها، ذلك الخوف القديم والمألوف، لم يعد يثير فيها شيئًا، فبناتها مفقوداتٌ، لقد فُقِدن!

صرخت إيكو في الظلام: «يُومِي! يوكو! كيكو!» كم مرة نادت على بناتها هكذا، بهذه الطريقة، وبهذا الترتيب، من الكبرى إلى الصغرى؟ تذكرت أيامهنَّ الأولى، تلك الأيام الجميلة المليئة بالذكريات السعيدة، حين كان ليو يحملهنَّ ويرميهن في الهواء كالدُمى. ولكن الفتيات الآن في الغابة، والخطر يحدق بهنَّ من كلِّ حدبٍ وصوب، وهي تعرف ذلك، إذ إنها تعرفهنَّ كما تعرف نفسها.

***

غرقت غرف المنزل بالظلام الدامس، باستثناء زاويةٍ في غرفة المعيشة، حيث جلس ليو في كرسيه، مُحاوِلًا قراءة كتابٍ عن معركةٍ ما حدثت خلال الحرب العالمية الأولى، وكان مضطربًا، غيرَ قادرٍ على التركيز.

أما إيكو فغادرت، تاركةً إياه وحيدًا في المنزل مُتشبِّثًا بموقفه. لم ترغب إيكو في الجلوس معه، منتظرةً عودة الفتيات إلى المنزل، بل أرادت الاتصال بالشرطة، أما هو فلم يُرد ذلك، إذ كان واثقًا من مهاراتهنَّ في النجاة والبقاء على قيد الحياة في الغابة. سألته إيكو: «أأنت واثقٌ أيضًا من مهارات كيكو حتى؟»، نعم، لقد منح ثقته حتى للطفلة الصغرى، بل باعتقاده، ربما تكون الأذكى بينهنَّ جميعًا. أما بالنسبة إلى السلاح، فبرأيه ليس بالشيء الذي يستدعي القلق بشأنِه، رغم أن إيكو لم توافقه الرأي في هذا الصدد. وبينما كانت تحزم حقيبتها، راح يتبعها من غرفةٍ إلى أخرى، مُتحدِّثًا بصوتٍ انتقلت نبرته من الحزم تدريجيًّا إلى الغضب، مؤكدًا أنه لن يشاركها في مغامرتها، مُعربًا عن وجهة نظره التي تُمكِّنه من لومها لارتكابها خطأً يتمثل في كثرةِ دلالها للفتيات.

قالت له، وعيناها تشتعلان غضبًا: «إنهنَّ بناتي». لكنه ردَّ عليها بقوة: «أحقًّا هنَّ بناتك؟ ألسن بناتي أيضًا؟»، ثم أخبرها أنه لا يجب عليها مغادرة المنزل، لكن إيكو ألقت حقيبتها على كتفها واندفعت خارج الباب.

أصبح ليو الآن وحيدًا، والوحدة هي أكثر ما يكره في الكون بأسره. جلس بجوار المصباح الوحيد المُضاء يصارع نفسه، الجميع قد غادروا، وإيكو... إيكو ستجعل الأمور أسوأ. هل أخذت حصانًا حتى؟ وإن كانت قد أخذت واحدًا، هل تذكرت خوذتها؟ لقد سقط هو عن الحصان مرةً في فرنسا، وإلى اليوم ما يزال ظهره يؤلمه في الأيام الممطرة.

كان متأكدًا أن الفتيات قد أخذن خوذاتهن، لكن الآن مع هذا السؤال الذي يُلِحُّ في ذهنه، اضطرَّ إلى قصد الإسطبلات فقط ليتأكد، لأنه إن تجاهل حاجته الملحَّة للتأكُّد، سيظلُّ يفكِّر في الأمر طوال الليل، ولن يستطيع النوم. اللعنة! عليه أن يذهب، أليس كذلك؟ فهو يعرف المسارات أفضل من أي شخصٍ آخر، ويتمتَّع بأفضل مهارات الملاحة في العائلة، أما إيكو فلا تعرف يمينها من يسارها. جمع أشياءه وخرج من الباب، لكنه بعد أن قطع نصف الطريق إلى الإسطبلات، بدأ يركض.

الجميع الآن على الجبل: الفتيات كنَّ يجمعن نيرانهنَّ قُرب القمة، ووالدتهن تشقُّ طريقها على المسار سيرًا على الأقدام. أما ليو فيستعد لركوب حصانه باي على جناح السرعة، سيجدهنَّ، سيجدهن قبل أن تجدهن هي.

***

اقترحت يُومِي على أختيها: «أظن أنه من الأفضل لنا أن نعودَ إلى الفندق».

لتردَّ يوكو: «سيجدوننا في الفندق».

- نعم، لكن إقامتنا هناك ستكون مريحة، وسنحظى ببعض الوجبات الخفيفة.

- لقد تقيأتِ للتو وجباتكِ الخفيفة. يبدو أنكِ لم تريديها.

نظرت يُومِي إلى أختها بما وصفته يوكو لاحقًا، بلا مشاعر، بأنه «نظرة الموت»، وقالت: «كيكو، ابدئي بحزم أشيائك».

لكن يوكو نهرتها، قائلةً: «لا، كيكو. سننتهي هنا ثم نواصل صعود الجبل، لنتجه إلى المنزل الفارغ».

قرَّعتها يُومِي، قائلةً: «يا إلهي، أنتِ غبيةٌ للغاية».

سألت يوكو: «أهذا أفضل ما يمكنكِ قوله؟ لا تعدي الصغيرة بشيءٍ، ثم تُغيِّري رأيكِ فجأة».

- منذ متى أصبحتِ متحمسةً بشأن المنزل؟

- أنا لست متحمسةً. لكن إن قلت إني سأفعل شيئًا، فسأفعله.

قالت كيكو، وهي تقفُ بجانب لوسي، منهمكةً في تشبيك ضفائرها معًا: «لا يهم، هذا لا يهمُّني».

لتردَّ يوكو: «بل يهمك يا كيكو، لا تكذبي. لا تكذبي! أكره عندما تكذبان، كلاكما. أنتما كاذبتان قذرتان!».

جاء دور يُومِي لتتكلم، وتقول: «لم يكن هذا أمرًا مقدسًا، يوكو. استرخي. أعني، أعرف أنكِ تجدين صعوبةً في «الانتقالات»، أو أيٍّ كان ما تسميه السيدة إيفانز. لكن عندما نقول إن الأمر ليس مهمًا، عليكِ أن تتقبَّلي ذلك».

سألت يوكو: «ماذا؟ السيدة إيفانز؟».

نعم، الجميع يعرف أنكِ، نوعًا ما، متأخرةٌ عقليًّا. سمعت السيدة إيفانز تتحدث مع أمي عنكِ في ذلك اليوم، عندما أتت لتأخذني من المدرسة.» سيطِر الهدوء على يُومِي الآن، وهي تستمتع بإيذاء أختها. ولم تنتظر ردَّ يوكو، بل أضافت: «تعرفين، حالتكِ العقليَّة».

نظرت يوكو إلى أختها، وقد تمكَّنت منها الكراهية، وقالت: «كيف يمكن لشخصٍ ما أن يولد بهذا القدر من الشر؟».

- ما عليكِ سوى أن تأتي معنا إلى الفندق.

- لا. سأذهب إلى المنزل.

- حرِّكي نفسكِ وامتطي حصانكِ ريفن. أنتِ تعلمين أنكِ ستتبعيننا في النهاية، دعينا نتجاوز هذه الهراء وننطلق.

- سأخبر أمي وأبي بما تفعلينه في الفندق.

- لا، لن تفعلي.

- نعم. سأخبرهما مع من تهربين. أتذكَّرُ كلَّ واحدٍ منهم بأسمائهم، فقد قرأت بطاقات أسمائهم. وسأتسبَّب بطردِهم من وظائفهم أيضًا.

- افعلي ذلك، وسأقتلك.

- لا، ليس بمقدوركِ ذلك.

نظرتا إلى بعضهما البعض، وشعرت يُومِي بذلك، بالكراهية، وبقوتها. لكنها لن تتراجع، بل ستأخذ الأمر إلى نهايته.

- لست مهتمَّةً بسماع كلام شخصٍ متوحِّدٍ مثلكِ.

ضيَّقت يُومِي عينَيها. نعم، لقد قالتها.

كانت يوكو تتنفس بصعوبة، وهي تقول: «أنا لستُ...».

- هيًّا. الجميع يعرف ذلك، ولكنهم يبقون أفواههم مُغلقة. لا أعلم، ربما ليكونوا لطفاء، أو شيئًا من هذا القبيل. لكنكِ معتوهة.

حاولت كيكو أن تواسي أختها، قائلةً: «لا بأس. لستِ سيئة جدًّا، يوكو».

رمقتها يُومِي بنظرةٍ حادَّة، فأخرستها. وعادت كيكو للعب بشعر لوسي، بينما تابعت يُومِي إهانتها لأختها: «إنكِ لغيورةٌ حسودة، على أي حال، لا يوجد فتى بعقله السليم سيرغب بكِ».

حدقت يوكو إلى أختها، مدركةً أن كلامها هذا ليس صحيحًا، ففي الشهر الماضي، على ما يبدو، قال دوغ فريلاند لأصدقائه في حفلة لعبة الليزر إنه يحمل إعجابًا سريًّا تجاهها. وبالتالي دافعت عن نفسها في وجه يُومِي، ودحضت ادعاءها، بقولها: «إن دوغ فريلاند معجبٌ بي».

- أوه، حقًّا؟ دوغ؟ لقد قبلني في الحافلة بعد مباراة السباحة الأسبوع الماضي.

- لا أصدقكِ.

- كان عليه أن يخلع الأربطة المطاطية من تقويمه قبل أن نتبادل القبلات. أعني، اسأليه بنفسكِ. لم أعد أريده أن يلاحقني على أي حال، يمكنكِ أن تأخذيه، فرائحة فمه مقززةٌ عن قُرب.

ليست يوكو من الفتيات اللواتي يشغلن وقتهنَّ واهتماماتهن بالفتيان، وقد سمعت عن إعجاب دوغ بها من خلال خيمينيا وياسمين، إذ كانت تختبئ في الحمام في أثناء الغداء عندما سمعت الفتاتين تتحدثان عند المغسلة. وقالت خيمينيا ضاحكةً: «إنه يراها جميلة»، وعندما غادرت الفتاتان الحمام، خرجت يوكو من المقصورة ونظرت إلى نفسها في المرآة، كما لو أنها ترى انعكاسها لأوَّل مرة. ثمَّة فتى يجدها جميلة.

لطالما ردَّدت والدتهنَّ على مسامعهنَّ أن يوكو جميلة، بل وأكَّدت أنهن جميعهنَّ جميلات. كانت تقول ذلك تقريبًا كل يوم، كأن هذا التأكيد أصبح عادةً بالنسبة إليها، كما لو أن الجمال هو الشيءُ الوحيدُ الذي يهُم، كما تذكر لهن أن أيًّا يكن من يقابل الأخوات الثلاث، فأوَّل ما يُعلِّق عليه هو جمالهن، هل كان من النادر إحصائيًّا أن تكون ثلاث فتياتٍ جميلاتٍ معًا؟ لقد سمعت يوكو هذه الكلمة مرارًا وتكرارًا طوال حياتها، حتى بدأت تفقد معناها. لكن أن يُعرِب فتًى عن إعجابه بجمالها، فذلك شيءٌ جديدٌ بالنسبة إليها. والآن، ها هي يُومِي تسلبها هذا الشعور.

قالت يوكو: «أنتِ عاهرة».

- نعم، حسنًا، العاهرة أفضل من المعتوهة.

- لست معتوهةً. أنا موهوبة.

توقفت يوكو عن الكلام للحظةٍ، ثم استرسلت قائلةً: «على عكسكِ. أنتِ فاشلةٌ في كلِّ ما تفعلينه».

رأت يوكو أن كلماتها أصابت الهدف، فتماسكت استعدادًا لهجومٍ مضاد، لكنها أدركت على نحوٍ مُفاجِئ أن أختها -ولو بالتسمية فقط- ليست ماهرةً، ولا مُبتكِرة، بل وغير قادرةٍ على استخدام الكلمات اللاذعة كما هي نفسها. لقد وجَّهت ضربةً حاسمة، وكلُّ ما سيأتي بعد ذلك مجرَّد تفاصيل.

- أُفضِّل أن أكون متوسطة الذكاء على أن أكون معتوهة.

- أنتِ تكرِّرين نفسكِ. هذا مُمل.

- لن تحظي أبدًا بحياةٍ طبيعية. لن تنالي حبيبًا البتَّة، ولن يكون لكِ حياة. لن يحبكِ أحد.

- أنا وأبي ذكيّان، أما أمي وكيكو فموهوبتان. ماذا عنكِ؟ أنتِ لا شيء.

شعرت يوكو بأن الخيط غير المرئي بينهما، بينها وبين أختها الكبرى، قد اشتدَّ، وجذبها، رغم إرادتها، نحو يُومِي، نحو الألم. لماذا؟ كان الخيط بينها وبين كيكو دائمًا أرخى، وأكثر مرونةً. شعرت يوكو بحرارة الغضب والحزن، وحتى بالقليل من الحب، تحترق في تلك الصلة بينهما. لو أن هناك مساحةً أكبر، بينهما، وحولهما. أرادت يوكو بشدةٍ أن تقطع ذلك الخيط، أن تحرِّر نفسها. لكن كيف؟

- مُتخلِّفة

- لا تناديني هكذا.

- مُتخلفة، مُتخلفة، مُتخلفة.

استدارت يُومِي كأنها تنهي الحديث، كأن النقاش لم يعُد يستحق المتابعة. مدت يوكو يدها إلى حقيبة أختها وأخرجت المسدس الذي رأتها تحزمه في وقتٍ سابق. وجهته نحو ظهر يُومِي، وقالت: «ناديني هكذا مرةً أخرى». كانت كيكو إلى يسار يُومِي، ولوسي إلى يمينها. صوَّبت يوكو المسدس بعيدًا قليلًا عن يُومِي، بين أختها والفرس العجوز.

قالت يُومِي وهي تلتفت جزئيًّا فقط لتنظر إلى أختها، كأنها لا تبالي بالمسدس: «لن تجرئي على ذلك. ضعيه جانبًا».

لكن يوكو أبقت المسدس مرفوعًا، أرادت إخافة يُومِي، أرادت أن تضع حدًّا لكل الكلمات القاسية، ولكل الكراهية. حتى عندما كنَّ صغيرات، كانت فكرة يُومِي عن التسلية تتمثَّل في مطاردة يوكو ودغدغتها حتى تصير حمراء من البكاء، لاهثةً، تشهق لإدخال الهواء إلى رئتيها. كانت مشاعرها، وحبها، دائمًا مختلطَين بالألم.

قالت يُومِي: «أيتها العديمة النفع، أنتِ لا تعرفين حتى كيف تُطلقين النار»، ثم صرخت: «افعليها أو لا تفعليها، فقط لا تقفي هناك كالبلهاء!».

أغمضت يوكو عينيها وضغطت على الزناد. عندما فتحت عينيها مجددًا، بعد أن استبدلت القوة التي اجتاحت جسدها كلَّ الأصوات بطنينٍ حادٍّ، رأت الصغيرة تجري نحو لوسي، التي انهارت على الأرض.

تردَّد صدى الصوت، وصرخت كيكو: «النجدة! النجدة! فرسي! لوسي! ماذا فعلتِ؟ يوكو، لقد أطلقتِ النار على لوسي! إنني أكرهكِ، أكرهكِ!».

وضعت كيكو يديها الصغيرتين حول رقبة لوسي، وقد غرقتا بالدم. لدى الفتيات ثلاثتهنَّ معرفةً جيِّدةً بالإسعافات الأوليَّة، وبالتالي خلعت كيكو بنطالها لتلفَّ ساقيه حول عُنق لوسي الجريح. راقبت يوكو أختها الصغيرة، بعد ان أسقطت البندقية، أما يُومِي فوقفت في مكانها، وهي في حالةِ صدمة.

أعاد اهتزاز الأشجار اليقظة إلى الفتاتين الأكبر سنًّا، تواصلت يُومِي ويوكو بالعينين، واقتربت يُومِي أكثر، ثمَّ نظرتا مرعوبتين إلى الأوراق التي تُصدر حفيفًا، وهما واقفتان جنبًا إلى جنبٍ تقريبًا، وفجأةً خرج والدهما من بين الشجيرات.

وهكذا وصل ليو أولًا، وحاول استيعاب المشهد بأكمله: لوسي ملقاةٌ على الأرض، لا تتنفس، لقد فارقت الفرس العجوز الحياة، وكيكو، بملابسها الداخلية، ممدَّدةٌ على رقبة الفرس، بينما وقفت يوكو ويُومِي، وبينهما مسدس من نوع «سيغ ساور» مُلقى على الأرض. لم يستطع أن ينطق سوى بكلمةٍ واحدة: «بنات»، وقد حملت هذه الكلمة معانٍ عديدةً: تصريحٌ، وسؤالٌ، وتوبيخٌ، وتوسُّل.

- بنات.

كانت كيكو تبكي بصوتٍ عالٍ، وهي في حالة فوضى دامية، ونادته: «أبي!». أما يُومِي ويوكو فلم تقولا شيئًا.

- هيَّا يا بنات، دعونا نعود إلى المنزل.

صرخت كيكو: «لن أترك لوسي!»، وقالت يُومِي: «لن أعود إلى المنزل». خطا ليو خطوةً نحو الفتيات، ولكن يُومِي انحنت لالتقاط المسدس ووجهته نحو صدره. فقال: «حسنًا. حسنًا. اهدئي، يُومِي».

من بين كل السيناريوهات التي جالت في ذهنه، لم يكن قد حضَّر نفسه لهذا الموقف، بل لم يجرؤ خياله على الإتيان بشيءٍ مثله. وتساءل مع نفسه: «أين هي إيكو؟».

صاحت يُومِي: «غادروا أنتم! اذهبوا إلى المزرعة اللعينة. لن أذهب. أنا أكرهكم. أكرهكم جميعًا. أكره هذا المكان».

جاوبها ليو: «يُومِي، دعينا نتحدث عن الأمر».

كانت كيكو قد توقفت عن البكاء، والمسدس يرتجف بين يدَي يُومِي، التي قالت: «نتحدث؟ كل ما تفعله أنت: الحديث! أنت لا تهتم بما أقوله. لا تستمع أبدًا. كل ما يهمك هو نهاية العالم. لن تهتم حتى لو أطلقت النار على نفسي وفجَّرتُ رأسي».

رفعت يُومِي المسدس إلى رقبتها، مُوجِّهةً إيَّاه إلى أسفل ذقنها. قال ليو، وهو يمدُّ يديه أمامه: «يُومِي، ضعي المسدس جانبًا»، ثم ارتفع صوته، وتفاقم غضبه، وهو يأمرها: «ضعي المسدس!».

- مَن تظنُّ نفسكَ؟

صرخَ بقوَّة: «يُومِي يانغ!».

وقطع جدالهما صوتُ صرخة. إذ وضعت يوكو يديها على أذنيها، وأغمضت عينيها، وراحت تطلق الصرخة بعد الصرخة، صرخاتٌ طويلة، وحادَّة، وتتخللها أنفاسٌ مُتقطِّعة.

هل سيتركهم إلى الأبد؟ كانت يوكو تراقب يُومِي وهي توجِّه المسدس نحو والدها، وتتخيَّل حياتها دونه. لا أبٌ، ولا حليفٌ، ولا أحد يفهمها. فليو هو الشخص الوحيد الذي أخبرته عن الخيط، ذلك الخيط الذي يربط العالم كلَّه معًا، وكانا يتبادلان المزاح بشأنِه، بل وحوَّلا الفكرة إلى نظرية، أطلقا عليها اسم «نظرية الخيط»، أو أحيانًا «نظرية خيطنا»، وهو الاسم الذي تُفضله يوكو أكثر.

عندما أخبرته عنه، كانت يائسة، إذ مضى على محافظتها على تلك الخيوط مترابطةً في ذهنها مدَّة تقارب العشر سنوات، تمشي على الطرق نفسها، وتحاول التأكُّد من أن الخيوط المربوطة بها وبعائلتها لا تتشابك كثيرًا أو تتعقَّد، وإلَّا سيتعين عليها فكُّها واحدًا تلو الآخر في ذهنها. كان عليها أن تجعل الخيوط تتداخل على نحوٍ جميلٍ فوق بعضها أحيانًا، وأحيانًا تحتها، وفي بعض الأوقات تشبكها ببعضها كي لا تنهار. وفي بعض الأماكن، كانت طبقات الخيوط كثيفةً لدرجة أنها شعرت بأنها قد تستطيع المشي فوقها. خيوطها، وخيوط شقيقاتها، وخيوط والديها، وكذلك خيط المنزل، والحمام، والمطبخ. تذهب وتعود إلى المدرسة، تذهب وتعود إلى المزرعة، كانت مُنهكة.

بعد أن أخبرته عن الخيوط، قال لها إنه هو الآخر اعتاد أن يفكِّر بالخيوط بهذه الطريقة في شبابه! بل كان أكثر صرامة، حيث لا يمكن أن يمرَّ شخصٌ أو كلبٌ أو طفلٌ في الشارع فوق الخيط، وأحيانًا كان يضطر إلى العودة لتحرير الخيط إن علق بكاحلَي أحد المارة. عندما قال لها ذلك، شعرت بأن الخيط الذي يربطها به قد ازداد إحكامًا، وازداد

سُمكًا، وأصبح غير قابلٍ للانقطاع. ورغم ذلك، كان خيطًا غير مرئيٍّ، لا أحد سواهما يستطيع رؤيته، وقد جعلته يوكو يقسم على حياته ألا يخبر أحدًا، ولا حتى والدتها.

على مدى السنوات الماضية، عمل والدها معها على أن تتخلى عن الخيط تدريجيًّا، قال لها إنه إذا لم تفعل شيئًا، فإن العالم لن ينهار. لم ينكر وجود الخيط، ولم يقل لها أن تسترخي، بل أوضح لها أن الخيط يمكنه تدبير أموره بنفسه. عليها أن تحاول وضع ثقتها في الخيط. لقد وُجد قبلها، وسيظل موجودًا بعدها.

بدأت يوكو تتراخى تدريجيًّا على مر السنين، رغم أن هناك لحظاتٍ لا تزال تعتقد فيها أن الخيط سيقودها إلى الجنون، من أمثلة ذلك عندما أقامت كيكو إحدى حفلاتها الراقصة، واضطروا إلى الجلوس في مقاعد الجمهور بين العديد من الناس الذين يتحركون باستمرارٍ في مقاعدهم، ويقفون لالتقاط الصور، ولم يكن هذا أسوأ جزءٍ. بل تمثَّل الجزء الأسوأ في حركة كيكو وهي تضرب الأرض بقدميها على إيقاعاتٍ مُعقَّدة، وتدور وتقفز وسط جمعٍ من الراقصين الآخرين، الذين يتشابكون جميعًا في خيوطهم.

رأت يوكو مسار الرصاصة التي لم تُطلق بعد وهي تراقب يُومِي في أثناء توجيهها المسدس نحو والدها، وأدركت أنها ستتَّجه مباشرةً نحو صدره، وأن الرصاصة ستحمل خيطها الخاص، وهو خيطٌ سيفكِّكُ العديد من الخيوط الأخرى، ويجعل خيط والدها يرتخي دفعةً واحدة، مما سيسحب يوكو نفسها إلى دوامةٍ لا تعرف متى قد تنتهي، وأسوأ ما في الأمر، والمأساة الأكثر سخرية، هي أنها هي بالذات من بدأت بفكِّ هذا الخيط، وهي من أطلقت الرصاصة الأولى. وها هي لوسي ملقاةٌ على جانبها في بركةٍ من الدماء. يوكو فعلت ذلك، هي من بدأت هذه

السلسلة من الأحداث. وبالنسبة إلى يوكو، كان هذا عبئًا يفوق قدرتها على التحمل. عبء الخيوط، وانهيار النظام بأكمله. شعرت كأن رأسها يحترق من الداخل.

عندما وصلت إيكو إلى الساحة، كانت يُومِي ترتجف، والمسدس يهتزُّ في قبضتها. كانت ترتعش بشدةٍ لدرجة أنها بالكاد تستطيع الإمساك به. أما يوكو، فكانت ملتفَّةً على نفسها على الأرض ككُرة. قالت يُومِي لوالدها: «أريدكَ أن تذهب بعيدًا. فقط اتركنا وشأننا».

فأجابها: «حسنًا، سأذهب».

صرخت: «اذهب! الآن!».

بدأ يتراجع ببطءٍ، خطوةً بخطوة، خارج الساحة، رافعًا يديه فوق رأسه، كما لو كان مجرمًا، أو مُذنِبًا. وقفت إيكو تشاهد ليو وهو يبتعد، حتى كاد يختفي بين الأشجار الكثيفة.

لم تذهب الفتيات إلى المزرعة مرةً أخرى. وعدهن والدهنَّ بجلب مجموعةٍ جديدةٍ من الخيول الصغيرة. وقال إنهن لن يكنَّ بحاجةٍ إلى تعلم مهارات البقاء على قيد الحياة مرةً أخرى إن لم يرغبن بذلك. لكنهن رفضن، لم يعد يملكن الرغبة حتى في الخيول، ولم يستطع بعد اليوم إجبارهن على الذهاب. الفتيات، مثل والدتهن، شعرن بارتفاعٍ في سلطتهن، نتيجة تلك الرحلة التي أسقطت كل الأنظمة. كانت الأيام الأخيرة على وشك القدوم، لكن لم يعد يهمهنَّ الأمر. قلن: «فلتأتِ، ما هو أسوأ ما يمكن أن يحدث؟».

أغلقت كيكو الصغيرة باب غرفتها على نفسها لمدة ثلاثة أيام، تتلقى وجباتها على صينية تُترك خارج الباب، وتترك الصحون الفارغة لتجمعها مدبرة المنزل. كانت في حالة حدادٍ، كما قالت والدتها. «اتركوها

وشأنها». وبعد ثلاثة أيام، خرجت كيكو من غرفتها. ولم تتحدث عن لوسي مرةً أخرى.

أصبحت المزرعة مغطاةً بالنباتات، ولفترةٍ من الزمن امتلأت بالطحالب والعفن. أُخِذت الخيول الصغيرة للعمل في الفندق، حيث كانت تُستخدم لركوب الأطفال خلال السنوات العشر التالية. لاحقًا، اعتبر الجميع موت لوسي حادثًا. لقد قفزت لوسي، أليس كذلك؟ وكان من المفهوم أن يوكو ضغطت على الزناد عن غير قصدٍ. وبالطبع، لم تكن يُومِي تريد حقًّا قتل والدها. من يمكنه أن يقول -أو حتى يفكر- في مثل هذه الكلمات؟

المطرقة الثقيلة

يوليو / تموز 2032

قالت بيبي، زميلة ليو: «نحن جميعًا نعلم كيف يكون المعماريون»، ثم سعلت وهي تنطق كلمة: «المتعاليين»، مما أضحكَ جميعَ من في قاعة الاجتماع. ففكَّر ليو: الأمور تسير على ما يرام.

واصل ليو حديثه، مشيرًا إلى الأجهزة اللوحية التي تحتوي على العرض التقديمي أمام الجميع: «كما تعلمون، نحن شركةٌ قامت على الهندسة الإنشائية كفنٍّ متساوٍ مع العمارة والتصميم. بُنيت منازلنا لتدوم، ولتتجاوز الزمن، ولتكون خاليةً من الأضرار. هذا المنزل سيصبح مسكنًا خاصًّا، ولكنه أيضًا سيكون نموذجًا لما يجب أن تكون عليه الحياة الفاخرة: مكتفيةً ذاتيًّا ومستدامةً، وهو مُؤثَّثٌ بأعمدةٍ فولاذيةٍ مغطاةٍ بالخرسانة، ومطليةٍ بطلاءٍ مقاومٍ للحريق، بالإضافة إلى جُدران القص، وإطارات التدعيم. سنقوم بتعزيز هذا المبنى من أعلى إلى أسفل، دون أي توفيرٍ في النفقات. هنا: ألواحٌ شمسيَّةٌ غير ملحوظة، تكاد تكون

غير مرئيَّة. وهنا، في المطبخ: نظامٌ متطوِّر لتحويل المخلَّفات إلى سماد. وهنا: جهاز إعادة تدوير المياه الحديث، مستوردٌ من سنغافورة. سنبني غرفة أمانٍ في القبو، كلُّ شيءٍ مُقاوِمٌ لتلف المياه، والفيضانات، والحرارة، والحرائق، وأزمات الطاقة، والهجمات. نحن نتحدث عن قلعةٍ هنا».

ثم أضاف مازحًا نوعًا ما: «أيها السادة، عندما تصبح شانغهاي كومةً من الأنقاض والرماد بعد ثلاثة آلاف عامٍ من الآن، سيظل هذا المنزل قائمًا. أقسم أنني أرغب في نقل عائلتي للعيش فيه!».

وبإشارةٍ من ليو إلى المبنى الشاهق الذي اشتعلت فيه النيران مؤخرًا، مما وضع جميع سكانه في خطرٍ مميتٍ، ولحسن الحظ، لم يُقتل أحد، لكن العمدة وجد نفسه تحت ضغطٍ شديد. قال ليو: «لقد واجهتم بعض التحديات مؤخرًا، نعلم ذلك. شركتنا تتعامل مع كلِّ شيء، من البداية إلى النهاية، داخليًّا وخارجيًّا: من الهندسة إلى التصميم إلى السباكة. مع تعاوُن الهندسة والتصميم جنبًا إلى جنب، لا مجال لسوء التواصل أو الحسابات الخاطئة».

أومأ ليو برأسه، وقامت بيبي بتشغيل عرضٍ تصويريٍّ للمبنى التاريخي الذي يقترحون تجديده، وهو القصر الذي بُني في عام 1933 والذي أصبح الآن مسكنًا متعدد الوحدات، كما أبرز العرض جميع المناطق التي يجب هدمها أولًا.

- سترون هنا وهنا حيث ستُضاف الدعامات الجديدة. وعلى هذا الجانب من المبنى، سنضيف مصعدًا. كثيرًا ما ترغب العائلات في أن يعيش كبار السن معهم، ولكن السلالم أو الأرضيات الحجرية الزلقة تجعلهم يترددون. سنوسِّع أيضًا الغرفة المُتَّصِلة بالمطبخ لتصبح شقَّةً مُستقلة. يمكن أن تكون لفريق رعاية الأطفال، أو

ليعيش الأجداد براحةٍ إلى جانب عائلاتهم. من المؤكد أن السباكة والكهرباء بحاجةٍ إلى إعادة تصميمٍ كاملة. سنحاول الحفاظ على الأرضية الأصلية قدر الإمكان، رغم أنه سيتعين اقتلاعها. قد نعيد استخدام البلاط الموجود على الأرض لتزيين بابٍ، أو في حمامٍ جديد.

أشار ليو إلى الطابقين الأول والثاني قائلًا: «ما لا يمكنكم رؤيته هنا في العرض هو العفن الأسود الذي سيطر على خلفيَّة المطبخ في الطابق الأول، وامتدَّ إلى الطابق الثاني، تحتاج هذه المنطقة بأكملها إلى تجريفٍ وتنظيفٍ شامل. أما بالنسبة إلى مطبخ الممر، فلم يعد أحد بحاجةٍ إليه بعد الآن، سنكتفي بمطبخٍ حقيقيٍّ على الطراز الاحترافي في الطابق الأرضي. يمكننا الحفاظ على الدَّرج، لكن معظم العناصر الخشبية بدأت تتآكل وتتعفن، لذا سيتعين علينا استبدالها».

وتابع قائلًا: «أيها السادة، هذا المبنى في حالةٍ سيئة. يمكننا إعادته إلى مجده السابق وربما إلى ما هو أبعد من ذلك، لكن الأمر يتطلَّب عنايةً ومهارة، وهو ما نتمتع به بوضوحٍ أكثر من أي منافسٍ آخر. فموادنا عالية الجودة، والديكور أصيلٌ يعكس حقبته الزمنية، إذ لا نريد أن يبدو المكان رخيصًا أو مؤقَّتًا. تخيلوه كما كان: نوادي الجاز والراقصات، الأجانب وأفراد العصابات في شانغهاي. خشبٌ مُستوردٌ من الولايات المتحدة، وزجاجٌ مُعشَّقٌ من إيطاليا. نرغب في أن تتم الأمور على أكمل وجه، لنعيد إحياء الماضي، ولنسطِّره من جديد».

نظر ليو إلى الرجال الجالسين على الطاولة، وتحوَّل إلى لغة شانغهاي المحلية، قائلًا: «استمعوا، أنا أعرف هذه المدينة كما أعرف كفَّ يدي. نشأتُ هنا، وأحبُّ هذا المكان، بمبانيه، وكلِّ شيءٍ فيه، الجميل

والقبيح منه، والجيد والسيئ. حسنًا... ربما ليس القبيح» ضحك الجميع. وكان ليو يتمتَّع بسمعةٍ حسنة.

- نشأت على بُعد ثلاثة شوارعٍ من شارع يويوان لو. كنت أمشي بجوار هذا المبنى في طريقي إلى المدرسة. نعم، نحن هنا للاستثمار، ولنجني المال. من لا يسعى لذلك؟ لكنني أعدكم: لا أحد من المُنتظرين خارج هذه الغرفة سيهتم بهذا المبنى، أو هذا الحيِّ أكثر مما أفعل.

عاد ليو إلى استخدام لغة الماندرين ليختتم عرضه قائلًا: «شكرًا لكم، أيها السادة، على وقتكم وعلى إتاحة الفرصة لنا للمشاركة في هذا المشروع المميز. أريد فقط إضافة ملاحظة: نحن أيضًا على استعداد لإعادة استثمار جزءٍ صغيرٍ من عرضنا في تكاليف إعادة توطين السكان الحاليين. ونقترح كذلك تقديم تصاريح مدرسية لأطفالهم. ربما لن يرتادوا هذه المدارس، ولكن حتى لو فعلوا، فلن يشغلوا سوى عددٍ قليل من المقاعد، وسيكلِّف الأمر ثمنًا زهيدًا يمكننا تحمُّله».

جمعَ ليو مستنداته، وصافح كلَّ عضوٍ من أعضاء اللجنة. سأل بيبي وهو في الممر: «كيف جرى الأمر برأيكِ؟».

- أعتقد أنهم أحبوا العرض يا ليو. أعجبتني اللمسةُ المحلِّية في النهاية. هل لاحظت أنهم احتفظوا بالعرض؟ الأمور لم تُحسم بعد، لكن أعتقد أن لدينا فرصة.

في طريقهما إلى الخارج، مرَّ ليو وبيبي بجانب مجموعة «القمر والنجوم»، وتبادلا معهم إيماءاتٍ مقتضبة. كان ليو قد سمع أن اقتراح المجموعة القادمة من هونغ كونغ يتضمن فندقًا ومتحفًا معًا، بينما علم

أن فريقًا آخر يقترح تحويل القصر إلى مبنى فاخر يضم أربع شققٍ فاخرةٍ مع حمّامِ سباحة.

كان ليو ملتزمًا بموعدِ غداءٍ في مكتبه المطلِّ على الواجهةِ البحرية، والذي يوفِّر إطلالاتٍ بزاوية 360 درجة على شانغهاي من الطابق الثامن والثمانين.، كما من المُفترَض أن يقدم محاضرةً افتراضية، تليها جلسةُ أسئلةٍ وأجوبة، حول موضوع «المرونة»، لكن لديه ساعةٌ إضافية أو أكثر، وقد رغب بقضاء هذا الوقت بالتجول في المدينة بدلًا من النظر إليها من علٍّ، كما يفعل معظم أيامه. فقد أصبحت شانغهاي، بنماذج المخطِّطِين العمرانيين، صغيرةً للغاية مع زيادة المسافة.

قال لبيبي: «أريد إلقاء نظرةٍ سريعة أخرى على المنزل قبل العودة إلى المكتب»، فمرَّرت بيبي الرسالة إلى السائق بمجرد وصول السيارة. دخل ليو إلى المقعد الخلفي بينما جلست بيبي في الأمام.

أخذ ليو يعيد في ذهنه عرض المشروع في أثناء توجههم إلى وسط المدينة، كما فكَّر في محاضرته القادمة. كانت حياته هذه الأيام سلسلةً من العروض التقديميَّة المتواصلة. لكن هذا المنزل، هذا الترميم، له وقعٌ خاصٌّ في قلبه.

لم يُخبر أحدًا بهذا الأمر سوى زوجته، حتى بيبي لم تعرف، لكن ثمَّة رابطٌ شخصيٌّ بينه وبين المبنى. عندما علم أن الحكومة فتحت باب تقديم العروض لترميمه، قفز قلبه من صدرِه، فهذا المنزل هو المكان الذي نشأت فيه والدته، حيث عاشت لمدة عشر سنواتٍ تقريبًا، ما بين سن العاشرة والعشرين، مع والديها وخمسةٍ من أشقائها.

عندما أخبر إيكو عن الأمر وعن خطته للمنافسة على تطويره، دعمته وتحمَّست من أجله، لكن، وكما هو الحال دائمًا، ليس هناك شيء تقريبًا لم ترغب إيكو في أن يشتريه.

الآن، وهو يتجوَّل في شوارع شانغهاي، رأى القيم الحقيقيَّة، وكان يعرف قيمةَ كلِّ حيٍّ وكلِّ شارعٍ، وكيف يمكن تطويره إذا لم يكن ذلك قد تم بالفعل. وبينما هم في طريقهم إلى المنزل في شارع «يويوان لو»، أدرك ليو أنهم سيمرون قريبًا عبر الامتياز الفرنسي القديم، مرورًا بالحرم الجديد للمدرسة الفرنسية، وهو قصرٌ تم تجديده مؤخرًا ليضم مبنَيين كبيرَين للمدرسة، وصالةً رياضيَّة، ومحميَّة فراشات. طلب من السائق أن يُبطئ، ثم أن يوقف السيارة للحظةٍ على الرصيف. توقفوا بجانب سياج المدرسة الحديديِّ المُغطى باللبلاب، ونظر ليو إلى داخل المبنى.

رغبت إيكو في نقل البنات إلى هذه المدرسة، لتسمح لهن بالاستمتاع بالحياة، ودراسة اللغة الفرنسية، وتجنُّب سباق التعليم الصيني والأمريكي المحموم، متسائلةً: لماذا يحملون جوازات سفرٍ فرنسيَّةً إذًا؟

أما ليو فربما كان متمسكًا بفكرةٍ انتهت صلاحيَّتها منذ زمنٍ بعيد، وهي حلمٌ بالمساواة، كما في الصين التي لمعت للحظةٍ واختفت سريعًا، عندما كان الجميع، ولو لوهلةٍ قصيرة، متساوين في الفقر، وكانت البلاد لا تزال في بداية صعودها نحو الثراء.

محميَّةٌ للفراشات! هل يحتاج الأطفال حقًّا إلى دراسة الفراشات؟ عندما كان طالبًا، صعد بنفسه من مدرسةٍ إلى أخرى، متقدمًا من مستوى المنطقة إلى المدينة، بناءً على درجات اختباراته العالية. كانت تلك الفترة في حياته فريدةً من نوعها، وعابرة، وكان الجميع يملكون القليل، لكنه بالكاد شعر بذلك، ولم يشعر بحقيقة الفقر حتى وقع الحادث الذي جعله يتيمًا بحق، فاقدًا لكل شيء. فقدانه لوالديه زرع

في داخله شعورًا دائمًا بالنقص، شعورًا ظلَّ متجذرًا في أعماقه. أما بناته، فإن السماح لهن بالذهاب إلى هذه المدرسة يعني تربيتهن تربيةً فرنسيَّة، مع صديقاتٍ فرنسيَّات، تحيط بهن الثقافة الفرنسيَّة، والأعياد الفرنسية التي لم يحتفل بها منذ أيام دراسته في باريس. نظر ليو إلى المدرسة وتذكَّر الإجازات الصيفية الطويلة التي قضوها مع إيكو في جميع أنحاء أوروبا. تذكر عطلات نهاية الأسبوع، عندما كانت المتاجر والبقالة تغلق مبكرًا. كيف كانت المدينة بأكملها، بل البلد بأسره، يغرق في الصمت في ساعاتٍ معيَّنة، لتمتد فترات الراحة عبر الأشهر. البلد الذي يعيش فيه الإنسان يُملي تجربته الزمنية على مدار العام، على مدار الأسبوع، ويحدِّد التدفقات والانحسارات بين الطاقة والراحة.

حافظ ليو على علاقاته مع بعض الأصدقاء الذين عادوا من باريس، جميعهم صينيون درسوا وعملوا في الخارج مثله. لكنه في الغالب كان يلتقي بزملائه القدامى من المدرسة الثانوية، والمدرسة الإعدادية، وحتى الابتدائية، الشانغهاييون الذين بقوا. وعندما يجتمعون، يتحدثون بلهجتهم الأصلية. أما إيكو، فقد ظلت على صلةٍ بالمجتمع الفرنسيِّ في المدينة.

كم من السهل على إيكو أن تكوِّن صداقاتٍ جديدة، هكذا بدا له الأمر. صديقةٌ هنا، وأخرى هناك، ولقاءاتٌ في محلات الحلويات، والمقاهي، والمطاعم. ربما عاش ليو نفسه تجربةً مشابهة خلال فترة دراسته في الخارج، حيث حاول العثور على أصدقاء صينيِّين والتشبث بهم، ليصبحا صديقين بحكم الأمر الواقع، ورفيقين، وزملاء.

وماذا في ذلك، ماذا إن كبرت بناته في هذا الحيِّ الفرنسيِّ الصغير؟ ما الذي سيكون على المحك حقًّا؟ إذا كان الأمر يعني الكثير لإيكو...

لقد أصرَّت على إنجاب ابنتيهما الأخيرتين في باريس. قالت إنها أرادت أن تكون مع والدتها، لكن ذلك لا يلغي رغبتها في أن تضع حملها في مستشفًى فرنسيٍّ للولادة، مكانٌ يمكنها فيه فهم ما يقوله الأطباء والممرضات بشأن وضعها. كما أصرَّت على الولادة في الماء، كما لو أنها تتَّبع نوعًا من العقيدة. قرر ليو أن يدعها تفعل ما تشاء، لكن بعد رُعب ولادة يوكو، والنزيف والخوف من فقدان إيكو، قررا أن تكون ولادة كيكو في غرفة العمليات. في الواقع، كان مفاجئًا له بعد ما حدث في ولادة يوكو أنها أبدت استعدادًا لمحاولة الإنجاب مرةً أخرى.

قالت إيكو بحذرٍ دبلوماسيٍّ: «ليس لأن فرنسا أفضل»، لكنه يعرف جيدًا كيف يشعر الفرنسيون تجاه بلادهم، ويرونها على أنها ذروة الحضارة، فهذه هي أسطورة الهويَّة الفرنسيَّة الأساسية. وليس الفرنسيون وحدهم من يصدقون ذلك، فبالنهاية، ألم يكن هذا جزءًا من السبب الذي دفعه للزواج منها؟ بالتأكيد كان جزءًا من جاذبيتها بالنسبة إليه، قبل كل هذه السنوات. طلاقتها في لغات العالم وراحتها في عالمٍ سيظلُّ هو فيه مجرد زائرٍ، وقدرتها -قدرها- في أن تكون آسيوية وأوروبيَّة في آنٍ واحد. من يستطيع فهم أسرار القلب أو قواعد الجاذبية، المختلفة لكل شخص؟ منذ أن اختارها زوجة، عرف أن أطفاله لن يكونوا شانغهاييين أبدًا. بدت له هذه الأفكار، وهو ينظر إلى بوابة المدرسة، عقلانيةً في معظمها، ولكن انساب تحتها تيَّارٌ خفيٌّ من الحزن.

كان ليو قد درس الهندسة الإنشائية في مرحلة الدراسات العليا في باريس، ونظرًا لاستثماراته، كان منطقيًّا أن يتجه لدراسة شيءٍ عمليٍّ، ومرتبطٍ بتطوير العقارات، لكنه يتساءل أحيانًا عمَّا إذا كان قد اتخذ القرار الصحيح. صحيح أن مسيرته المهنية تكلَّلت بالنجاح، لكن العمل

الذي يقوم به -المباني، والجدران، والرسومات، والأرقام، والأعمدة، والأوزان المتوازنة- يخلو في بعض الأحيان من الارتباط الإنساني. نعم، كان هناك الكثير من المجال للتفكير في السلامة، والبقاء، والمرونة، وكيف يعيش البشر ويتحركون ويرون الضوء ويشعرون بالحجر، لكن كل هذا كان مجرد أمورٍ حسيَّة: التفاصيل الخارجية للحياة، والسقالات التي تقوم عليها الأسرة.

كم سيكون مثيرًا، ومهمًّا، وحيويًّا لو عمل في السياسة، على النقيض من ذلك، أو لو كان، مثل «كيكو الصغيرة»، فنانًا، ومستكشفًا لروح الإنسان. أو حتى لو أنه طبيبٌ، وجرَّاحٌ يعمل داخل الجسد، ويلامس الجلد والعضلات والعظام طوال اليوم. المباني أشبه بالملابس التي يرتديها الناس والأشياء التي يشترونها، ضرورية، لكنها غالبًا ما تكون عبئًا غير مجدٍ، تثقل كاهل الكوكب بدرعٍ سميكٍ وسامٍّ من الخرسانة.

أشار إلى السائق، فانطلقت السيارة مجددًا.

***

عندما تهدم شيئًا ما، فإنَّك تمنح فرصةً لبناء شيءٍ جديد، شيءٍ أفضل، وأقوى، وأكثر روعةً، وأكثر كمالًا. لقد عمل ليو مع العديد من المهندسين المعماريين والمصممين على مر السنين، ولم يحب أن يضيع وقته مع أولئك الذين يهتمون بمجرد نسخ الأشياء، فهو ينظر إلى الترميمات وإعادة الإعمار على أنهما فنٌّ، ويجب أن يُعكَس ذلك في التنفيذ.

قدَّر ليو التاريخ، واحترمه احترامًا كبيرًا، لكن المبنى كائنٌ حيٌّ، كائنٌ يتقدَّم في العمر، وإن كان مُهمًّا، فهو عملٌ مُوثِّقٌ للتاريخ. فلماذا لا يمكنه، أو لا ينبغي له، أن يتطور مع مرور الوقت؟ كان المنزل في شارع «يويوان لو» في الأصل منزلًا عائليًّا، ثم، بعد الحرب، قُسِّم إلى عدة وحداتٍ لتستوعب العديد من العائلات. والآن، وبعد عقود، ها هو ليو

يخطِّط لإعادته إلى مجده الأصلي. لقد مر القليل والكثير على هذا المنزل بعد أن امتلأ بالسكان، وامتلأ بالحياة المُزرية. إذ سكنه أربعون شخصًا، ليستعملوا ثلاث حمَّاماتٍ، ومطبخين. وقد نشأ ليو وهو يستمع إلى أناس الجيل الأكبر منه، يقولون: «لن تفهم أبدًا، لن تفهم أبدًا»، لكنه كان يفهم -على مستوى البنية- أن الأشياء يجب أن تُستخدم كما هو مُعدٌّ لها، وإلا، فإنها لن تدوم. وهذا ما يُسمى بالإساءة.

نشأ ليو أيضًا في شقةٍ صغيرة مع أسرته، وكان ينام بجوار مكتبه، ومعهم جميع ملابسهم وممتلكاتهم وطعامهم. كانوا معًا، كل يومٍ وكل ليلة، في تلك الغرفة الواحدة، حتى وقوع الحادث. وبعده، لسنوات، ظلَّ يخاف من النوم وحده، بل من أن يُترك بمفرده في أي غرفة، وظلَّ هذا الشعور ملازمًا له حتى وصل إلى باريس، حيث، وبطريقةٍ ما، بعد أن غادر شانغهاي لأول مرةٍ، لم يشعر بالخوف مرةً أخرى.

نزل ليو من السيارة وألقى نظرةً مُتفحِّصةً على المنزل، كان عبارةً عن هيكلٍ واسعٍ، وثقيلٍ للغاية، وبجدرانٍ من الطوب الداكن، ومغطًى بكثافةٍ بأغصان اللبلاب التي تمتدُّ إلى النوافذ الصغيرة في الطابق الثاني. وفي نفس اللحظة، كان يرى المنزل الذي يمكن أن يكون، المنزل الذي تصوَّره هو وشركاؤه: جدرانٌ كبيرة مغمورةٌ بالضوء، وحجارةٌ تضيء المبنى. مشى إلى المدخل الجانبي، ومن هناك استطاع رؤية الفناء الخلفي، المليء بالنباتات المُتضخِّمة، وثيابًا معلَّقةً على الحبال بين الأشجار. خطَّط لإعادة تصميم المناظر الطبيعية، ليعيده إلى الخضرة الأنيقة التي تليق به. تخيَّل بركةً مملوءةً بأسماك الكوي الكبيرة، وحتى تلك البرك المتدرجة في «شانغري لا»، التي زارها مع الفتيات في هاواي الصيف الماضي، حيث لم يرَ في حياته منزلًا أكثر عبقًا، أو عملًا كهذا أشبه بضربٍ من الخيال والعظمة، والاستيلاء على الثقافة، ومحاولةً

مهووسةً لامتلاكها. كان الأمر يستحق الثناء. يمكن أن يصبح القصر في شارع «يوبوان لو» أيضًا شيئًا رائعًا.

عندما انتقلت والدته للعيش في ذلك المنزل لأوَّل مرة، خُصِّص الطابق الثاني بالكامل لعائلتها، لها ولوالديها ولإخوتها الخمسة. ولكن مع مرور الوقت، تقلصت مساحتهم حتى أصبحت غرفتين ضيِّقتين فقط. وكانت عمتُه، العزباء، آخر من بقي هناك، حتى رحلت أخيرًا قبل سنوات.

تخيَّل والدته وهي طفلة، إذ لم يملك سوى صورةٍ واحدةٍ لها في طفولتها، ذات لونٍ مائلٍ إلى البنيِّ الفاتح مع لمسةٍ ورديَّة على الخدود. تلك الصورة، وصورةٌ من يوم زفاف والديه -التي يظهر فيها وجهان مجرَّدان من المرح- هي كل ما تبقى له من صور والدته، التي رحلت منذ زمنٍ طويل. أما بقية ذكرياته عنها فكانت غامضةً، وضبابية، ولا شيء واضحٌ أو محدَّدٌ فيها.

ولكنه يعرف الفتيات الصغيرات، يعرف أفراحهن وأحزانهن، وسحرهن وجمالهن، فبناته الآن يبلغن من العمر ما كانت عليه والدته عندما انتقلت إلى العيش هناك لأول مرة، حين كانت تلعب وتتشاجر وتغني وترقص وتبكي مع إخوتها، وذلك عندما كانت الحديقة خضراءَ زاهية، والنافورة تتدفَّق بالمياه الصافية. ربما اعتادت أن تختبئ من إخوتها خلف تلك الشجرة، ووجهها يطلُّ بحذرٍ من خلف الجذع السميك، وقلبها ينبض بتوتر، متسائلًا هل سيجدونها؟ وكانوا يجدونها دائمًا، لِيَلي ذلك الصراخ الحادُّ المليء بالفرح، والهزيمة، والاستسلام، والركض، والجري عبر العُشب، صعودًا على الدَّرج الخلفي، مرورًا بالمطبخ المليء بالدخان والأجساد، ثم صعودًا على الدَّرج، اثنين اثنين، إلى غرفتها، تحت السرير المُشترَك مع أختها الكبرى. الانتظار، خطواتٌ تقترب، ثم يظهر وجهٌ

صغيرٌ عند مستوى الأرض، وينتهي الأمر، انتهى البحث، وقد خسرت. مرةً بعد مرة...

كما يتخيلها في الصباحات، بعد أن أصبحت شابة، وهي تنتظر دورها في الحمام الضيِّق، وتحمل مشبكَ شعرٍ أحمر ياقوتيًّا في يدها...

فضلًا عن ليالي الصيف، حيث يجلس الرجال المسنُّون على مقاعدهم الخشبية المنخفضة في الزقاق، وتومض أعقاب السجائر على طول الشارع الضيِّق، وتتعالى قرقعة الحصى على لوحِ لعبة «جو»، التي فُقِد منها حجرٌ أسود، أو حجرٌ أبيض هنا وهناك، واستُعاض عنه بقطعةٍ مُشوَّهةٍ من الطوب أو الجرانيت...

لم يكن ليو يعرف شيئًا، وكل ما يملكه هو مجرد تخمينات. لم تعد لديه أي صلةٍ بهذا المكان، ولا يملك حقًّا فيه أكثر من أي مطوِّرٍ آخر أو أي مقدِّم عرضٍ جديد. ومع ذلك، شعر -وهو يعرف أن هذا الشعور غير منطقيٍّ، وغير مُبرَّر- بأن هذا المنزل، بطريقةٍ ما، ينتمي إليه.

مالت امرأةٌ من شرفتها، وراحت تنشر غسيلها على الحبل، نظر ليو إلى الأعلى عندما سقطت قطرةُ ماءٍ على ظهر يِده، ورأى المرأة -بشعرها الأبيض المجعَّد تحت سماءٍ زرقاء خاليةٍ من الغيوم- تحدق إليه بعبوس.

هزَّت المرأة قميصًا بعنفٍ في الهواء، فتطايرت قطرات ماءٍ على ليو، وهي تقول: «تقيسون وتخطِّطون الأمور وتحدِّدون مصائرنا، أليس كذلك؟ وكل هذا قبل أن نرى قرشًا واحدًا مقابل إعادة التوطين!». هزَّ رأسه ومسح كتفَيه ضاحكًا. هل كانت طفولة أمه كهذه؟

- سيدتي، هل تعرفين عائلة هوانغ؟ كانوا يعيشون هنا منذ زمنٍ بعيد.

- هوانغ، ووانغ، وتانغ، ويانغ. كثيرون عاشوا هنا.

- كان لديهم ستة أطفال. وينحدرون بالأصل من عائلةٍ أرستقراطيَّة من سوتشو.

- آه، أولئك الهوانغ.

تابعت المرأة تعديل قميصٍ على الحبل، وهي تسأل: «هل أصابتهم مصيبةٌ أو شيءٌ من هذا القبيل؟».

- لا، لماذا؟

- لأنني أتذكر أن الأُم كانت تقامر دائمًا. اعتدتُ أن ألعب مع هؤلاء الأطفال.

- إذًا، هل عشتِ هنا طوال حياتكِ؟

- أتعتقد أنني جئتُ إلى هنا بإرادتي؟ نعم! نشأتُ هنا وبقيت عندما تُوفِّي والداي. ابني يعمل في ألمانيا، تعلم؟ في أوروبا. يريد أن يشتري لنا منزلًا جديدًا أو يأخذنا إلى هناك. لكننا ننتظر بدل الانتقال. كنَّا نعرف أنهم سيأخذون هذا المكان عاجلًا أم آجلًا. تعلم، كان هذا المكان جميلًا يومًا ما.

- وكيف كان أطفال آل هوانغ؟

- هل أنت مطوِّرٌ من أولئك المطوِّرين؟

- نعم.

- لا تخبرني أنهم سيحصلون على نصيبٍ أيضًا. آل هوانغ خرجوا من هنا منذ سنوات! لا يحتاجون إلى مال الانتقال. لم يحتاجوا إليه أبدًا. كانوا متعجرفين، وهذا لم يتغير.

- يبدو أنكِ أنتِ أيضًا لا تحتاجين إلى مال الانتقال.

- ربما لا أحتاج إليه، لكني أستحقُّه بكل تأكيد لأني عشت هنا طوال حياتي، وهكذا، انتظرت، كان لديَّ أصدقاءٌ في منازل قديمةٍ تم شراؤها منذ عشرين عامًا! لم أفقد الأمل أبدًا. واصلتُ المعاناة.

- هل يمكن أن تريني منزلكِ؟ قد يساعد ذلك.

لماذا يسأل ذلك؟ وهو يعرف أن رؤيته للمنزل لن تساعده في شيءٍ. لكنه لا يزال يشعر بأن هذه المرأة قد تكون صديقة والدته. إذا استطاع رؤية حياتها، منزلها، ربما... سألت: «يساعد في ماذا؟».

قال، عارفًا أن هذا هو الجواب الوحيد الذي سيجعلها سعيدة: «في التخطيط. في تقديم عرضٍ أكبر لإعادة التوطين».

- حسنًا. تعالَ إذن. سألتقيك عند قمة الدَّرج.

سبقَ وزار ليو الموقعَ من قبل، وكان قد ألقى نظرةً على الغرف المقسَّمة، حيث تُترك الأبواب مفتوحةً لأي شخصٍ يرغب في إلقاء نظرةٍ إلى الداخل. وبما أنه يعرف طريقه جيدًا، دخل وتوجَّه نحو السلالم.

وجد المرأةَ تقفُ في انتظاره، بجسدها ضئيل الحجم، وفكَّر لو أن والدته ما تزال على قيد الحياة، ربما ستكون في عُمر هذه المرأة. ابتسم ليو لها وهي تحدق إليه. وقالت عندما وصل إلى طابقها: «أنت أطول مما تبدو»، تحركت بجانب موقد الطبخ في الممر، وهي ترحب به، وتقول: «تفضَّل». كان الموقد مغطًى بطبقاتٍ سميكةٍ سوداء من شحومٍ مُتكتِّلةٍ وصلبة، وقد امتدَّ خطُّ الغاز مكشوفًا على طول الممر. كانت هناك العديد من الأسلاك الكهربائية المتشابكة -بيضاء، ورمادية، وسوداء- تتلوَّى وتدخل في الغرف واحدةً تلو الأخرى. في المخططات التي قدمها ليو إلى المجلس البلدي، سيتم تحويل الطابق الثاني إلى غرفةٍ عائليةٍ كبيرة مع شرفةٍ ممتدَّةٍ تطلُّ على الحديقة الخلفيَّة. أما الطابق الثالث والرابع سيُخصَّصان لغرف النوم. وفي الحديقة، صمَّم غرفةً منفصلةً مع حمَّام،

يمكن استخدامها كمكتب، أو جناحٍ للأجداد الآخرين، أو كبيت لعبٍ للأطفال.

قالت المرأة وهي تدخل غرفةً صغيرة: «هذا هو مكاننا»، كانت الغرفة بحجم خزانة إيكو، وأحد جوانبها مملوءًا بصناديق كرتونيَّة تصل حتى السقف.

قال ليو: «ستحظين بمساحةٍ أكبر بكثيرٍ في شقتكِ الجديدة».

- نعم، لكني معتادةٌ على العيش في وسط المدينة، أنا ابنة المدينة، لطالما كنتُ كذلك. وإن قررت مغادرة هذا الموقع، فمن الأفضل أن يكون العرض مغريًا.

- في النهاية، القرار يعود للحكومة. سأقدِّم توصيةً، لكنني مسؤولٌ فقط عن التجديد.

- كلُّكم متآمرون. أنا كبيرةٌ بما يكفي لأعرف كيف تسير الأمور.

نظرت حولها ثم جلست على سريرها.، واسترسلت: «تُوفِّي زوجي العام الماضي. وهذا هو المنزل الوحيد الذي عرفته طوال حياتي».

- أنا آسف لخسارتكِ. هل نشأ ابنكِ هنا أيضًا؟

- نعم. عاش معنا في هذه الغرفة بالذات. حتى أُرسل إلى مدرسةٍ داخلية. لم تعد هناك أي مساحة، وعندما كان يعود إلى الصين في زيارة، كان دائمًا يقيم في فندق.

أراد ليو معرفة المزيد عن عائلة والدته، لكنه لم يُردْ أن يكشف عن نفسه بوصفه ابنًا لهم، فقد أراد الحقيقة دون تصفية. ما الذي تعنيه بقولها إنهم كانوا متعجرفين؟ سأل: «كيف كانت الحياة هنا؟».

- هنا؟ كما تعرف، كانت كما كانت. لا مساحة، ولا مال. لم أحظَ بفرصةِ الذهاب إلى الجامعة، عدت بعد فترةٍ قصيرة من جزيرة تشونغمينغ. ماذا يمكنني أن أقول؟ كانت فترةً صعبة.

أشارت بيدها لإبعاده، وسألته: «هل تعمل على مشروع تاريخٍ شفهيٍّ، أو شيءٍ من هذا القبيل؟ اتركني وشأني. لقد بدأتُ بالفعل في حزم أمتعتي».

- أبدأتِ في حزمِ أمتعتكِ؟ لم يُبرم أيُّ اتفاقٍ حتى الآن.

- لديَّ مصدر.

- لا يزال لديكِ ثلاثة أشهر على الأقل قبل أن تضطري إلى المغادرة.

- لا أحد يعرف. إذ بدأ أمثالكم يتجوَّلون هنا مؤخرًا. أعلم أن الأمر قريب. اتركني الآن بسلام.

توقف ليو عند الباب. أدرك وهو ينظر إلى المرأة العجوز وهي جالسةٌ بمفردها على سريرها الفرديِّ، في غرفتها الصغيرة، أنه لم يشعر بما تشعر به -لم يشعر بالوحدة- منذ سنوات.

نزل ليو السلالم ووقف عند أسفلها، إذ شعر بشيءٍ غير طبيعيٍّ في المكان، فأخذ يدور حول البهو، ويتفحَّص التفاصيل. لماذا يكون البناء الحجري متقنًا إتقانًا تامًّا، باستثناء تلك الدرجة السفلية غير المستوية؟ نظر إليها لفترةٍ طويلةٍ، مُتعمِّقًا في التفكير. فبهذه الطريقة يعمل عقله: بلا جدولٍ، أو خطَّةٍ مُحدَّدة، وإذا ما تأمَّل في مشكلةٍ لفترةٍ كافية، أو حتى جلس يحدق إلى الصفحة، غالبًا ما تأتيه فكرةٌ من العدم.

كان البيت مشيدًا بشكلٍ رائع، لم تُغفل فيه أيُّ زاوية، ولم تُوفَّر أي نفقات. لا بدَّ أن عائلةً غنيةً جدًّا عاشت هنا قبل قرنٍ من الزمن. كان الناس في ذلك الوقت يتقنون أعمالهم، ليس كما هو الحال الآن، حيث تصطفُّ المباني الجاهزة المتماثلة، التي تكاد تلامس السماء، وتُصنع لتدوم بضعةَ عقودٍ فقط. حدق ليو إلى الجدار الناعم، المصنوع من الحجر، والبارد الملمس، وفجأةً خطرت له فكرةٌ: لمس الجدار مرةً أخرى، وتأكَّد من صواب ما خطر له. انتابه الذهول من حقيقة أن لا أحدَ قط قد لاحظ ما فعلوه. طوال هذه السنوات؟ طوال قرنٍ من الزمن؟

خرج ليو من المنزل وعاد إلى السيارة، وهو على علمٍ بأن اكتشافه -إن كان صحيحًا- قد يساعده في الفوز بالمُناقصة. وجد السائق مُتكئًا على السيارة يدخن سيجارة، بينما جلست بيبي في المقعد الأمامي تستمتع بالهواء المُكيَّف. فتحت بيبي نافذتها وقالت: «هل انتهينا، ليو؟».

تحدث ليو إلى السائق قائلًا: «افتح الصندوق».

فتح السائق الصندوق، ورفع الغطاء على آخره، وسأله وهو يسحب نفسًا من سيجارته: «ما الذي تحتاج إليه؟».

لكم يكره ليو رائحة الدخان، لكنه لم يقل شيئًا. بل أشار إلى مقبضٍ يبرز من أسفل كومةٍ من الأدوات، وقال: «المطرقة الثقيلة».

خرجت بيبي من السيارة، تراقب السائق وهو يستخرج المطرقة. وقالت: «لم نفزْ بالمزاد بعد»، لكن ليو اكتفى بأن ردَّ: «سنفوز»، ثم أخذ المطرقة من السائق وعاد إلى المنزل. تبعته بيبي تاركةً بينهما مسافةً لا بأس بها.

آمن ليو أنه على حق، وقد شعر بذلك في أعماقه. ثمَّة شيءٌ مخبأٌ خلف هذا الجدار، وكان يعلم أيضًا أنه إذا لم يتبع حدسه الآن، فسوف يندم لاحقًا. على مر السنين، تحسَّن ليو كثيرًا في اتخاذ القرارات،

وتحديدًا القرارات السريعة، وأصبح أكثر معرفةً بنفسه وما تتوقعه منه ذاته المستقبلية. وجَّه المطرقة نحو الجدار المجاور للسلالم وضربه.

أصابت الضربة جسده بقوة، واهتزت ذراعاه وصولًا إلى عموده الفقري. هزَّ رأسه ولفَّ كتفيه ليخفِّف من التأثير، فهو لم يفعل هذا منذ فترةٍ طويلة، لكنه شعر بارتياح.

- ماذا تفعل؟!

تجمَّع بعض السكان بسرعةٍ خلفه. ضرب الجدار مرةً أخرى.

- توقف! من تظُن نفسك؟

تجاهلهم ليو وضرب مرة أخرى، مُخترِقًا الجدار. وقال: «هناك شيء خلف هذا الجدار». بدأ الحصى يتساقط على الأرض، وكشف خلفه جدارًا مكسورًا من الجبس. لقد اخترق أيضًا بابًا خشبيًّا، وبقيت الشظايا متعلقةً بقطع الجبس التي تناثرت على الأرض.

صمت الحشد الصغير خلفه للحظةٍ، ثم عادوا للحديث بحماسة: «إنه باب! إنه ممرٌّ! هناك شيءٌ خلف الجدار!» «لا، إنه ممرٌّ سريٌّ»، «لا بدَّ أنه غرفة»، «هل تعتقد أن هناك شخصًا مدفونًا خلف هذا الجدار؟»، «ألا تصدق أن هذا كان موجودًا طوال الوقت؟!».

ناولت بيبي ليو مصباحًا كهربائيًّا أحضرته من السيارة، وأخذ ليو يتفحص المكان خارقًا ظلامه. وجد دَرَجًا حجريًّا شديد الانحدار يؤدي إلى الأسفل، لكنه يمتدُّ في اتجاهٍ معاكسٍ لقبو المبنى. خلع ليو معطفه وعلقه على الدرابزين. ثم طوى أكمامه.

نظر ليو إلى حشد السكان، ورأى أنَّ معظمهم من كبار السن، بنظاراتٍ سميكة، وظهورٍ مُنحنية، وقال: «ابقوا هنا. قد يكون المكان خطِرًا».

ثم حشر جسده داخل الفتحة.

نزل ليو بصعوبةٍ عبر درجٍ غير مستوٍ وضيِّق، حيث أحاطه الهواء الراكد. وعندما نظر إلى الخلف، رأى عدة وجوهٍ تتزاحم عند الفتحة، تتطلع إلى رؤية ما يحدث. كان الباب قد أُغلق بإحكام، وما من إشارةٍ لوجوده سوى التفاوت الطفيف بين الجدار والأرضية. كم مرة، على مر السنين، تم طلاؤه وتغطيته؟ استطاع ليو أن يخمِّن متى ولماذا أُخفِي: للحماية من المصادرة.

وصل إلى أسفل الدَّرج وألقى نظرةً حوله. كانت الجدران مبنيةً من طبقاتٍ من الحجر، ومغطاةً بالجبس، وعلى عكس الفوضى في الشقق الصغيرة أعلاه، كان المكان مرتَّبًا على نحوٍ مُذهل، ومليئًا بصناديق خشبيةٍ صلبةٍ وأثاث. فوجئ ليو باتساع المكان. مرَّر ضوء المصباح على الغرفة ببطء، مُقدِّرًا حجمها: 250 في 150 في 240 سنتيمترًا مكعبًا، حسب تقديره.

سمع صوت حركةٍ فوقه، من المؤكد أنهم سيحاولون النزول في أي لحظة. توجَّه إلى صفٍّ من الصناديق على طول أقرب جدار، ووجدها مغلقةً بأحزمةٍ حديدية، لم يستطع أن يفتحها وحده باستخدام المصباح وسكين الجيش السويسري الصغير الذي أخرجه من جيبه.

اقترب ليو من خزانة سوداء اللون، ومزخرفة، وجذب أحد مقابض الأدراج، فوجده عالقًا. حوَّل وزنه وجذب بقوةٍ أكبر. صدر صوتُ تشقُّق، وخرج الدَّرج بصعوبةٍ من مكانه. سلَّط ليو المصباح إلى داخل الدَّرج، فرأى داخله مجموعةً صغيرةً من الجواهر المصنوعة من اليشم: رموز، وخرز، وأساور، وتمائم. رفع إحدى القطع إلى الضوء، ورأى خفاشًا صغيرًا بحجمٍ يناسب خاتم سيدةٍ، أو قلادةٍ لسلسلة.

سمع صوت بيبي تناديه من الأعلى: «هل كلُّ شيءٍ على ما يرام؟ أتريدني أن أنزل إليكَ؟».

- أنا بخيرٍ، بيبي! امنحيني لحظةً. المساحةُ هنا ضيِّقةٌ للغاية، سأصعدُ بعد قليل.

إذا تأخر طويلًا في الأسفل، قد يُتَّهم بسرقة هذه الكنوز، وإذا سمح للسكان بالنزول، ماذا سيبقى أصلًا؟ صرخ: «بيبي، اتَّصلي بالتطوير العمراني فورًا، واطلبي منهم أن يأتوا بأسرع وقتٍ ممكن».

كان ليو على استعدادٍ لتسليم كلِّ شيء، فمع هذا الاكتشاف، ستكون الدعاية كافيةً لتأمين فرصته في الفوز بالمناقصة. فتح درجًا آخر ليجد عشرات القضبان الذهبية الرفيعة، فتناول أحدها ومسحه على قميصه وعضَّه ليختبر صلابته، ثم، ودون الكثير من التفكير، أدخل القضيب في جيبه، وانتزع أيضًا خفاشًا صغيرًا من اليشم، راغبًا في تحويله إلى قلادةٍ لزوجته إيكو.

صاحت بيبي: «ليو، الناس يريدون النزول!».

- لا تسمحي لهم! فالنزول إلى هنا ليس آمنًا. ثمَّة عفنٌ، والأرض زَلِقة.

خرجت الأكاذيب من فمه بسرعةٍ وسهولة. أسند قدمه على الحائط وبجهدٍ سحب أكبر درجٍ في الخزانة. ماذا توقَّع أن يجد؟ شعر بخيبة أملٍ عندما رأى أن الدُّرج مليءٌ بالورق، وبالأعمال الفنية واللفائف، ولم يجرؤ على لمسها، فالورق القديم هشٌّ، ويداه كانتا قذرتين.

استمرَّ في البحث. ووجد في دُرجٍ آخر مجموعةً من الأمشاط والدبابيس، على شكل زهورٍ وطيورٍ وفراشات. هل انتقلت هذه الأشياء من جيلٍ إلى جيل؟ لا بدَّ أن بناته سيُغرمن بها. هل سيؤول مصيرها إلى متحف؟ احتوت الخزانة على مجموعةٍ من الكنوز النسائية، والتي

ربما كانت مهرًا أصليًّا. فكَّر ليو في العائلة التي لا بدَّ أنها عاشت هنا، وبالسيدة التي أحبت مجوهراتها ودبابيسها لدرجة أنها أخفتها هنا قبل أن تُسرق.

قد تكون تلك السيدة جدته، التي ودَّعت الثروة الكبيرة بدورها. بالطبع، كان ذلك قبل أن يُصادر هذا المنزل، وقبل تقسيمه، وقبل انتقال عائلة والدته إلى الطابق الثاني. ماذا يوجد في تلك الصناديق؟ ربما المزيد من الكنوز أو الوثائق. مكتبة سُر مَن قرأ

أراد ليو بضع ساعاتٍ أخرى مع هذا المكان السري. وكان يبحث عن شيءٍ ما. عن ماذا؟ عن أدلَّة، عن جزءٍ من التاريخ أكثر أهميةً من الذهب، وربما عن إشارةٍ إلى والدته. بحث بلهفةٍ، كما يفعل عندما يفقد شيئًا ما، كجوربٍ في الصباح قبل التوجُّه إلى المكتب، أو هاتفه قبل دخول المصعد. لماذا؟ لأنه قضى حياته كلها يبحث عن أسباب كونه على ما هو عليه، يبحث عن تاريخه الخاص، عن جذوره، عن ماضيه الذي يمكن أن يحدِّد مستقبله وكل ما قد يكون. لم يترك والداه شيئًا خلفهما. لم يحفظا شيئًا. ما الذي كان هناك ليُحفَظ؟ لقد قُتلا مبكرًا جدًّا، قبل أن يتركا له الكثير من الذكريات.

لمن تعود هذه الأشياء؟ ربما سيتضح كلُّ شيءٍ في النهاية. سليلٌ لسليلٍ لسليل، وبجميع الأحوال، لن يكون ليو هذا السليل. أدرك فجأةً وبما لا يدع أي مجالٍ للشكِّ أنه لن يعيش هنا، سيرمِّم المكان، نعم، ولكن ليس مع إيكو والبنات في ذهنه. الغرفة السرية ستصبح، على الأرجح، نظرًا لحجمها وموقعها، قبو نبيذ.

قرع ليو على الصناديق ليمرِّر الوقت بينما ينتظر وصول المسؤولين. ومع كل قرعةٍ، أشعره الصوت القصير والمقتضب للخشب في غرفةٍ

عديمة الهواء، بأنه يبتعد أكثر فأكثر عن هذا القبو، وعن هذا المبنى، وعن والدته، وعن عائلته. أخيرًا، جلس فوق أحد الصناديق وأغمض عينيه، شاعرًا كأنه ملكٌ مجهول، مدفونٌ بين كنوزٍ في عُمق هرم، في قبرٍ منسيٍّ منذ زمنٍ طويل.

حذارِ أيها القلبُ الصغير

يونيو / حزيران 2028

استيقظت كيكو في الصباح، وقلبها مثقلٌ بالحزن. كانت قد تعلمت مؤخرًا في درس اللغة الصينية أن الحزن يتكون من كلمتَي «مكسورٍ» و«قلبٍ» معًا، وأن اللُّطف يعني «جيدًا» و«قلبًا» معًا، وأن الحذر هو «صغيرٌ» و«قلبٌ» معًا.

غرق قلب كيكو بالحزن لأنها تفتقد آيِي، فضلًا عن كرهها للذهاب إلى المدرسة، ورغبتها في ألا تعود إليها أبدًا. لماذا عليها أن تذهب؟ كانت تحب البقاء في البيت مع أمها، وتتمنى لو أن عطلة نهاية الأسبوع تدوم إلى الأبد. لكنها فجأةً تذكرت أن اليوم هو بالفعل عطلة نهاية الأسبوع، وأن هذا اليوم هو يوم الأميرة، فشعرت فجأةً بالسعادة («منفتحٌ» و«قلبٌ» معًا).

في المدرسة، سألت لماذا يوجد الكثير من الكلمات المتعلقة بالقلب؟ وإذا كان القلب مفتوحًا، ألن يكون أيضًا مكسورًا؟ جاوبتها المعلمة غاو

بقولها: «القلب مهمٌّ»، لكنها لم تجد هذا الجواب مرضيًا بالنسبة إليها، فهي تكره حين يُجيب الكبار بهذه الطريقة.

عاد الحزن إلى كيكو مرةً أخرى، فأطلقت عويلًا طويلًا متواصلًا، إذ تذكَّرت أنه في السنة الماضية، كانت آبِي والصغيرة، والرقيقة، والدافئة هي التي تساعدها في ارتداء ملابسها كل صباحٍ، أما الآن، فوالدتها تكتفي بإعطائها الملابس وتطلب منها أن ترتديها بنفسها، دون أن تهتم فيما إذا كانت الجوارب مقلوبةً أو موضوعة بالطريقة الصحيحة. بعد أن بكت لبضع دقائق دون أن يأتي أحدٌ إليها، خرجت كيكو من السرير وفتحت الباب.

كانوا قد بدأوا في تحويل غرفة المعيشة إلى قلعة! وثمَّة امرأةٌ منهمكةٌ في نفخ البالونات، بأعدادٍ كثيرةٍ إلى الحدِّ الذي راحت معه تغطِّي الأرض، بألوانها المتنوِّعة: الوردي والبنفسجي والأبيض والبرتقالي، وهي الألوان المفضلة عند كيكو. ركضت ووقفت في وسط البالونات، وبدأت ترميها في الهواء. خرجت أمها من المطبخ مرتديةً مئزر الخَبز، وقالت: «عيدُ أميرةٍ سعيد، يا أميرتي الصغيرة».

صاحت كيكو: «ماما! هل تصنعين كعكة؟» وفجأة تلاشت الابتسامة من وجهها، وأخذت ملامحها تتقلص في محاولةٍ حثيثةٍ لمنع نفسها من البكاء، لكن الشعور بالحزن -قلبها المكسور- عاد مرةً أخرى. وأضافت: «لقد بدأتِ في صُنع الكعكة من دوني!».

ردَّت أمها: «أوه، يوكيكو-تشان، كنت أنتظر أن تستيقظي وتأتي إلى المطبخ. تعالي. لقد بدأت للتو في إخراج المكونات. سنتناول بعض الحبوب في أثناء الخَبز».

مسحت كيكو عينيها بكمِّ قميصها وتوجَّهت إلى المطبخ. صعدت على سُلَّمها الصغير ونظرت إلى الدقيق، والبيض، ودقيق الخبز، والسكر،

والزبدة، والزينة الوردية، ورقائق الشوكولاتة، وقد رُتِّبت جميعها في أوعيةٍ صغيرةٍ على الجزيرة الوسطى للمطبخ.

قالت كيكو وهي تمسك بوعاء: «ماما، أريد أن أخلط المكوِّنات».

شرعوا بإنجاز العمل، حيث ساعدت كيكو والدتها في صُنع الكعكة، وأشرفت على سيدة البالونات، التي راحت تجهِّز القلعة ببطءٍ باستخدام مجموعةٍ معقَّدةٍ من الأسلاك والعصي. كانت السيدة اللطيفة ترمي أحيانًا ببالون أو اثنين إلى كيكو عندما تطلُّ من الداخل.

قرَّر والدا كيكو الاحتفال هذا العام بطريقةٍ مختلفةٍ عن السنوات السابقة، حيث أقاما «يوم الأميرة» بدلًا من حفل عيد ميلادٍ تقليديٍّ. في محاولةٍ للتغيير، إذ كانت كيكو تحتفل بأعياد ميلادها على مدار حياتها، ومن بين هذه الحفلات: حفلة «هيلو كيتي» عندما أتمَّت الرابعة، وحفلة «يونيكورن» في عيد ميلادها الثالث، وحفلة أرانب في عيد ميلادها الثاني، وحفلة قوس قزح في عيد ميلادها الأول.، وقد اختِير هذا العنوان الأخير، وفقًا لتعبير أمها: «لأنكِ كنتِ طفلة قوس القزح خاصتنا»، حيث اعتادت أن تُطلق عليها هذا اللقب كثيرًا، لأن كيكو وُلدت بعد فقدان شقيقتها الثالثة، التي لم تلتقِ بها. ورغم أن كيكو شاهدت صورًا من تلك الحفلات كلها، إلا أنها لا تذكر سوى القليل منها.

لم تُنظِّم هذا العام شقيقتاها أيضًا حفلاتٍ بمناسبة عيدَي ميلادهما، بل اختارت يُومِي في ديسمبر الاحتفال بالسفر، فسافرت العائلة إلى باريس لقضاء عطلة نهاية الأسبوع حيث تناولوا الطعام، وتجوَّلوا، ثم تناولوا الطعام مجددًا حتى شعروا بالتعب والشبع. كانت الرحلة تشبه أي عطلةٍ أخرى، باستثناء أن والدها جعلهم يجلسون في المقاعد الصغيرة على متن الطائرة، وليس المقاعد الكبيرة. أما يوكو، التي وُلِدت

في نوفمبر، فاختارت الذهاب مع والدها إلى القبة السماوية، ولم تذهب كيكو معهم لأنها كانت في درس الباليه.

كان والداها يتحدثان كثيرًا عن خطط أعياد الميلاد، والدها كان يقول إن الفتيات لديهن أشياء كثيرة، وأن الحفلات ترسل رسالةً خاطئة، وكانت كيكو تعلم أن أمها تريد إقامة الحفلات، لكنها قالت إنها ستقلِّل من كمية الأشياء التي تشتريها للفتيات. لكن والدها يصرُّ ويقول لها: «قطعًا لا»، ويطلب منها أن: «تتحكم في إنفاقها».

وعندما جاء شهر يونيو وسألاها ماذا تريد في عيد ميلادها، كانت كيكو مستعدةً للإجابة، أرادت يوم الأميرة! فقد أقامت صديقتها المفضلة، كورتني، حفلة عيد ميلادها قبل شهر وكانت حفلةً تحت شعار الأميرة، حيث حصل الجميع على زجاجات ماءٍ عليها صور الأميرات ليأخذوها معهم إلى المنزل، وكانت زجاجة كيكو تحمل صورة «بياض الثلج».

بعد أن وضعت الكعكة في الفرن، غسلت أمها أيديهما في الحوض ثم أخرجت خاتمًا من جيبها. كان يحتوي على حجرٍ ورديٍّ باهتٍ مرصَّعٍ في دائرة من الأحجار البيضاء اللامعة، مثل الخاتم الذي ارتدته أمها في زفافها، ويشبه زهرةً جميلةً ولامعة.

- هل هذا...؟

قالت أمها: «صه... نعم، إنه خاتم الأميرة، ومخصَّص فقط لأروع أميرةٍ بين الأميرات الصغيرات. لكن لا يمكنك إخبار أي أحد أنني أعطيتكِ إيَّاه، فهذا خاتم الأميرة السري السحري».

صاحت كيكو بسعادة، وهي تضعه في إصبع السبابة: «شكرًا لكِ، ماما. سأرتديه كل يومٍ من أيام حياتي».

- يا حبيبتي، ماما تحبكِ كثيرًا. عيد ميلادٍ سعيد، من دون عيد ميلاد!

- وأنا أحبكِ كثيرًا أيضًا. والآن يجب أن أذهب لأتفقد قلعة البالونات الخاصة بي!

اقترب قصر البالونات من الاكتمال، إذ بدأت المرأة بلفِّ البالونات الوردية في أعلى البرج لتشكِّل قمةً مدبَّبة. دخلت كيكو إلى القصر ونظرت إلى الأعلى وحولها، ووجدت أنَّها محاطةٌ بالوردي والأرجواني والبرتقالي، وأنها داخل قصرٍ حقيقيٍّ من البالونات، مُخصَّص لها فقط، وفيه نافذةٌ يمكنها النظر من خلالها. صاحت كيكو: «ماما! أريد أن أرتدي فستان الأميرة! أين فستاني؟».

- في خزانتكِ، يا عزيزتي.

- أريد ارتداءه!

- اذهبي إذًا وارتديه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- أحتاج إلى مساعدة.

- حاولي بنفسكِ أولًا.

توجَّهت كيكو إلى غرفتها، لكنها لم تكن سعيدةً، ولم يكن قلبها مفتوحًا للفرح. لو أن آيي هنا، لكانت ساعدتها في ارتداء الفستان، ومشَّطت شعرها، ثم سرَّحته على هيئة ضفيرتين تلتفان معًا في الخلف، وهي التسريحة التي اعتادت آيي تسميتها: «تاج شعر كيكو». عبثت كيكو بالفستان واستدعت والدتها.

عندما دخلت إيكو الغرفة، وجدت الصغيرة جالسةً على سريرها بأكمام الفستان معلقة على نحوٍ غير صحيح على ذراعيها.. بدأت عينا كيكو تدمعان، وقالت: «ماما، أنا أفتقد آيي».

- أوه، أعلم يا كيكوتشان. أنا أيضًا أفتقدها.

ساعدت إيكو ابنتها في ارتداء الفستان، ثم مشَّطت شعرها، وصنعت لها ضفائر مماثلةً تمامًا لتلك التي تصنعها آيي.

- انظري، ماما، قلتُ لكِ إنني بحاجةٍ إلى المساعدة.

- أنتِ على حقٍّ، يا صغيرتي.

سمحت لها والدتها بالاختيار بين التاج الأزرق والتاج الوردي، واختارت كيكو التاج الوردي.

- ماما، يمكنكِ أن ترتدي التاج الأزرق اليوم.

- أوه، لا أحتاج إليه. أنتِ الأميرة اليوم.

- ماما، من فضلكِ. يمكنكِ أن تكوني الأُم الأميرة.

- تقصدين الملكة؟

- نعم، الملكة.

- حسنًا.

وضعت إيكو التاج على رأسها.

- ماما، أنتِ جميلةٌ جدًّا.

- لكنني لستُ بجمالكِ، يا حبيبتي.

- هذا صحيح. لكنكِ تبدين لطيفةً للغاية.

- هيَّا نذهب لتحضير الكعكة.

بعدما أنهيتا تزيين الكعكة، تناولتا الإفطار على الطاولة، وتزامن ذلك مع عودة والد كيكو ويوكو ويومي من تمرين كرة القدم الصباحي.

صاحت كيكو عندما دخلت أختيها المنزل: «يومي، يوكو! انظرا إلى قصري!»، واقترب والدها ليشاهد القصر أيضًا، ثم توجَّه إلى المطبخ للتحدث مع والدتها.

سمعت كيكو والدتها تقول: «إنها ليست هديَّة، إنها تجرِبة»، فتحت كيكو باب المطبخ ورأت أن والدها كان على وشك قول شيءٍ آخر، وكان وجهه متجهِّمًا. فقالت له: «بابا! يجب أن تكون الأمير!»، لكنه استمر في الحديث مع والدتها، وسمعت كيكو كلامًا كثيرًا غير مفهوم، مثل: قيمة المال. مدلَّلة جدًّا. راحت كيكو تدفعه نحو غرفة المعيشة، وهي تطلب: «بابا، احملني!» حملها والدها، لكنه كان عابسًا. ضغطت كيكو على جبينه بأصابعها حتى أصبح أملسًا خاليًا من التجاعيد. ثم عانقته بقوةٍ، وقالت: «بابا، لا تكن سيئًا. إنه يوم حفلة عيد ميلادي غير الحقيقي. هيًّا لنقاتل الساحرة الشريرة!». ابتسم، وأجابها: «ومن هي الساحرة الشريرة؟ أمك؟».

- لا!

ثم اقتربت وهمست في أذن والدها: «إنها يُومِي». خفض والدها صوته ليطابق همس كيكو، وسألها: «وكيف نحارب هذه الساحرة الشريرة؟».

- علينا تغطية سريرها بورق الحمَّام!

- لماذا؟

- حتى لا تتمكن من النوم. وعندها ستكون متعبةً للغاية لدرجة أنها لن تستطيع العمل بالشكل الصحيح.

- من علّمكِ هذه العبارة؟

- سمعت ماما تقولها.

- أوه.

ركلت كيكو كعب قدميها في بطن والدها كما علمها مُدرب الفروسية لتجعل الحصان يتحرك أسرع، وصاحت: «هيًّا بنا!».

- ابدئي أنتِ، سألحق بكِ قريبًا.

أنزلها فجأةً، وربَّت على مؤخرتها، ثم عاد باتجاه المطبخ. لم تشعر كيكو بالرغبة في تغطية سرير أختها بورق الحمام وحدها، لذا عادت لتجلس في قلعتها. جمعت دماها من النمور وأجلستهم في حلقةٍ حولها، وبدأت تبوح لهم بكل أسرارها. قالت: «عندما كنت صغيرة، كنت أخاف من الخفافيش. آسفة، لا يستطيع النمور القفز صعودًا وهبوطًا على ذيولهم. قلت لماما وبابا إنني لا أحب المدرسة، لكن في الحقيقة أنا أحبها جدًّا. وأنا أحب كورتني. حسنًا، يجب أن أكون صادقةً: ما زلت أخاف قليلًا من الخفافيش».

ثم رتَّبت النمور كأنها في حفلة شاي، وجعلتها تغنِّي «حلقة حول الوردة» (Ring Around the Rosie)، لكنها وجدت صعوبةً في تحريكهم جميعًا في دائرة في الوقت نفسه، فتخلَّت عن الأمر وخرجت من قلعتها. كانت يوكو تراقبها من على الأريكة. سألت كيكو: «هل تريدين اللعب؟» هزت يوكو رأسها بالإيجاب واقتربت من القلعة. دارت حولها عدة مراتٍ وهي تحملق فيها. قالت كيكو: «إنها قلعة النمور، وأنا أميرة النمور. زئير!» سألت يوكو: «هل يمكنني تفكيكها؟».

- لا! لا يمكنكِ!

دفعت كيكو يوكو بعيدًا عن الهيكل. ابتعدت يوكو، لكن والدَيهما خرجا من المطبخ. كانت الأم تحمل الكعكة وتوجَّه الجميع إلى غرفة الطعام. قال والدهم: «اسمعن، يا فتيات، هذا العام لن تكون هناك هدايا كما تعلمن. بدلًا من ذلك، سنقدم لكيكو هديةً مختلفة. سنقول جميعًا شيئًا سنهديه لها هذا العام، شيئًا لا يكلِّف مالًا». بقيت عينا كيكو

مُعلقتين على الكعكة، كانت تعرف أن بداخلها الكثير من الشوكولاتة. قال والدها: «سأبدأ أولًا، بالنسبة إليَّ سأمنح كيكو دروس رياضيات كل عطلة نهاية أسبوع! حسنًا. إيكو، دوركِ؟» قالت الأم: «بالتأكيد. سأهدي كيكو الكثير من الحُب»، أما يُومِي، فقالت: «حقًّا؟ هذا سهلٌ جدًّا»، ردت إيكو: «حسنًا، وماذا ستهدين أختكِ؟».

- سأذهب لمشاهدة دروس الباليه الخاصة بكيكو خمس مرات.

صرخت كيكو بفرحٍ: «رائع!»، إذ لطالما أرادتْ أن ترافقها يُومِي إلى دروس الباليه، فهي تحبُّ أن تُرِي معلماتها مهاراتها وتفخر بأختها.

- ما رأيكِ بجعلها ست مرات؟

أجابت يُومِي: «حسنًا، ست مرات». سأل والدهم: «وأنتِ يا يوكو؟». ردَّت يوكو: «لا أعرف».

- يمكن أن تختاري أي شيء.

- لا أعرف.

دفنت يوكو وجهها في يديها. فقال والدها: «لا بأس. فكِّري في الأمر. يا كيكو، ستحصلين على الحُب ودروس الرياضيات ويُومِي في دروس الباليه. كم هذا رائع؟»، أضافت كيكو: «وأنا سأكون الأميرة!»، ردَّ والدها: «بالطبع».

- وأنتَ يمكن أن تكون أميري.

اعترضت يُومِي: «الأميرة يجب أن تتزوج أميرها. والدكِ متزوجٌ بالفعل»

- حسنًا، يمكنه أن يتزوجني أيضًا.

قالت يوكو: «الأمور لا تسير بهذه الطريقة». وعندها ردَّت كيكو غاضبةً: «بلى! تسير هكذا!» شعرت كيكو بالحزن مجددًا، كأن قلبها قد

كُسر مرةً أخرى وكانت على وشك البكاء. قال والدها مهدئًا: «لا بأس. يمكننا أن نجعل ذلك يحدث. هل نأكل الكعكة الآن؟ هل لي بقطعةٍ صغيرة، من فضلك». ردَّت كيكو بحزمٍ: «لا يا بابا! يجب أن تأخذ قطعةً كبيرة. أنا صنعتُ هذه الكعكة!».

- حسنًا. قطعة كبيرة إذن.

أوقدت إيكو الشموع الخمس، وقالت: «أميرة كيكو، تمنِّي أمنية».

أغمضت كيكو عينيها وتمنت: أن تعود آيي سريعًا إلى المنزل، وأن يحصل الجميع -خاصةً هي- على كميةٍ لا نهائيةٍ من الشوكولاتة، وليس فقط في عطلة نهاية الأسبوع، وأن تحصل على نمرٍ صغيرٍ حقيقيٍّ كحيوانٍ أليف، وأن يبقى والداها سعيدَين دائمًا. بالرغم من أن القلب المفتوح السعيد قد يكون مكسورًا، أليس كذلك؟ إذن، ربما السعادة والحزن وجهان لعملةٍ واحدة.

وأطفأت كيكو الشموع كلَّها.

هانامي[1]

فبراير / شباط 2028

- لقد تركتُ جدَّكن في موسم أزهار الكرز لعام 1993. في اليوم الأخير من مارس/آذار.

- أوكاسان، ليس عليهنَّ سماع هذا.

- حسنًا، ربما أرغب في إخبارهن.

- إن كان لا بدَّ من ذلك، فتوخِّي اللُّطف رجاءً.

- أنا لطيفةٌ دائمًا!

- ماما، أنتِ لطيفةٌ في المظهر، والحديث معكِ لطيفٌ للغاية، وقصصكِ لطيفةٌ أيضًا، نعم.

---

(1) هانامي: مصطلحٌ ياباني، ويعني «مُشاهدة الزهور». وهي عادةٌ متبعةٌ في اليابان، تتمثَّل في تأمل منظر الزهور وهي متفتحة، وغالبًا ما يقصد اليابانيون في حديثهم عن الزهور، تلك المتعلقة بشجرة الكرز (ساكورا). (المترجمة)

- قولي لي، متى تصرَّفتُ بغيرِ لطفٍ معكِ؟
- أتريدين الصراحة؟

غمزت دافني لحفيداتها، وقالت: «آه، لا يهم. لماذا لا تنشغلين بما عليكِ فعله؟»، فضحكن. رفعت إيكو عينيها نحو السقف وصعدت الدَّرج، تنادي على بناتها: «سأكون في مرسمي إذا بدأت جدتكنَّ بقصص الرعب».

- عزيزاتي، أين كنت قبل أن أُقاطَع بهذه الطريقة الفظَّة؟ آه، نعم. في اليوم الأخير من مارس/ آذار 1993، قبل أيامٍ من ذروة الإزهار. الشيء المُميَّز في هانامي هو أن الجميع دائمًا ما يكونون سعداء. أتذكرن عندما ذهبنا العام الماضي؟ سعادةٌ، سعادةٌ، سعادة. لكن في عام 1993، كنت بائسةً، واستمرَّ ذلك لفترةٍ طويلة.

«أتعلمن؟ كان جدُّكن هو الابن البِكر، وليس ذلك فقط، بل أيضًا الابن البِكر للابن البِكر، وفي زماننا كانت هذه الأمور مهمة. أوه، وأعتقد أنها لا تزال مهمة. سأعطيكنَّ مثالًا: أتذكَّر مرةً، صفعني على وجهي -وكنا في السيارة مع العائلة كلِّها- لأن إيكو أرادت فتح النافذة ولم أسمح لها. في مُنتصف الشتاء! ابن البِكر للابن البِكر، أتفهمن؟ لقد عاملني بهذه الطريقة. (أوه، ولكن بعد أن تركتُه، كان يجب أن ترَيْنه وهو يتوسل لعودتي، ولإعادة والدتكنَّ إلى المنزل)».

«في ذلك العام، كانت الأزهار في أوُجِّ جمالها. أتذكر أنني أخذت إيكو في نزهةٍ على طول تتسوجاكو نو ميشي، طريق الفيلسوف. كانت بتلات الأزهار تغطي الأرض، كأنها ثلج الربيع. (بالمناسبة، حين خطبني جدُّكن، كان يقول إنني النسخة الحقيقيَّة من ساتوكو. هذا من ميشيما. ستقرأن له عندما تكبرن، وعندها ستتذكَّرنني. ستتذكَّرن هذا اليوم)».

«كلُّ تلك البتلات على الأرض. الجميع يحملون كاميراتهم الفيلميَّة. لم يكن الأمر كما هو الآن. لكن في الحقيقة، كان كذلك، أليس كذلك؟ أعينٌ مغطاةٌ بنوافذ صغيرة، لا أحد ينظر مباشرةً إلى الأشياء. لم أكن أملك كاميرا، بل لم أكن أملك أيَّ شيءٍ في ذلك البيت. لم أستطيع حتى تناول قطعة شوكولاتة دون أن تُعرض عليَّ من والدته، التي كانت دائمًا هناك، دائمًا تراقب، وتنتقد، وتشي بي».

«بدأت إيكو تفهم الأمور أيضًا. كانت أصغر منكِ يا يوكيكو، لكنها رأت كيف يعاملونني، كما لو أنَّني مجرد خادمةٍ في المنزل، وبدأت هي أيضًا تتعامل معي بالطريقة نفسها، وتتحدث إليَّ بازدراء، وبالنسبة إليَّ، كان هذا الجزء الأصعب. الضربات؟ تحمَّلتها وصبرت، فكلُّ امرأةٍ يابانيَّة في سنِّي... حسنًا، أنتنَّ لا تعرفن، لكن الأمور تغيرت قليلًا. لكن أن تنظر إليَّ ابنتي بازدراء! هل تُدرِكن ما الذي كانت ستصبحه؟ هكذا عرفتُ أن الوقت بدأ ينفد مني.

المنزل القديم، حيث ما يزال جدكنَّ يعيش هناك الآن، مع زوجته الخامسة، أليس كذلك؟ هذا يخبركن بشيء، أليس كذلك؟ ذلك المنزل كان لا يُطاق. ربما من الممكن تحمُّله في الصيف، لكن في الشتاء، كانت والدته تحتل مكانها بجانب المدفأة، ولا تشارك أحدًا. أما جدكنَّ فيعشق البرد، ويقول إنه يجدِّد نشاطه، ويقف دائمًا في صفِّ أمِّه، ويقول إنني لا أحتاج إلى أن أشعر بالدفء، وأن المدفأة مخصَّصةٌ فقط للنساء العجائز، والأطفال.

كما تعلمن، نشأت في مجمَّعٍ سكنيٍّ «دانشي»، وليس في ذلك النوع القديم من بيوت كيوتو، بل في مبنى شققٍ ضخم. الناس الآن يقولون عنه «الأحياء الفقيرة»، نعم، كنَّا نطلق عليه «أقفاص الأرانب» أو «أوساجي غويا»، لكن بحُب.

والدي كان في الخامسة عشرة من عمره عند نهاية الحرب، ولم يتمكن أبدًا من الذهاب إلى الجامعة ليصبح باحثًا، كما حلم. عمل قليلًا، لكنه قضى معظم وقته في قراءة الكتب. لم يتحدث يومًا إلى جيراننا، إذ اعتبر نفسه أفضل منهم، أفضل من الدانشي. لكنني أحببتُه، أحببتُ نشأتي هناك، مع أصدقائي ومغامراتنا. أحببتُ العُشب، والنوافير. لا أحد كان يراقبنا، لذلك، يمكنكن أن تتخيَّلن الانتقال من ذلك إلى المنزل الكبير حيث كنتُ وحيدةً معها دائمًا، وممنوعةً من الخروج دائمًا.

وكما تعلمن، كنتُ من الفتيات اللواتي أحببن الاستمتاع بوقتهنَّ والخروج. التقيتُ بجدكنَّ في الخارج. نعم، في الديسكو. حسنًا، لا حاجة إلى القول إنه بدا لطيفًا عندما التقينا. وكنتُ بدوري لافتةً للنظر أيضًا. أوه، في ذلك الوقت، كنتُ أمشط شعري للخلف، وأحدِّد عينيَّ بالكحل على نحوٍ ظاهر، راسمةً أجنحةً مثل الخناجر، بالإضافة إلى اللون الفضِّي اللَّامع على حاجبيَّ. هاها! كان يجب أن ترَيْنني آنذاك. الفساتين القصيرة هنا، والقمصان المنخفضة هناك. فتيات، يجب أن تستمتعن بجمالكنَّ بينما تمتلكنَه، كنَّ مثيراتٍ طالما تستطعن!

كنَّا نخرج إلى النوادي، والمطاعم التي تقدِّم كل ما يمكنكِ أكله. رأينا «بينك ليدي»! مرتين! كنتُ أمتلك قبعة «بينك ليدي»، وزوجًا من أحذية التزلُّج التي تحمل العلامة نفسها. كنتُ أعشقها. لا؟ لا تعرفن «بينك ليدي»؟ سأضطر إلى تشغيل بعض الأغاني لكن. «بي جيز»؟ «Stayin' Alive»؟ لا؟ آه، آه، آه، آه، stayin' alive؟ يا فتيات، أنتنَّ تقتلنني.

في ذلك الوقت، هل تعلمن ماذا كانوا ينادونني؟ كانوا ينادونني «بيردي Birdie»، و«بادي Badi» بسبب عيناي وأجنحة الكحل. لم أكن أحمل اسم «دافني»، فهذا الاسم لم أستخدمه إلا بعد أن بدأت العمل في فرنسا.

لكن جدكنَّ. ذلك الرجل البائس كان يجيد الرقص، أقول لكنَّ هذا. أتذكر في عام 1979، في حفلةٍ في نادي بتال تحت عنوان «ليلة للسيدات فقط»، وكان علينا أن نذهب، كنَّا نذهب دائمًا، أنا وكل صديقاتي من الدانشي. أنا -بيردي- في كعبٍ عالٍ كان يشبه أسلحة الساموراي. أوه، كنَّا خطِرات. «I’m So Glad That I’m a Woman.” “Lady Marmalade.” “Le Freak.” “Hot Stuff». نعم، هذه الأغاني التي كانت تُعزف عندما التقيتُ بجدكنَّ، وكنتُ أرقص بحريَّة، تحت الأضواء اللَّامعة، وهناك كان هو مع أصدقائه في الزاوية المقابلة من أرضية الرقص. كان يمتلك شاربًا في ذلك الوقت، شاربًا هزليًّا. رقصنا نحو بعضنا البعض ثم حول بعضنا، مثل الحيوانات التي تستعد للمعركة.

يا فتيات، الرجل لا يكون أبدًا كما يبدو في الديسكو. تذكرن هذا. إنه يكشف عن حقيقته فقط في المنزل.

إذن، نعم. هانامي».

«كانت فكرة الرحيل تدور في ذهني منذ فترة. في ذلك اليوم، وأنا أسير مع إيكو على طول الممر، أدركت أن الزهور ستستمرُّ في التفتُّح ثم الذبول، كما تفعل دائمًا، ثم تتفتح مجددًا، وتذبل مجددًا. هل ستكون حياتي هكذا إلى الأبد؟ لم أكن بحاجةٍ إلى كاميرا لألتقط صورًا للأشجار، إذ لن يتغير شيءٌ على الإطلاق. لكن الأمر الأهم، الذي كان بحاجةٍ إلى إنقاذ، هو إيكو. أُمكنَّ.

في اليوم التالي مباشرةً، ذهبت للتقديم على تأشيرةٍ لفرنسا. هل تعلمن كم كان من الصعب الحصول على تأشيرةٍ في ذلك الوقت؟ كنت بحاجةٍ إلى توخِّي السرية في كلِّ شيء. كنت أقتصد في القليل الذي يعطيني إيَّاه جدكنَّ كبدل طعام (كان بخيلًا، دائمًا بخيلًا، ولهذا السبب،

رغم أنني لم أمتلك شيئًا أبدًا، تعلَّمت متى يجب الإنفاق عند الضرورة)، وأكلنا البطاطا والجذور لبضعة أسابيع، لأتمكن من ادِّخار بعض المال بعد الرحيل. الرجل الذي كان يُعالج طلب التأشيرة سألني عن خطاب الإذن بأخذ إيكو خارج البلاد. كاد يرفض طلبي. لن أخبركنَّ كيف حصلتُ في النهاية على تلك التأشيرات، فهذه قصَّةٌ أخرى ليومٍ آخر. عندما تكبرن.

غادرنا قبل أن تتفتح آخر الأزهار. أنا وإيكو تظاهرنا بأننا متجهتان إلى السوق. لم أحمل سوى سلتي، وكانت مبطَّنةً بكلِّ ما استطعت جمعه من النقود التي خبَّأها جدكنَّ في غرفة النوم. عندما وصلنا أخيرًا إلى باريس، قمتُ بتحويل المال إلى الفرنكات، وتجولنا في المدينة طوال فترة بعد الظهر. لقد فوجئت برؤية أشجار الكرز هناك أيضًا، وكانت في حالة تفتُّح. نزلنا في أول فندقٍ وجدته. تلك الليلة، وأنا وحدي مع والدتك، حرةٌ أخيرًا، شعرت بخفةٍ وانتعاش، كأنني تحرَّرت من عبءٍ ظلَّ يضغط عليَّ لفترةٍ طويلة.

يجب أن تتخلَّص الأشجار من زهورها. أدركتُ أن تلك الجماليات الزائدة عن الحاجة تُشكل عبئًا ميتًا عليها، مثل مجموعةٍ من الأظافر الهشة، أو الشعر الطويل للغاية. عندما تسقط الأزهار، تستطيع الأشجار مدَّ أصابعها المتعرجة العارية في الهواء، لتتنفس الشمس والمطر. كنت فقط على وشك الدخول في أدفأ فصول حياتي.

آه، يا فتيات، الجدة تحتاج إلى مشروبٍ وقيلولةٍ صغيرة. هل نأخذ استراحةً قصيرةً من حكاياتنا؟».

أجابت يُومِي ويوكو: «نعم، جدتي»، أما كيكو، فكانت قد غفت. كان ذلك بعد وقت الغداء بقليل، وما زالت أحيانًا تأخذ قيلولة. سحبت دافني شالها على كتفيها، ورفعت نفسها من على الكرسي الصلب، ويداها

ممسكتان بالهيكل الخشبي الأشقر الذي يلتفُّ في تصميمٍ معقَّدٍ حول وسادةٍ رقيقة. قالت وهي تمشي نحو السلالم متجهة إلى غرفة الضيوف: «لا أعلم لماذا تشتري والدتكما أشياء قبيحةً وغير مريحةٍ هكذا».

نظرت يوكو إلى يُومِي وسألت: «هل هذا صحيح؟ هل هذا ما حدث لأمي؟».

- لا أعلم. لقد سبق وقالت أُمي ألا نثق بكلِّ ما تقوله الجدة، وأن ننظر إليه بعين الشك، ألا تذكرين؟

- أوه، صحيح.

ارتدت الفتاتان، اللتان تبلغان من العمر تسع وسبع سنوات، حذاءيهما وخرجتا للعب في الفناء الخلفي، حيث كانتا تبنيان حصنًا من الأغطية القديمة المُعلَّقة على كراسي الفناء.

خَدَر

ديسمبر/ كانون الأول 2026

تقضين صباحاتكِ في التأمُّل، وفي تأمُّلاتكِ، ترين حدائق، حدائق طفولتكِ: حدائق كيوتو، وحدائق «كارسنسوي»، حيث تترتَّب الرمال والحجارة بعنايةٍ لتخلق حالةً من السكون والصمت.

وفي تأملاتكِ، تتزاوج تلك الحدائق مع حدائق أخرى سبق وزرتِها في حياتكِ: حدائق في باريس، وفي صقلية، وفي سوتشو وقويتشو. وتتدفَّق حصى الحدائق الحجريَّة من مدرج أرزٍّ إلى آخر، وتتحرَّك كما يتحرك الماء، وتُصدر الحجارةُ وهي تنهمر فوق بعضها البعض صوتًا، يبدو كأنه أبديٌّ.

تنبض الحدائق بالحياة. الزهور، وشجر البونساي، والنحل الطنان، يا لها من سكينة! تتنفَّسين بعمقٍ، فلا أحد يستطيع أن يمسَّ حديقتكِ. في تأملاتكِ، أنتِ دائمًا وحدك. ترتفع الأشجار من حديقة «لوكسومبورغ» بين صخور العلماء من حديقة «مدير التواضع». يحوم طائرٌ طنَّانٌ

صغير بحجم راحة يدكِ -لا، بل أصغر، طائرٌ طنَّانٌ وليد- داخل وخارج ثقوب الصخور. وتسبح سمكة «كوي» ضخمةٌ في بركةٍ قريبةٍ ببطءٍ ذهابًا وإيابًا، تراقبكِ، وفمها البشع مفتوحٌ في المياه الخضراء العكرة.

تفتحين عينيك لتجدي نفسك على شرفة منزلكِ. الشمس مُشرقة، والخادمة تزيل الغبار عن الخزائن في الداخل. تذهبين إلى المطبخ لتحضِّري لنفسكِ كوبًا من «الموجيشا» المثلج، وتستمر صورة سمكة «كوي» في مُطاردتكِ. ماذا تريد منكِ؟ من دعاها إلى حديقتكِ؟ تُدركين، بشيءٍ من الخوف والاشمئزاز، أنها كانت تريد أن تلتهم الطائر الطنَّان الصغير. أرادت منكِ أن تطعميها إياه.

تجلسين على مكتبكِ لجمع ألوانكِ، يناديكِ الخيطُ الحريريُّ البرتقالي، إذ تُريد سمكة «كوي» أن تُخلق، أن تُبعث للحياة، لكنكِ ترفضين. وبدلًا من ذلك، تسحبين خيطًا أخضر زمرديًّا، أخضر كالعشب، وخيطًا أزرق ملكيًّا، ثم أسود ورماديًّا للريش، وأبيض للبطن الناعم، وفي النهاية خرزة عقيقٍ صغيرةٍ للعين.

في الماضي، كنتِ مضطرةً إلى رسم تصاميمكِ أولًا ثم نقلها إلى القماش. أما الآن، فإنك تخيطين مباشرةً، دون الحاجةِ إلى رسمٍ مُسبَق. ترين التصميم كاملًا أمام عينيكِ، وتتخيلين العملية برمتها، مثل الرسام الذي يبدأ برسم خط الرموش السفلي للعين، بدلًا من رسم الوجه البيضاوي المثالي.

أضعفت السنوات الطويلة من التعامل مع الإبرة والخيط بصركِ، وبعد ساعةٍ من الخياطة، تأخذين استراحة وتفتحين موسوعة الطبيعة الخاصة بكِ: الطائر الطنَّان يعيش بين ثلاث إلى

خمس سنوات، الطائر الطنَّان يتذكر كلَّ زهرةٍ وكلَّ مغذِّية طيورٍ زارها، ويدخلُ في حالةٍ من السبات تُسمى: «الخَدَر» عندما يشعر بالتعب أو الجوع، هذا الطائر الوليد بحجم قطعةٍ نقديةٍ صغيرة، الذي لا يستطيع الطيران. كما أن الطيور الطنَّانة لا تتزاوج مدى الحياة.

ستنتهين من عملكِ قبل الغداء، لأنكِ بعد الظهر ستذهبين لاصطحاب ابنتك الصغرى من الحضانة التي تقضي فيها نصف يومها، ثم ابنتكِ الوسطى من صفٍّ التعليم الخاص؛ فهي ليست جاهزةً بعد للمدرسة العادية. لكن قبل ذلك، وفي أثناء قيلولتهما، ستتأملين مرةً أخرى، قبل أن يتحوَّل صوت خطوات أربع أقدامٍ إلى ستة. ثم، في السابعة، صوت رش الماء في حوض الاستحمام على البلاط البارد، وفي الثامنة أصوات الاحتجاج على موعد النوم، وفي النهاية، في التاسعة ستسمعين كلمة: «أبي!» عندما يعود والدهم إلى المنزل، ويوقظهم جميعًا بينما هم يغفون في أثناء استماعهم لقصتهم الأخيرة. وأخيرًا، يحلُّ الصمت بعد التاسعة والنصف، هو في مكتبه وأنتِ عائدةٌ إلى مكتبكِ. كلُّ الأضواء مضاءة، بينما تثبِّتين خرزة العقيق اللَّامعة على وجه الطائر الجميل.

ستعودين إلى حديقتكِ قبل النوم، قبل التحية الباردة: «تصبحين على خير»، تلك الحديقة التي تتغير وتنمو مع كلِّ زيارة. الحديقة اليابانية، والحديقة الصينية، والحديقة البريطانية البرية المليئة بالأعشاب المتشابكة. جميع حدائق حياتك، بنباتاتها وحيواناتها، وجذورها المتداخلة التي تتشابك تحت التربة، والشمس. والنفس، والريح، والعطر، وسنجابٍ صغيرٍ يقضم كستناء، وفراشةٍ تخرج، ثقيلةً ورطبةً، من شرنقتها المُتشقِّقة.

ابنةُ قلبي

فبراير/ شباط 2020

كانت دوروتيا قد بلغت قرابة أربعة عشر شهرًا عندما أخبرني والداها أنهما سيعودان إلى البرتغال، مما يعني أنه لم يبقَ أمامي سوى عشرين يومًا فقط أقضيها معها.

صدمني قرارهم بالرحيل، رغم أن هذه ليست المرة الأولى التي أفارق فيها عائلة، إذ غالبًا ما تنتهي الأمور على نحوٍ مفاجئ، بحيث لا يمكن البتَّة أن تكوني مُستعدَّةً تمامًا. في يومٍ ما، تطاردان بعضكما في الحديقة، أو تشتريان الخضراوات معًا من السوق لتحضير الغداء، وفي اليوم التالي، تجدين نفسك وحيدةً في الشارع، لا شيء معكِ سوى حقيبتكِ، وإن كنتِ محظوظةً، مُغلف كمكافأة نهاية الخدمة، وربما لن تري الطفلة مرةً أخرى أبدًا.

تجنَّبت والدة تيا النظر مباشرةً في وجهي وهي تتحدث: «آيي، هل يمكنني التحدثُ معك؟» هكذا بدأت، وهي الطريقة التي كانت تناديني

بها دائمًا عندما تريد الإشارة إلى شيءٍ بحاجةٍ إلى تحسين، أو تريد أن تطلب طلبًا ما. لم أقل شيئًا وكتمت دموعي بينما راحت تشرح لي التفاصيل، وزوجها جالسٌ بصمتٍ إلى جانبها. أخبراني أن سبب الانتقال يُعزى إلى الفيروس الذي انتشر مؤخرًا في جميع أنحاء الصين، فتيا الصغيرة بحاجةٍ إلى الخروج واللعب، وبحاجةٍ إلى الالتحاق بالحضانة، وقد أصبح البقاء في شانغهاي خطرًا للغاية. كانوا قد بحثوا خيار اصطحابي معهم إلى البرتغال، وتأمين تأشيرة عملٍ لي، لكن الأمر تعثَّر وتعذَّر تحقيقه.

بالطبع، شعرتُ بالاستياء، واعتمر الغضب في داخلي نتيجة إشعارهم المُتأخِّر، والسريَّة التي خططوا بها لكلِّ شيء، وإقدامهم على الرحيل، وأخذ تيا الصغيرة بعيدًا لكنني كنت أحمل الطفلة في تلك اللحظة، وكانت تحتضن عنقي برفقٍ، وتنادي: «آيي آيي»، تناديني. لمست خدها الصغير المثالي وقلتُ: «نعم، نعم، آيي هنا».

قالت والدتها: «لن يكون الأمر سهلًا على تيا»، وبعد لحظةٍ أضافت: «لن يكون سهلًا على أيٍّ منَّا».

هل كانت تفكر في نفسها، تلك التي تنام حتى الظهر ولم تغيِّر حفاضةً لتيا طوال حياتها؟ أم أنها تفكِّر في زوجها، الذي يخصِّص يوميًّا عشر دقائق من وقته فقط ليلعب مع الطفلة بعد العمل قبل أن آخذ تيا للاستحمام؟ أم أنَّها تفكر بي، أنا التي قضيت تقريبًا كلَّ لحظةٍ من وقتي مع تيا منذ كان عمرها ثلاثة أسابيع؟

كنت آمل أن أبقى معهم حتى تقاعدي بعد عدَّة سنوات، وأن أشهد ولادة شقيقٍ لتيا، أو على الأقل أن أراها تكبر وتتحول إلى طفلةٍ صغيرة. سألتُ: «هل حُسِمَ أمر رحيلكم؟».

- نعم، لقد حُسم. اشترينا تذاكر الطائرة وسنغادر في العاشر من فبراير/ شباط.

اعتذرتُ منها، وسلَّمت تيا إلى والدتها، ودخلت إلى غرفتي وأغلقت الباب. كانت غرفتي هي أيضًا غرفة تيا، إذ أنام على مرتبةٍ بحجم طفلٍ على الأرض، بجانب سريرها. وفي يومٍ ما ستكون المرتبة لتيا عندما تنتقل إلى سريرٍ للأطفال.

فكرت في كلِّ هذا الوقت، كيف كانوا يخططون لهذا اليوم، اليوم الذي سأفارقهم فيه. تمدَّدتُ على سريري، وضغطت وجهي في الوسادة وتركت نفسي أبكي. حرصت على ألا يسمعوني -فأنا أعرف مدى ضعف عزل الصوت بين غرف الشقة- وتركت الخبر يتسلَّل إلى داخلي ببطءٍ حتى أصبح حقيقة.

أخرجتُ بطانيةً صغيرة من سرير تيا واستنشقت رائحتها، وكانت مزيجًا من رائحتها ورائحتي، فقد امتزجت روائحنا. نظرتُ إلى البطانية المليئة بالخِراف الوردية الصغيرة، وأقسم أنها كانت المرة الأولى التي فكرت فيها في أهل تيا، وتساءلت: هل سيفتقدون هذه البطانية إذا اختفت؟

أدركت فجأةً واقع وضعي: يجب أن أحصل على وظيفةٍ جديدة في غضون عشرين يومًا، بالإضافة إلى مكانٍ جديدٍ للعيش. ولكن كيف يمكنني فِعل ذلك وأنا لا أستطيع مُغادرة الشقة، بينما على الأرجح أن أصحاب العمل لا يجرون مقابلاتٍ في هذه الظروف؟ الجميع كان خائفًا من الفيروس. لم يسمح والدا تيا لي حتى بالخروج إلى الممر لرمي القمامة. من سيكون مستعدًّا لتوظيف مربيةٍ داخل بيته في هذا الوقت؟

ثم بدأت أفكِّر في المال، هل سيدفعون لي حتى نهاية الشهر؟ وماذا عن المكافأة المُستحقَّة لي في رأس السنة القمريَّة؟ أخذت أتشجع، ونظرت إلى كاميرا هاتفي لأتأكد من أن عينيَّ ليستا منتفختين، ثم خرجت للتفاوض.

كانت والدة تيا تحملها، وما إن خرجتُ من غرفة النوم، حتى مدَّت تيا يديها نحوي، فأخذتها وأجلستها على وركي الأيسر، ويدي حول بطنها. لم يتبقَّ لي سوى عشرين يومًا معها، وبعدها سأُحرَم من رؤيتها وهي تركض، ولن أسمع جملها الأولى، ولن أرى كيف ستصبح مشاكسةً في سن الثانية. هذه الأفكار جعلتني أرغب في البكاء مجددًا. وضعت تيا إصبعها في أنفي، فقلت لها تلقائيًّا: «أنف، أنف».

جلست والدة تيا على الأريكة وأشارت إليَّ بالجلوس أيضًا. وضعتُ تيا على حضني، ووجهها إلى الجانب حتى يستطيعا رؤيتها أيضًا. قالت: «إن زوجي على معرفةٍ بمنتدى ينشر فيه الأجانب توصياتٍ عن مُربيات الأطفال، وسنضيف معلوماتكِ عليه. سنساعدكِ في العثور على وظيفةٍ بأسرع وقتٍ ممكن»، أومأ والد تيا عندما ترجمت له زوجته ما قالته بالإنجليزية، فهو بُرتغالي، وقد التقى بها قبل أربع سنوات هنا في شانغهاي.

قلت: «شكرًا لكما، لكنني لا أتصور أن إيجاد عملٍ في هذه الظروف سيكون سهلًا».

- سنحرص على جعلها توصيةً ممتازة.

أومأت برأسي وأنا أفكِّر: ما الذي يمكنني فعله أيضًا؟ قررتُ أن أفتح الموضوع. كان عليَّ أن أدافع عن نفسي. فقلت: «ماذا بشأن راتبي الأخير؟».

فأجابوني بأنهم سيحسبون مكافآتي بالتناسُب مع المدة، وسيدفعون مُستحقاتي حتى نهاية الشهر.

وإذا لم تجد وظيفةً أخرى خلال العشرين يومًا القادمة، يمكنك البقاء في منزلنا حتى نهاية عقد الإيجار، رغم أنه سيكون فارغًا...».

قاطعها والد تيا، وبدأوا يتحدثون فيما بينهم. لم أتمكن من فهم سوى بضع كلمات مما قالوه، مثل «آيي»، و«يوم»، و«تيا»، و«اذهبي». قبل تلك اللحظة، كنت فخورةً بنفسي لأنني تعلمت الكثير من الكلمات الإنجليزية خلال العام الماضي في أثناء عملي مع هذه العائلة الأجنبية. ولكنني أدركت، وأنا جالسةٌ هناك، وتيا على حضني، قلقةً بشأن مستقبلي وما كان يخططه لي أصحاب العمل، أن معظم الكلمات التي التقطتها كانت بلا فائدة، ومكتسبةً من الألعاب الإلكترونية التعليمية التي كنت أضعها أمام تيا لتلهيها في أثناء تغيير حفاضاتها: «عصفورٌ»، «موزةٌ»، «شمسٌ»، «قمرٌ».

نظرت حولي في الشقة الصغيرة ذات الغرفتين والحمَّام الواحد، الواقعة في الطابق الأرضي، بنوافذها التي بالكاد يدخلها الضوء، وأرضياتها الرطبة التي يصيبها العفنُ في الصيف. لقد كنت سعيدةً في هذا المكان الضيق الكئيب، على الرغم من اضطراري إلى ارتداء حذائي داخل الشقة لأن والد تيا، الأوروبي، لم يكن يحب خلع حذائه.

لكن كيف ستكون هذه الشقة دون تيا؟ كيف يمكنني البقاء هنا بمفردي دونها؟ وكيف أستطيع العيش بعيدًا عنها أصلًا؟ تذكرت بشيءٍ من الارتياح مجموعةً اعتدت أن أكون عضوةً فيها، حيث أستطيع نشر خدماتي، وراحت أفكاري تتأرجح بعنفٍ بين الحزن العميق، والاعتبارات العملية.

حان وقت قيلولة تيا، فأخذتها إلى غرفتنا، وأحكمت ضمها إليَّ أكثر مما كان ضروريًّا، وفجأةً ندمت على الأوقات التي شعرتُ فيها بالتعب أو الملل أو الانزعاج وسط يومٍ طويل، لو أنني فقط علمتُ أن تلك الأيام معدودة. أزحتُ خصلات شعرها الداكنة التي بدأت تنمو وتحيط بوجهها، ونظرت إلى عينيها المثقلتين بالنعاس، ورموشها الكثيفة والطويلة، وفمها الذي يشبه في شكله القلب، وشفتيها الرقيقتين، وذقنها المدبب. كانت أجمل طفلةٍ رأيتها في حياتي. لكن هل هذا صحيح، أم أن تحيُّزي إليها بوصفي مربيتها هو ما يجعلني أراها كذلك؟ حدقت إليها وأنا أهزها بين ذراعيَّ، وأسير بها متخطيةً سريري، متبعةً مسارًا على شكل الرقم ثمانية، وهي الحركة التي اعتدت اتباعها عندما أجهزها للنوم. لم أكن بحاجةٍ حقًّا إلى هزها بعد الآن، لكنني لم أكن أستطيع أن أضعها على سريرها بعد، ليس اليوم.

لم تكن تيا جميلةً بحق وهي صغيرة، أي عندما كانت بالكاد تبلغ شهرًا من العمر، بفمها العريض الذي يشغل نصف وجهها، وعينيها المتجعدتين، وشعرها الذي يشبه شعر رجلٍ في منتصف العمر تراجع خط شعره في قوسٍ عميق. كمربية، تأملين دائمًا أن ترعي طفلًا جميلًا، ذا شخصيةٍ لطيفة، يتمتَّع بمهارات نومٍ جيدة. لكن تيا لم تمتلك أيًّا من هذه الصفات. بل حملت تلك الفتاة، ومنذ البداية، طبعًا حادًّا، إذا ما أخذتُ منها لعبتها المفضلة -كلبٌ محشوٌّ بحجم كفِّ يدي- تصرخ بأعلى صوتها، وإذا ما انتهت من زجاجة الحليب، تصرخ بأعلى صوتها، وفي حال أعطيتها زجاجةً إضافية على الفور، تصرخ بأعلى صوتها، كأن لسان حالها يقول: لقد فات الأوان، ضاعت فرصتكِ في تصحيح الأمر! ويا له من صراخ. كانت تحدق إليك بعينيها البُنيَّتين الكبيرتين

المُتجعدتين، كأنها تقول: «أنا أفهم كلَّ شيءٍ، وألومكِ بالكامل، ولن أسامحكِ أبدًا».

غفت تيا بعمقٍ بين ذراعيَّ. كم مرةٍ تحمَّلتُ نوبات غضبها! كم مرةٍ ألقت بزجاجات الحليب، ولعبها، وملابسها! وكنت أقول لأمها دائمًا: «انتظري فقط حتى تبلغ السنتَين، نحن في ورطةٍ معها».

لكنني لن أرى تيا تبلغ عامها الثاني، لن أراها تتحول إلى تلك الفتاة المُشاغبة، لن أحظى بفرصة تأديبها، أو تدليلها، أو الإجابة على أسئلتها الفضولية عن العالم. وضعتها في سريرها، فهي تنام نومًا أعمق هناك، وإن لم تحصل على قيلولةٍ جيدةٍ في مُنتصف اليوم، ستعاني من مزاجٍ سيئ طوال فترة الظهيرة، لكنني لم أستطع منع نفسي من لمسها، إذ مرَّرت يدي على جبينها، ومشطتُ خصلاتها الناعمة بأصابعي، تحركت قليلًا على إثر لمساتي، فتراجعتُ ببطء.

***

اعتنيتُ ببعض الأطفال من قبل، وجميعهن كنَّ فتياتٍ، ولطيفات، وكانت عائلاتهن جيدةً بما يكفي، بعضها أكثر تطلُّبًا من غيرهم، وبعضهم أكثر تعقيدًا. ولكن ما شعرتُ به تجاه أولئك الأطفال لا يُقارن بما شعرتُ به تجاه تيا، حتى مشاعري تجاه ابني، الذي ربَّاه أجداده في القرية والذي أصبح الآن في سنِّ الزواج، بدت خافتةً بالمقارنة. ربما يعود السبب في ذلك إلى أنني رافقتُ تيا منذ أيام حياتها الأولى، أو ربما لأن والدتها اختارت ألا تُرضعها، فأصبحت أنا من يطعمها في كلِّ وجبة، ليل نهار، حليبًا صناعيًّا، وربما بسبب كل الجهد الذي بذلته في التعامل مع نوبات غضبها. أيًّا يكن السبب، كانت تيا شيئًا مختلفًا بالنسبة إليَّ، شيئًا مميزًا.

لم أبدأ العمل كمربيةٍ إلا قبل سبعِ سنوات، بعد الحادثة، التي لن تُمحى من ذاكرتي يومًا. حدث ذلك في يوم امتحان قبول ابني في الثانوية العامة، إذ اجتاحت عاصفةٌ ثلجيَّةٌ كبيرة دونغبي، وكنت أعمل في المصنع، بدوامٍ إضافيٍّ عوضًا عن صديقتي في محطة تقطيع النقانق المُجفَّفة، إذ كانت تُجري مقابلة عملٍ في مصنعٍ آخر في الطرف الآخر من المدينة. شردتُ بأفكاري وأنا أتساءل: هل ينبغي أن أغيِّر مكان عملي أنا أيضًا؟ فأنا لم أعد صغيرة، والوقوف طوال اليوم محملقةً في خط إنتاج النقانق بدأ يُثقل على رقبتي. هل يجب أن أطلب إجازةً لبضعة أيام لأعود إلى البيت وأعتني بابني، شي لينغ؟ لأطبخ له كعك الأرز الحار المفضل لديه، وأتمنى له التوفيق في امتحاناته؟ كنت أفكر في تلك الكعكات عندما أنزلتُ السكين بقوة على المفصل الأخير من إصبع يدي اليسرى الرابع. اندفع الدم فورًا، ولكن استغرق الأمر مني بعض الوقت لأدرك ما الذي يحدث، وأشعر بالألم. عادت الفتيات على يميني ويساري إلى العمل فورًا، إذ ليست هذه المرة الأولى التي يرين فيها شيئًا مشابهًا: إصبعًا، أو ظفرًا، أو قطعة لحمٍ، أو جزءًا أكبر من اليد.

وفي النهاية، حصلت على إجازةٍ مبكرة. رسب ابني في امتحان القبول، وبدأتُ أبحث عن وظيفةٍ جديدة. استغرق الأمر ثلاثة أسابيع حتى تشفى يدي تمامًا، كنت أعتني بها بنفسي في المنزل باستخدام القطن والشاش، ومطهر الكحول، والآيودين، والثلج الطازج. كان الألم لا يحتمل، وحتى الآن أشعر أحيانًا بالألم، وأشعر أحيانًا أن الجزء المفقود من إصبعي لا يزال يتحرك.

خلال إجازتي من المصنع، اقترحت إحدى معارف صديقتي أن أفكِّر في العمل كمربيةٍ في شانغهاي، وأخبرتني أن الدخل جيِّد، ويساوي ضعف ما أتقاضاه في المصنع، وإذا انتقلت للعيش مع العائلة، يمكنني

أن أوفِّر على نفسي نفقات الطعام وبدل الإيجار أيضًا. فكرتُ في العودة إلى المصنع، حيث كنت أملأ النقانق التي بحجم إصبعي المفقود، واللحم المفروم ذا اللون الأحمر القاني، والمتفكِّك مثل جرح يدي المفتوح الذي استمرَّ لما يقرب من أسبوعين.

اجتاحت الحمى جسدي لأيامٍ بينما كنت أقاوم العدوى، ولم أرغب بالعودة إلى هناك أبدًا. اتصلتُ بزوجي لأخبره أنني أفكر في الانتقال إلى شانغهاي لأعمل كمربية. الذي كان يعمل، في ذلك الوقت، في موقع بناءٍ لمركز تجاري في نينغبو، وكنت أرسل إليه صورًا ومقاطع فيديو كل يوم توثِّق تحسُّن يدي. فسخر قائلًا: «هل تظنين حقًّا أنكِ قادرةٌ على الاعتناء بالأطفال ويدكِ بهذه الحال؟ أهل شانغهاي لن يحبوا أن تعتني بهم امرأةٌ شماليَّةٌ مثلنا. ومع يدكِ المشوهة؟ حظًّا موفقًا!».

حفَّزتني شكوك زوجي على الإصرار على النجاح أكثر، إذ إن قسوته معي في سنوات زواجنا الأولى، وخياناته المتكررة، تركت في نفسي جروحًا لن تلتئم أبدًا. لكن عندما ذكر شي لينغ، اتخذتُ قراري.

- أنتِ لم تقومي بتربية ابننا حتى، فما الذي يجعلكِ تظنين أنكِ قادرة على تربية أطفال الآخرين؟

أغلقت الخط وحجزت تذكرتي إلى شانغهاي.

***

ربَّيتُ ابننا حتى بلغ عامه الأول، ثم سلَّمته إلى أهل زوجي عندما غادرتُ للبحث عن عملٍ في مصنعٍ للألعاب، ومن ثم في مصنع النقانق. كان زوجي محقًّا في شيءٍ واحدٍ فقط: ماذا كنت أعلم آنذاك، وماذا أذكر الآن؟ كنت في السادسة والعشرين عندما وُلد شي لينغ، ولم يكن لديَّ اهتمامٌ كبيرٌ بأن أكون أمًّا. كل ما أردته هو العثور على عمل، وكسْبُ المال، والابتعاد عن زوجي. حتى قبل أن أغادر، كنت أتلقَّى مساعدةً من

والديَّ في رعاية ابني. ولكن، إذا كانت النساء في جميع أنحاء العالم قادراتٍ على تربية الأطفال، فهل يمكن أن يكون الأمر بهذه الصعوبة؟

أعطتني تلك الصديقة معلومات اتصالٍ بوكيل، وجئتُ إلى شانغهاي على متن قطارٍ بطيء، في رحلةٍ استغرقت أربعةَ أيام. دفعتُ ثمن دورةٍ تدريبيَّة لمدة ثلاثة أيامٍ في رعاية الأطفال، حصلت على إثرها على شهادة، واجتزت الفحص الصحي في العيادة المحليَّة. بهذه الوثائق، تمكَّنت من تحصيل أول وظيفةٍ لي، لرعاية طفلةٍ عمرها خمسة أشهر حتى بلغت عامين. كان الأمر أسهل بكثيرٍ، وأفضل بكثيرٍ من العمل في المصنع، ناهيك بالأجر الجيِّد أيضًا. بعد تلك الطفلة، توليت رعاية طفلةٍ أخرى لمدة عامٍ تقريبًا، وبعدها ثالثة كانت في مرحلة المَشي، ثم جاءت تيا.

قبل مغادرة تيا بيومين، كنت لا أزال أبحث عن عمل، وكان والداها منشغلين بتعبئة آخر ممتلكاتهم في صناديق للشحن، والطفلة مضطربةٌ وحائرة، كأنها تدرك أن تغييرًا كبيرًا على وشك الحدوث، ومرتبكةٌ بسبب اختفاء الأثاث قطعةً بعد الأخرى. شعرت أنا أيضًا بالتوتُّر، إذ كنت بحاجةٍ ماسةٍ إلى العمل، إلى استمرار تدفُّق المال، ليس فقط لأنني خططت للمساهمة في بناء منزل ابني، الذي سيعيش فيه يومًا ما مع زوجته المستقبليَّة، بل لأننا كنَّا نمر بأزمةٍ عائليةٍ في مسقط رأسي، فقد قُبِض على زوج أختي الصغرى وابنتها بسبب تورطهما في عملية احتيالٍ استثماري، وكنَّا جميعًا نجمع المال لتقديمه كهديةٍ للشرطة المحلية لضمان الحصول على حقِّ الزيارة. وبالتالي، لم يكن بمقدوري أن أتحمَّل بقائي بلا عملٍ لفترةٍ طويلة.

بعد أن نشرتُ إعلاناتي في مجموعات المربيات عبر الإنترنت، واتصلت بوكالةٍ اشترطت أن تأخذ راتب الشهر الأول كاملًا، وأجريت عدة مقابلاتٍ عن طريق الفيديو مع عائلاتٍ محتملة، اقتربتُ من العثور على عائلةٍ مُستعدةٍ لتوظيفي، كانت عائلةً من سكان شانغهاي المحليين، وهي عائلةٌ كبيرة، من النوع الذي لا أُفضِّله، فالأجداد غالبًا ما يكونون مزعجين، وحاضرين دائمًا في المنزل يطرحون آراءهم هنا وهناك، أو يرغبون بالدردشة باستمرار. في النهاية، قرروا عدم توظيفي. حاول الوكيل أن يكون لطيفًا، لكن العائلة، وببساطةٍ، لم ترغب في مربيةٍ من دونغبي. هذه هي عادة أهل شانغهاي: دائمًا ما يعتقدون أنهم أفضل من الجميع.

رحتُ ألهث بحثًا عن عملٍ، وأرسل رسائل كلما وجدت وقتًا، وأقضي الليل كلَّه على هاتفي، أرسل سيرتي الذاتية إلى هذه الوكالة وتلك، كما طلبتُ من أصدقائي أن يسألوا أصدقاءهم. وفي تلك الأثناء، كان والدا تيا قد انتهيا مني، لم يطلبا مني أن أطبخ أو أنظف بعد الآن، ولم يرغبا في أن أُقدِّم مساعدتي لهما في حزم الحقائب، لكنني لم أشكُ، لأن ذلك أعطاني المزيد من الوقت مع تيا، وأتاح لي فرصةً أكبر للبحث عن وظيفةٍ جديدة.

قبل أن أحجز سريرًا في نُزُلٍ للعمالة المنزلية -سريرٌ علويٌّ في غرفةٍ تتَّسع لثمانية أشخاصٍ، مع حمَّامٍ مشتركٍ في الممر، وإقامةٍ مجانية في حال استعدادي لتقديم المساعدة في الطهي- تلقيت رسالةً من امرأةٍ على معرفةٍ بوالدة تيا، كانت هي وزوجها يسعيان للاستغناء عن مربية النهار، لصالح مربيةٍ مُقيمة، وذلك لتقليل خطر الإصابة بالفيروس. رتبنا مكالمة فيديو لتلك الليلة، بعد أن تنام تيا.

جلستُ في زاوية المطبخ الصغير، أنتظر، وفي تمام الساعة الثامنة، اتصلوا. اقتربت وجوههم الوسيمة من الشاشة، وبدوا أناسًا طيِّبين. لم

يسبق أن وظَّفوا مربِّيةً مُقيمةً من قبل، لذا قبلوا على الفور بشروطي المالية، رغم أنني خاطرتُ وطلبت مئتي يوان إضافيَّة عن راتبي السابق مع تيا. كنَّا جميعًا يائسين في زمنٍ غريبٍ مليءٍ بالإحباط. سألوني سؤالَين فقط: هل أمانع عدم مغادرة شقتهم لبعض الوقت حتى تهدأ الأوضاع المتعلقة بالفيروس؟ لم أمانع، فليس لديَّ أيُّ مكانٍ أخطط للذهاب إليه. وفوجئت عندما سألوني إن كنت أحتاج إلى أي متطلباتٍ خاصة منهم، مثل حجم الغرفة أو السرير، أو حتى وجود تلفاز. لم يسبق أن سألني أحدٌ هذا السؤال من قبل في كلِّ سنوات عملي. لماذا سأطلب شيئًا كهذا؟ أخبرتهم بصدقٍ أن كلَّ ما أحتاج إليه هو مكانٌ للنوم. ثم أضفت: «ثمَّة شيءٌ واحدٌ فقط»، وأريتهم عبر الهاتف إصبعي المتضرر. سألوني عنه، كيف حدثت الإصابة، وبدأ الأب يترجم كلامي إلى لغةٍ أخرى لزوجته، وبعدها استفسر منِّي ما إن كانت الإصابة في إصبعي تعيقني عن أداء بعض المهام، فأجبت بالنفي، وأنه لا يؤثر على عملي أو حياتي بأيِّ شكل. وهكذا انتهى الأمر، واتفقنا أن يأتي الأب ليأخذني في يوم مغادرة تيا نفسه.

***

شعرت تيا أن ذلك اليوم الأخير مختلف، لكنها لم تفهم ماهيته. كانت تزحف في أنحاء الشقة الفارغة، تضرب الحقائب وتصرخ فرحًا، كان المظهر جديدًا بالنسبة إليها، والأطفال دائمًا يحبون كلَّ ما هو جديد. ربما ظنت أنها ستذهب إلى مطعم، أو في نزهةٍ نهاريةٍ مع والديها، كما كانت تفعل أحيانًا (أحيانًا قليلة لا كثيرة).

راقبتُها وهي تستكشف المساحات الواسعة التي أصبحت ملعبًا جديدًا في الشقة. وأخيرًا وصلت الشاحنة وجاء والدَاها يحملان آخر حقائبهما إلى الشارع. قلتُ وأنا أقف في المدخل، ممسكةً الباب لوالديها: «وداعًا يا

تيا، سأشتاقُ إليكِ كثيرًا، كثيرًا». اعتقدت تيا أننا نودِّع والدها، الذي كان يختبئ كل صباحٍ في غرفته للعمل. واستمرَّت في التلويح بيدها، قائلةً: «باي باي، دادا». قبلتُ وجنتيها الناعمتين، اللتين كانتا أقرب إلى اللون الأصفر من الوردي، إذ ورثت لون بشرتها من والدتها الصينية، وليس من والدها.

لمستُ يديها وقدميها الصغيرتين، وفركتهما بين يديَّ، وأنا أعضُّ أصابع قدميها بالطريقة التي تحبها، لتندفع ضحكاتها وتدفئ قلبي، لكن تملؤه أيضًا بحزنٍ عميقٍ ومخيف. لن أسمع ضحكاتها بعد الآن، تلك القهقهات المشاغبة. تيا الصغيرة! ضممتُها بقوةٍ حتى دفعتني بعيدًا، لكنني أمسكت رأسها بين يديَّ وقبَّلتُ خدَّها مرارًا وتكرارًا، وانغسلت وجنتاي بدموعي التي لم أستطع حبسها.

عندما حان وقت تسليم تيا لوالديها، أردتُ أن ألتقط صورًا، لكن في الوقت نفسه لم أرد أن أتركها للحظةٍ واحدةٍ كي أذهب وأُحضر هاتفي من غرفتنا. احتضنتُ تيا وقبَّلتُها قبلةً أخيرة على خدها. ربَّتت أمها على ظهري، وأعربت عن أسفها لأن الأمور انتهت بهذه الطريقة، وأنني كنت أفضل مربيةٍ يمكن أن يأملوا بها. شعرتُ بالحرج، مسحت دموعي وأدرت وجهي، ثم أعطيتُ الأُم ابنتها، والتفتُّ لأراهما يبتعدان. حدث كلُّ شيءٍ بسرعة، وكانت تيا تراقبني من فوق كتف والدتها وهي تسير مبتعدةً، وتقول: «آيي؟ آيي؟». انهرتُ في موجةٍ من البُكاء الحار، وتقاطرت الدموع على وجهي، وفمي يتلوى في تعبيرٍ عن الحزن العميق. رأيت عينَي تيا متعلقتين بي، تتجعدان استعدادًا لنوبة بكاءٍ عارمةٍ من نوبات غضبها الشهيرة.

يا ليتني أستطيع أن أركض إليها، أن أضمها بين ذراعيَّ وأواسيها بالطريقة التي أعرفها. أدركت أن والدتها ستضيع في حيرتها، وتكون

مرتبكةً ومتعبةً، ستربِّت على ظهر تيا على نحوٍ متوتِّرٍ، وتبحث عن شخصٍ ليساعدها. في مخيلتي، كنت قد خرجتُ بالفعل من الباب وجلست في السيارة مع تيا، أساعدها على تجاوُز هذه الرحلة الصعبة، رحلتها الأولى. لكنني لم أستطع التحرُّك من المدخل، لأنني تشبَّثتُ بالباب الذي سيُغلق ويُقفل تلقائيًّا، ولم أكن أملك مفتاحًا.

***

وجدتُ العائلة الجديدة مثاليةً من حيث المظهر، فالأم شابةٌ، وجميلةٌ، ويابانية. أما الأب فوسيمٌ وغنيٌّ، ومن أهل المدينة. وبالنسبة إلى الشقَّة، فكانت فسيحةً وحديثةً ومشرقة، وزُيِّنت بدرجاتٍ مختلفةٍ من اللون الرمادي. أعطوني غرفةً خاصةً بي، بها نوافذ تمتدُّ من الأرض إلى السقف، وتطلُّ على ناطحات السحاب في وسط شانغهاي من الطابق الثلاثين، على عكس الغرفة الصغيرة التي كنت أشاركها مع تيا في الطابق الأرضي على أطراف بودونغ.، كما مُنِحتُ في مكاني الجديد سريرًا بحجمٍ ملكيٍّ وملاءاتٍ ناعمةً جدًّا، حتى أنني لم أفهم تعليمات غسيلها لأنها كُتبت باللغة اليابانية.

في ليلتي الأولى هناك، شعرت بوحدةٍ عميقةٍ لدرجة أنني كدت أبكي. فالطفلة، يُومِي، نامت طوال الليل في غرفتها الفسيحة، وقد أصرَّ والدها على أن يعتني بها بنفسه في حال استيقظت ليلًا. لم يكن لديَّ ما أفعله، فجلستُ على حافة سريري الواسع، أنظر إلى أضواء المدينة التي أصبحت موطني، ووجدت أن المنظر الموجود أمامي مُطابقٌ تمامًا لما يتخيله سكان الريف عندما يفكِّرون بشانغهاي. خطرت في بالي تيا، التي ستنام وحدها للمرةِ الأولى في حياتها، وكيف ستظن أنني تخليت عنها. وتسأل: «أين آيي آيي؟»، هل ستعرف والدتها ماذا تفعل؟

هل ستتمكَّن من تحضير زجاجة الحليب التي تتوقَّعها تيا كل يومٍ في الخامسةِ صباحًا؟

أبقتني هذه الأفكار مستيقظةً حتى الساعات الأولى من الصباح، وامتزجت مشاعري بين القلق على تيا، ولحظات الغضب من والديها، ثم التفهُّم لحالهما، وأخيرًا الاستسلام لواقع عملي.

أخبرتُ نفسي، وأنا أذرف آخر دمعةٍ في ليلتي الأولى بالمكان الجديد، أنني سأجد نفسي قريبًا متعلقةً بيُومِي كما تعلقتُ بتيا، فيُومِي في نفس عمر تيا تقريبًا، بجسدها المُمتلئ كأنها ثمرةُ قرعٍ جنوبيَّةٍ لذيذة، ويمكنني أن أقول منذ الآن إنها أكثر هدوءًا ولطفًا من تيا.

مرَّت أكثر من ستٍّ سنواتٍ وأنا أعملُ في منزل عائلة يُومِي. في البداية، اختلفتُ مع أمها اليابانية الجميلة حول بعض الأفكار المُتعلِّقة بتربية الأطفال، فمن الطبيعي أن يتطلَّب العيشُ في منزلٍ جديدٍ فترةً من التأقلم. لم أكن معتادةً على وجود أمٍّ تشاركني في رعاية أطفالها بهذا القدر، لكنَّني لم أتذمر، بل بدأت، وبمرور الوقت، أستمتع بشراكتي مع أُم يُومِي في تربيتها، إذ وبحلول الوقت الذي دخلتُ فيه منزلهم، كنت قد تقدَّمت في السنِّ، وبدأ العمل بدوامٍ كاملٍ في رعاية الأطفال يؤثر على جسدي. تقاسمنا العمل، هي تشرف على الأطفال بينما أتولى التنظيف والطبخ، وفي أوقات فراغها تمارس هوايتها، وتُشبع شغفها بالتطريز اليدوي الذي تحول تدريجيًّا إلى مشروعٍ تجاريٍّ صغيرٍ عبر الإنترنت.

خلال تلك السنوات الست، أنجبت أم يُومِي طفلتين أيضًا، كلتاهما هادئتان وجميلتان مثل يُومِي وأمهما، ومع كلِّ ولادةٍ جديدةٍ كنَّا ننتقل إلى منزلٍ أكبر، إذ انتقلنا بدايةً من البناية الشاهقة ذات الطوابق الرمادية حيث بدأت العمل معهم، إلى شقَّةٍ في الطابق الخامس في مبنى قديم يقع على بُعد بضعة شوارع من هناك، ويطلُّ على حديقة الحي. ومن

هناك، انتقلنا إلى فيلا ضخمةٍ بها سبع غرف نومٍ، وتتألف من طابقَين، وحديقةٍ كبيرةٍ مسوَّرةٍ في الخلف. كان والد الأطفال ناجحًا جدًّا في عمله، ويعمل لساعاتٍ طويلة، رغم أنني لست متأكدةً تمامًا من طبيعة العمل الذي يقوم به. في آخر منزل، تمتَّعت كل طفلةٍ من الطفلات الثلاث بغرفتها الخاصة في الطابق الأول، بينما اعتاد الوالدان النوم في جناحٍ بالطابق العلوي، وكان لكلٍّ منهما مكتبه الخاص.

في مكتب الزوج، تجد طاولة رسمٍ مرتفعةً بجانب النافذة، ومغطاة دائمًا بالمخطَّطات والرسومات والصفحات الممتلئة بالأرقام. وعلى الجدار المقابل، ثمَّة العديد من شاشات الحاسوب الكبيرة، دائمًا ما تحتاج الشقوق في لوحات مفاتيحها إلى تنظيفٍ عميقٍ بسبب عادته في تناول بذور دوار الشمس. أما مكتب الزوجة، فهو عبارةٌ عن غرفة تطريز، برفوفٍ تعلوها خيوطٌ ملوَّنةٌ بألوان قوس قزح، ووسائد حريريَّة مليئة بالإبر، ولوحاتُ تطريزٍ معقدةٌ للأشجار والزهور معروضة على الجدران، والعديد من المواد المتناثرة التي يتحتَّم عليَّ تنظيمها باستمرار. أما أنا، فقد منحوني غرفةً صغيرةً خاصةً بي، في الطابق الأرضي، منفصلةً عن منطقة الأطفال، وقريبةً من المطبخ.

في الربيع الذي سبق دخول أصغر أطفالها، يوكيكو، إلى الحضانة، أخبرتني أم يُومِي أن العائلة ستسافر في رحلةٍ صيفيةٍ إلى لشبونة. ثم قالت لي: «إذا أردتِ، يمكنكِ التواصل مع تيا ورؤيتها. لا أعرف إن كنتِ ما زلتِ على اتصالٍ بها...» لم تنسَ أم يُومِي ذلك أبدًا، فهذا الاهتمام هو جزءٌ من طبعها، أدركتُ ذلك في سنتي الأولى من الإقامة معهم، إذ كانت، بين الحين والآخر، تسأل عن تيا. وأنا بدوري كنت أتواصل مع أُم تيا من وقتٍ إلى الآخر لتطلعني على أخبارها، لكن قلَّت تلك الاتصالات بمرور السنوات.

في البداية، عندما وصلت إلى منزل يُومِي، كنت أستغل أوقات استراحتها وأشاهد مقاطع فيديو قديمة لتيا على هاتفي، ولا أشاركها مع أم يُومِي إلا إذا طلبت ذلك، لأنني أعلم أن مهمة الشخص التي يراها عظيمةً قد لا تكون مثيرةً لاهتمام الآخرين، مع مرور السنين، كانت تيا تجول في خاطري أحيانًا، خاصةً وأنا أراقب مراحل نمو يُومِي وتغيُّرها بالطريقة نفسها التي كانت ستتغير بها تيا -تعلُّم المشي، والجري، والذهاب إلى المدرسة، ومحاولة تعلم الباليه-، لكنني انشغلتُ أكثر وأكثر مع يُومِي، ثم يوكو، ثم يوكيكو، وفي النهاية تعلقتُ بيُومِي. وجدتُ التواصل مع الأختين الوسطى والصغرى أسهل بكثير، إذ كانت والدتهما أكثر انشغالًا، وأقل تعلُّقًا بهما، إذ بدأ عملها في التطريز يزدهر ويأخذ أكثر من وقتها، لكنني أحبُّ الاعتقاد أيضًا أن ثقتها بي قد زادت بمرور الوقت، فمنحتني المساحة التي أرغب.

بدأت التحضيرات للرحلة، وسارت على قدمٍ وساق. اعتادت العائلة السفر إلى الخارج كثيرًا، مرتين في السنة على الأقل منذ استئناف السفر، وكانوا دائمًا يصحبونني معهم. في تلك المرحلة، كنت قد رافقتهم إلى تايلاند وكوريا وألمانيا وسنغافورة وإيطاليا والولايات المتحدة. وكنَّا كلَّ صيفٍ نقضي شهرًا كاملًا في كيوتو والريف الفرنسي. لقد رأيتُ العالم معهم. قبل يومين من موعد رحلتنا، جُهِّزت حقائب الفتيات بالكامل، وتحقَّقت أم يُومِي من نظافة كل زاويةٍ في المنزل، أما والدها فكان يعمل حتى ساعاتٍ متأخرةٍ من الليل لتحضير نفسه لأسبوع بعيدًا عن المكتب. عندها فقط، تلقيت ردًّا من والدة تيا: «مرحبًا خالتي! يا إلهي، لقد مرَّ وقتٌ طويل. كيف حالك؟ بالطبع نودُّ رؤيتكِ، أين ستقيمين؟ آسفة على التأخُّر في الرد، لم أعد أستخدم تطبيق «WeChat» كثيرًا».

رأيتُ الرسالة فور وصولها، وانتظرتُ، آملةً أن ترسل صورةً أو فيديو لابنتها أيضًا. كنت أتساءل كيف أصبحت تيا، هل تغيَّرت ملامحها مع تقدمها في العمر؟ لكن لم تصلني أي صورة.

أرسلتُ ردًّا مع رمزٍ تعبيريٍّ مبتسم، ثم زوَّدتُها بتفاصيل رحلتنا: التواريخ، والفندق الفاخر في لشبونة حيث حجزنا جناحَين، وحتى رقم الرحلة. ردَّت والدة تيا: «ما رأيكِ بجلسةِ شايٍ بعد ظهر اليوم السادس؟».

اندفعت إلى المطبخ، حيث كانت أم يُومِي منحنيةً فوق سلة المهملات، تبحث عن بقعٍ وتتحرى عن رائحةٍ خافتةٍ. قلت: «ماما يُومِي؟»، فرفعت رأسها بنظرةٍ شاردةٍ قليلًا، تدل على شيءٍ من اثنين: إما التفكير، أو عدم الرضا.

أجابت، وهي تشير إلى السلة الفارغة: «نعم؟ بالمناسبة، قد نحتاج إلى غسل هذا عندما يكون لديكِ وقت فراغ».

- بالطبع.

اعتادت أم يُومِي دائمًا أن تعبر عن مطالبها بهذه الطريقة -على نحوٍ مرنٍ وغير مُلزِم- لكنني كنت أعلم أنها تتوقع التنفيذ السريع. حملت السلة وأخذتها إلى الفناء، حيث بدأت أملؤها من الصنبور الخارجي. وتابعت حديثي بصوتٍ عالٍ ليصل إلى داخل المنزل: «لقد وصلني الردُّ من والدة تيا».

- رائع! هل ما زالوا في البرتغال؟

- أجل، وهم يتساءلون إن كان لقاؤنا لشُرب الشاي بعد ظهر اليوم السادس من الرحلة مناسبًا.

توقفت أمُّ يُومِي للتفكير، على الأرجح لتتأكد من جدول العائلة المفصَّل، والذي تخطط له بعنايةٍ قبل كل رحلة. انتهيتُ من شطف السلة وعدت إلى الداخل. نظرت إليَّ وأومأت برأسها، وقالت: «هذا مناسبٌ تمامًا، في وقتٍ مبكرٍ من رحلتنا حتى نتمكن من استشارة السكان المحليين للحصول على اقتراحات. عليكِ أن تصرِّي عليهم ليأتوا إلى فندقنا لتناول الشاي. يمكننا أن نقضي الوقت معًا».

شعرتُ بالارتياح والقلق في آنٍ معًا. فمن الجيد أن تكون العائلة معي لتجنُّب أي لحظاتٍ محرجة، لكنَّني لا أعرف كم من الوقت سأقضيه مع تيا، وهل سيكون كافيًا؟ استطعتُ بالفعل تخيُّل أم يُومِي تُهيمن على الحديث بأسئلتها المستمرة بلطفٍ حول المطاعم المحلية، والمتاحف المناسبة للأطفال، والمعالم السياحية غير المألوفة. فأجبتها: «بالطبع. شكرًا»، وعدت إلى غرفتي لأضع اللمسات الأخيرة على الخطط.

***

بالنسبة إليَّ، كانت البرتغال أجمل مكانٍ زرتُه في حياتي، وتقربها في الجمال إيطاليا، لكن من موقعنا في لشبونة، كان المحيط يحيط بنا أينما التفتنا. ما أكثر الأماكن والبلدان في هذا العالم! لو علمتُ ذلك من قبل، لبدأت مسيرتي كمربيةٍ للأطفال الأجانب في سنٍّ أصغر، فأنا لم أغادر دونغبي مرةً واحدةً حتى بلغت الأربعين من عمري.

في الأيام الأولى لمكوثنا في لشبونة، ركبنا الترام في جولةٍ سياحيةٍ وزرنا شاطئًا، وكنَّا مُحاطين بالمأكولات البحريَّة واللحوم، دون أي وجودٍ للخضراوات الخضراء، وعانت يوكو، التي كانت في الخامسة من عمرها، والمتعلقة بي أكثر من أيِّ أحدٍ، من الإمساك لدرجة أنني قضيت ساعةً كاملةً أمسك بيدها وأفرك بطنها بينما تجلس هي على المرحاض. أما يُومِي، التي كانت تفضل أمَّها منذ طفولتها، استمرَّت في تفضيلها.

ويوكيكو، الأكثر جرأةً وشجاعةً بينهن -وفي هذا الجانب كانت تشبه تيا- لطالما سعدت بالتجوُّل وحدها.

وهكذا كنَّا نسير في شوارع لشبونة المرصوفة بالحصى، صعودًا وهبوطًا في تلال تسببت بتقلُّصاتٍ في ساقي في مُنتصف الليل. كنَّا نمشي أزواجًا: يُومِي مع أمها، يوكو معي، ويوكيكو مع والدها، الذي كان يدللها ويحملها غالبًا على كتفيه، فهي أصغر العنقود وآخره.

بدأت أفكِّرُ في نهاية حياتي المهنية، في عملي، وفي الوقت المُريح والفاخر الذي قضيته مع عائلة يانغ. وتساءلت: هل أحببتُ الفتيات الصغيرات اللاتي ربيتُهن؟ نعم، أحببتهن، خاصةً يوكو. لكن هل أحببتهنَّ بقدر ما أحببت تيا؟ في أثناء تناول الآيس كريم بنكهة الفستق الأخضر الفاتح مثل أوراق شجرة الجنكو في مرحلة البرعمة، تخيلت تيا وهي تتذوق هذا الآيس كريم اللذيذ لأول مرةٍ في بلدها الجديد. شعرت بألمٍ حادٍّ في قلبي لأنني لم أكن معها، هنا أو هناك. لا، لقد أحببت تيا كما لم أحب أيَّ أحدٍ آخر. دوروتيا، التي عرفتُها وهي صغيرةٌ جدًّا لدرجة أنني كنت أحملها لساعاتٍ بين ذراعيَّ. ربما بالنسبة إلى مربية الأطفال، دائمًا ثمَّة طفلٌ واحدٌ مميَّز، مثله كمثل الحبِّ الأول. بالطبع، أحببت ابني، الذي أصبح الآن رجلًا متزوجًا. لكن الأمر كان مختلفًا معه، فبطريقةٍ ما، لم يكن شي لينغ يومًا ملكي بالكامل. كما أنني لم أرَ حفيدي، الذي سيكمل عامه الأول قريبًا، إلا مرةً واحدةً فقط، ولفترةٍ وجيزة، حيثُ كنت أعمل حينها أيضًا، وأرافق الفتيات ووالديهما إلى دونغبي لقضاء عطلةٍ شتوية في التزلج.

حلَّ اليوم السادس من الرحلة، وحان وقت اللقاء. كانت الفتيات قد تخلصن من تأثيرات فرق التوقيت وقلَّ انزعاجهنَّ. اعتنيت بنفسي أيَّما عنايةً في ذلك اليوم، إذ مشَّطتُ شعري، وعقدتهُ على شكلِ كعكةٍ

أنيقة، وارتديتُ فستانًا طويلًا أعطتني إيَّاه أم يُومِي ذات مرة. تفحصتُ انعكاسي في المرآة قبل أن نغادر، لقد بدوتُ أكبر سنًّا، وأنحف قليلًا، لكنني لم أتغير كثيرًا خلال السنوات الست التي مضت. هل ستتعرف عليَّ تيا؟ هل ستتذكرني؟ في عقلي كنت أعلم أنها لن تتذكر، فالأطفال لا يتذكرون شيئًا قبل سن الثانية أو الثالثة. ومع ذلك، كنت متوترةً وقلقة.

أصرَّت يوكو على إمساك يدي على طول الطريق إلى المطعم، رغم أننا كنَّا متأخرين حوالي عشرين دقيقةً عن موعدنا. تطلَّب تجهَّزنا وقتًا أطول مما توقعنا بسبب الأطفال الثلاثة وأمهم التي استغرقت وقتًا طويلًا في الاستحمام. عندما وصلنا، وجدنا المطعم نصف ممتلئٍ، ووقعت عيناي فورًا على تيا ووالديها جالسين تقريبًا في مُنتصف الغرفة الكبيرة المفتوحة. يا إلهي، يا تيا! لقد أصبحت فتاةً كبيرةً الآن. بالطبع، علمت ذلك قبل أن أراها حتى، لكنني لم أكن مستعدةً. لقد طال وجهها وأصبح شبيهًا بوجه والدها، وبرز فكها قليلًا، وفمها العريض أصبح أكثر رجولةً مع مرور السنوات. توقَّعتُ أن أرى نسخةً أكبر من تيا الطفلة، لكن بالكاد ما يزال طيفها حاضرًا.

احتفظت يُومِي بملامح طفولتها، وبشعرها الطويل الكثيف الذي يعلِّق عليه كلُّ من يراها، لذا، لم يخطر ببالي أن تيا قد لا تكون بنفس جمال يُومِي، ويوكو، ويوكيكو. ربما لأنني لم أحبهنَّ بقدر ما أحببت تيا، فعينُ الحبِّ دائمًا ما تجعلنا نرى المحبوب على أنه الأجمل بين الجميع. ومع ذلك، فإنَّ تيا هي الفتاة التي احتلت قلبي. غمرتني الذكريات، ذكريات إطعامي لها في الأسابيع الأولى من حياتها، واللعب معها في حدائق الجامعة الغنَّاءة قُرب منزل والديها.

كان والداها قد تقدما في العمر، وازداد والدها بدانةً بما يتجاوز ما كان عليه حين وُلِدتْ، أما والدتها فبدت مُرهقة، ربما لأنها لم تحصل

على مساعدةٍ في تربية ابنتها، كما علمتُ أنها تركت وظيفتها في تصميم الأزياء بعد انتقالهم إلى البرتغال.

أما أنا، فكنت محاطةً بالجمال، مما ولَّد في داخلي شعورًا بالنَّصر، كأن لسان حالي يقول: انظروا إلى العائلة الجميلة التي وظَّفتني، وعاينوا هاته الفتيات الجميلات اللواتي ربيتُهن، وشاهدوا ملابسهنَّ الأنيقة والفندق الفخم الذي نقيم فيه، وضعوا في حسبانكم لِكَم من الوقت أبقوني معهم. كأن كلَّ هذا سيجعل والدي تيا يندمان على قرارهما قبل ست سنوات، حين غادرا الصين في أثناء انتشار الفيروس، وسرَّحاني من وظيفتي على نحوٍ مُفاجئٍ ومؤلم. ألم ينتشر الفيروس في كلِّ مكانٍ لاحقًا؟ وبالتالي، اتَّضح أن مغادرتهم كانت في النهاية بلا جدوى. ومع ذلك، فإنَّهما لديهما تيا، وبرغم كل هذا الجمال المحيط بي، شعرتُ بالخسارة.

لم أستطع التحكُّم في نفسي. فتركت يد يوكو بمجرد أن جلست على الكرسي، وسرت حول الطاولة. وضعت يدي على وجه تيا واحتضنتها. لم تتحرك، فوجدت نفسي أعانقها جانبيًّا بينما تنظر هي إلى عائلة يانغ، وتعاين الفتيات واحدةً تلو الأخرى. تدافعت الكلمات من فمي: «تيا، لقد كبرتِ كثيرًا! مربيتكِ تتذكركِ عندما كنتِ طفلةً صغيرة. هل تتذكرين آيي آيي؟ كنتِ تنادينني آيي آيي! كم اشتقتُ إليكِ! هل أنتِ بخير؟ هل تحبين البرتغال؟».

لكن تيا استمرَّت في التحديق إلى عائلة يانغ. قاطعتني والدتها وسحبتني من عناق تيا، قائلةً: «آسفة يا خالة، لكن تيا لا تتحدث الصينية. فمن الصعب أن تتحدَّثها هنا، ليس لديها أحدٌ غيري لتستخدمها معه، ومنذ أن بدأت المدرسة، لم تتحدَّث إلا البرتغالية».

- هل نسيتْ... كلَّ شيء؟

قبل ست سنوات، كنت أصطحب تيا إلى السوق يوميًّا، وأعرِّفها على جميع أنواع الفواكه والخضراوات. حين غادرت، كانت تعرف العديد من الكلمات: «بينغقو» (تفاحة)، «شيانغجياو» (موز)، «تشيتزي» (باذنجان). قالت يُومِي شيئًا لتيا بالإنجليزية، وبدأت الطفلتان، اللتان تبلغان السابعة، حديثًا مع بعضهما، تعرض فيه كلٌّ منهما دُماها على الأخرى. جلست في مكاني أراقبهما تتحدثان بلغةٍ لا أفهمها، وأمسكت يوكو بيدي وضغطتْ عليها بلُطف.

تحدَّث الآباء بالإنجليزية أيضًا. وسمعت كلمة «آيي... آيي» عدَّة مراتٍ في بداية حديثهم، ولكن سرعان ما تسارعت وتيرة المحادثة. في البداية، خفق قلبي، حيث تساءلت عمَّا إذا كانوا يقارنون راتبي الشهري، إذا كان الأمر كذلك، فقد يعرف والدا يُومِي أنني كذبت قليلًا بشأن ما كانت تدفعه لي عائلة تيا، في محاولةٍ لزيادة راتبي، منذ سنواتٍ عديدة. راقبتُ وجوههم: الوجوه الناعمة الجميلة على يساري، والوجوه الممتلئة المتعبة أمامي، فلم يبدوا لي قلقين، فأدركت أخيرًا ما الذي دفعهم ليشيروا إليَّ مرارًا وتكرارًا، فأنا الشيء الوحيد المشترك بين هاتين العائلتين.

لعبت تيا ويُومِي معًا بهدوء طوال الوقت تقريبًا، بينما تناولتُ بعض الكعكات الحلوة والأرغفة المُلونة مثل بطانياتٍ وقبعاتٍ وأحذية الأطفال. ولكن فجأةً، اندلعت فوضى، إذ صرختْ تيا: «لا!»، وضربت يُومِي بقوةٍ على رأسها. كانت الفتاتان قد تبادلتا الدُمى، وبدأت يُومِي في خلع ملابس دمية تيا لتغمرها في سلة الخبز.

ساد الصمت للحظةٍ وجيزةٍ، ثم فجأةً انفجر كلُّ شيءٍ في حركةٍ عارمة. بدأت يُومِي في البكاء، وأسرعت والدتها إلى احتضانها وتفقُّد ما إذا كانت قد تعرضت لأي كدمات. ذهبت إليها أنا أيضًا، حاملة معي بعض المناديل النظيفة من الطاولة المُجاورة لأمسح دموعها وأنفها

السائل. إن يُومِي لطفلةٌ سريعةُ البكاء، فقد دُلِّلَت كثيرًا منذ أن كانت رضيعة. نظرت تيا إلينا بامتعاضٍ وسحبت دميتها من سلَّة الخُبز بهدوء. إذًا، لقد أصبحت طفلةً مشاكسةً ومتمردة، تمامًا كما توقعت! تسارعت دقات قلبي. بدأت والدتها في توبيخها، بلغةٍ افترضتُ أنها البرتغالية، لكن مع بعض الكلمات الصينية. سمعتُ عبارة «يا لكِ من فتاةٍ سيئة!» ثم «كم مرةٍ عليَّ أن أكرِّر هذا الكلام؟» طوت تيا ذراعيها على صدرها ونظرت حول الطاولة. التقت عيناها بعينيَّ، وكان لا بدَّ لي أن أقول شيئًا.

فبعد كلِّ شيء، ربما تستطيع فهم بعض الكلمات الصينيَّة. قلتُ لها: «تيا، ليس من الصواب ضرب طفلٍ آخر. عليكِ أن تستخدمي كلماتكِ للتعبير عن إحباطكِ. عليكِ أن تعبِّري عمَّا تشعرين به». شرحت لها ذلك بصبرٍ، لكنها أدارت وجهها عني بعنادٍ، في تصرفٍ يُظهِر التمرد. كدتُ أضحك، كدتُ أبتسم. لكن والدتها كانت تنظر إليَّ بذهولٍ. وقالت لي: «آيي، في البرتغال، لا نقوم بتأديب أطفال الآخرين، أو التعليق على تصرفاتهم. شكرًا لكِ»، وبعد وقفةٍ قصيرة، أضافت: «وقد سبق وقلتُ لكِ إن تيا لا تفهم الصينية». عادت بعد ذلك لتتحدث إلى تيا، ولم تستخدم سوى البرتغالية هذه المرة، دون أن تمزج معها كلمةً واحدةً بالصينية. أشحتُ بنظري عنهما، وعدت إلى يُومِي التي بدأت تهدأ تدريجيًّا. كانت والدتها تراقبنا أيضًا، لكنها انشغلت بتعديل تنورة يُومِي وترتيب شعرها. كنت أحترق من الداخل -شعرت بالغضب والإحراج- ومع ذلك، لم أعلم ماذا يمكنني أن أفعل. عدتُ إلى الجانب الآخر من الطاولة لأهتم بيوكيكو.

حان الوقت تقريبًا لمُغادرة عائلة تيا، وبدأت يوكيكو الصغيرة تعبِّر عن عصبيتها لأنها بحاجةٍ إلى قيلولتها. وقفوا، وأُجبرت تيا على الاعتذار ليُومِي، واضطرت يُومِي إلى قبول الاعتذار. لكننا افترقنا بعد ذلك بفترةٍ قصيرة، ولم يبدُ أن أي شيءٍ قد حُسم بالفعل. في طريق

عودتنا إلى الأجنحة، وبينما كنت أحمل يوكيكو المتذمرة بين ذراعيَّ، فكرتُ في حقيقة أنك لا تملك حقًّا سوى الطفل الصغير، الطفل البريء هو ملكك لتحبه، وتعتني به، وتُشكِّل شخصيته حتى يبلغ الثالثة تقريبًا. يوكيكو، في هذا العمر، كانت ما تزال على أعتاب الطفولة. فبعد الثالثة، يبدأ الأطفال بالابتعاد تدريجيًّا. إلى أين يذهب هؤلاء الأطفال؟ ما الذي يدفعهم للاستعجال؟ وعندما يتعلق الأمر بتأديب الأطفال، فإن الخلافات بين المُربية والعائلة قائمةٌ منذ الأزل. لكل شخصٍ أفكاره القوية حول التأديب. عند وداع تيا في ذلك المساء، شعرت ببرودةٍ مفاجِئة، كأن كل المشاعر الدافئة التي غمرتني قبل الرحلة وفي الأيام الأولى منها قد تلاشت. لم تعد تيا موجودةً بالنسبة إليَّ، كان ذلك واضحًا.

***

بعد فترةٍ وجيزةٍ من رحلة البرتغال أعلمت عائلة يانغ بقراري بالتقاعُد. كنت سأبلغ الخامسة والخمسين من العمر ذلك العام، وأعاني من آلامٍ مُستمرَّةٍ في الظهر، ومن مشكلةٍ في رفع ذراعي اليمنى أعلى من رأسي. كما أن ابني بدأ يطلب مُساعدتي في رعاية طفله.

مرَّت أيامي الأخيرة مع عائلة يُومِي بسرعةٍ، وبأقل مما توقعت من المشاعر. منذ رحلتنا إلى لشبونة، شعرت كأنني أعيش في حالةٍ من الركود، غير قادرةٍ على الشعور بأي شيءٍ بوضوحٍ، وكأنني أرى الأمور من خلال حجابٍ ضبابيٍّ. ربما يمكنك القول إنني عانيتُ من نوعٍ من الاكتئاب. فقد أصبحتُ لا شيء بالنسبة إلى تيا، ولم نعد قادرين حتى على التواصل، في حين كانت طوال تلك السنوات تعني لي الكثير، بل كلَّ شيءٍ. شعرت كأن كل جهودي كانت بلا معنى. من أكون بالنسبة إلى الرُّضع والأطفال الذين أحببتهم طوال هذه السنين؟ فتيات عائلة يانغ، فبالنهاية سوف يكبرن في يومٍ ما وينسينني. حتى يُومِي، التي ستشغل

والدتها مكاني بجانبها عند المرحاض وهي تعاني وتبكي بوجهٍ محمرٍّ. أما الصغيرة يوكيكو، فالأرجح أنها لن تتذكرني على الإطلاق، وفي أفضل الأحوال، سأكون ذكرى غامضة بالنسبة إليها، شخصًا تتحدث عنه عائلتها بين الحين والآخر في المستقبل.

في اليوم الذي سبق مغادرتي، قدمت لي والدة يُومِي بطانيةً رقيقةً، ناعمةً وبيضاء بياضًا نقيًّا، مصنوعةً من القماش الياباني الفاخر نفسه الذي يميِّز جميع أغراضهم في المنزل، رُسمت عليها تطريزاتٌ معقَّدةٌ على نحوٍ مذهل: الفتيات الثلاث وأنا ممسكات بأيدي بعضنا البعض ونرقص في دائرةٍ حول شجرة ماغنوليا، تتساقط بتلاتها حولنا. شعر يُومِي الطويل كان يتطاير في الريح، أما شعر يوكو فكان مضفورًا على الطريقة الفرنسية، كما كانت تحب أن أصففه لها كل صباح، وخدود يوكيكو متورِّدةٌ بالطاقة. بدا وجهي مضمومًا بابتسامةٍ أعرفها جيدًا: إنها ابتسامتي. يا للفتيات الجميلات ذوات القلوب الطيبة! كانت تلك البطانية أجمل ما رأته عيناي. اغرورقت عيناي بالدموع، لكنني أبعدتُها بسرعة. وقلت: «شكرًا لكم، شكرًا»، شرحت لي والدة يُومِي قائلةً: «الماغنوليا هي الزهرة الرسميَّة لمدينة شانغهاي»، ولم أكن أعلم ذلك من قبل.

أخذت الهدايا السخيَّة منهم: مكافأةٌ نقديَّةٌ سخيَّةٌ موضوعةٌ في مغلفاتٍ حمراء منتفخة، وحقيبتَي السفر اليدويتين اللتين انتقلتا معي من بيتٍ إلى بيتٍ على مر السنين. أخيرًا، انتهى عملي، وانتهت الليالي الطويلة التي قضيتها دون نوم، وأنا أراقب الأطفال وأُهَدهِدهُم، أُسخن زجاجات الحليب وأطوي قطع الغسيل الصغيرة بعناية. كنت عائدةً إلى بيتي.

أستطيع أن أعدَّ على أصابع يدي عدد المرات التي عدت فيها إلى مسقط رأسي، وليس مردُّ ذلك إلى كرهي لمدينتي أو لعائلتي، لكن كلَّما

عملت أكثر، زاد المال الذي أجنيه. أطول رحلةٍ لي كانت قبل عامين عندما تزوج ابني. قضيت هناك عشرين يومًا. كانت تلك المرة الثانية التي ألتقي فيها بزوجة ابني، التي بدت لطيفةً بما يكفي، رغم أنها صغيرة السن، وتبلغ الثانية والعشرين فقط. لكنني كنت في نفس عمرها تقريبًا عندما تزوجت.

بعد رحلةٍ طويلةٍ لكنها ممتعةٌ بالقطار (حيث اشترت لي عائلة يانغ تذكرة مقصورة من الدرجة الأولى)، وصلتُ إلى جيلين وانتقلت إلى حافلةٍ تستغرق أربع ساعات لتصل بي إلى قريتي. تغيَّرت المشاهد ببطءٍ من حضريةٍ إلى جبليَّة، وبحلول الوقت الذي وصلنا فيه، كانت الطرق مظللةً بمظلةٍ كثيفةٍ من الأشجار الطويلة على كِلا الجانبين. اندفع هواء الجبال النقي من النوافذ المفتوحة. كم من مرةٍ تحدثت عن مسقط رأسي وثروات الطبيعة التي نمتلكها! أما الأطفال الذين ربيتهم في المدن على مر السنين، فقد كبروا على الأرصفة وفي السيارات والشقق والمتاحف. اجتاحني حزنٌ عميق، إذ تذكَّرت وجه يوكو المستدير تمامًا، وعينيها السوداوين الكبيرتين، وشعرها المُصفَّف بفرقٍ كثيفٍ يؤطِّر حاجبيها العريضين. ربما أزورهم يومًا ما في شانغهاي، أو ربما يعودون إلى دونغبي مرة أخرى، فهي أقرب بكثيرٍ من لشبونة.

لكن هل سيكون ذلك أفضل من رؤية تيا؟ لم أكن جزءًا من عائلة يانغ أكثر مما كنت جزءًا من القدر الذي استخدمتُه لطهي كعكات الخضار المفضلة لدى يوكو، أو ممسحة الأقدام المكتوب عليها «أهلًا وسهلًا» باليابانية، والتي يمسحون عليها أحذيتهم في الأيام المُمطرة الموحِلة. مهما كانت مشاعري، لم أكن أبدًا أُم الفتيات، الجميلة صاحبة اليدين الرقيقتين اللتين اعتادتا على صُنع تطريزاتٍ دقيقة، كالأزهار التي

يحوم حولها النحل، وأشجار الكرز المتفتحة، وأشياء من الطبيعة تعيد تكوينها من موطنها الأصلي في اليابان.

***

انتظرتُ في محطة الحافلات وصول ابني وزوجته ليأخذاني. أخيرًا، سأتعرَّف على المرأة التي تزوجها شي لينغ، زوجة ابني. تُرى، هل ستكون مثل والدة تيا، كسولةً وغير مباليةٍ، أو غير منظمةٍ وغير أموميَّة؟ أم ستكون مثل والدة يُومِي، دقيقةً ومنشغلةً، حاميةً ومُحبِّة؟ أيهما سأفضِّل؟ لو كنت سأساعد بقدر ما أستطيع، ربما تكون شخصيةً مثل والدة تيا أسهل في التعامل معها. من ناحيةٍ أخرى، خلال السنوات الست الماضية، أصبحت نوعًا ما مهووسةً بالنظافة، مثل العاملات الدقيقات اللاتي تتطلبهن والدة يُومِي.

هبَّت نسمة هواءٍ باردة ولفحت وجهي، ولاحظتُ أنه منذ زيارتي الأخيرة، قاموا بتركيب أعمدة إنارة على طول الطريق. لاحظت ذلك لأن الساعة كانت قد بلغت الخامسة تمامًا، وانطفأت الأضواء كلها في وقتٍ واحد. كنت أتساءل عن التغييرات الأخرى التي قد أتمكن من ملاحظتها في مسقط رأسي، حين ظهرت سيارة ابني على الطريق المضاءَة.

كانت زوجته في المقعد الأمامي، تحمل الطفل بينغ بينغ على حجرها. والدة يُومِي لم تكن لتسمح بذلك أبدًا، بل تفضِّل اتباع قواعد سلامة الأطفال بدقّةٍ وصرامةٍ. عندما كنَّا نسافر إلى اليابان، كنَّا نحمل الكثير من الأمتعة، مع عربات الأطفال القابلة للطيِّ ومقاعد السيارة للصغار. أنزل شي لينغ النافذة ولوَّح لي وهو يقترب، وأوقف السيارة أمامي مباشرةً، ثم قفز للخارج ليضع أمتعتي في صندوق السيارة ويفتح لي الباب الخلفي. وقال: «ماما، اصعدي. لا بدَّ أنكِ جائعة».

التفتت زوجته، لي لي، لتُحيِّيني، ولوَّحت بيد الطفل نحوي، وقالت بصوتٍ عالٍ: «ناي ناي، مرحبًا!». مرَّ زمنٌ طويلٌ منذ أن ناداني أحدهم بغير آيي، وكان هذا الدور الجديد غريبًا عليَّ، كأنني أحاول ارتداء ثوبٍ لا يناسبني تمامًا.

وبدون أي مقدماتٍ، ناولتني لي لي الطفل، وانطلقنا مسرعين، والأضواء تختفي من حولنا فور مغادرتنا حدود المحطَّة ودخولنا الطرق الريفيَّة. لو كنت أعلم أنها تخطط لتسليمي الطفل، لكنت عقَّمت يديَّ بالجل المُعقَّم الموجود في حقيبتي، والتي أصبحت الآن في صندوق السيارة. أبقيتُ يديَّ المتسختين بعيدتين عن فم الطفل.

شرح لي ابني أنني سأبقى معهم لفترة، لأن الإصلاحات في بيتي لم تكتمل بعد. على مر السنين، كانت الأموال التي أرسلتها تُستخدم في بناء منزلَين كبيرين متجاورَين، أحدهما سأشارك فيه مع أختي الصُّغرى، والآخر لابني وزوجته. على ما يبدو، كانوا يعيدون طلاء جدران منزلي بسبب بعض الأضرار الناتجة عن المياه. استمعتُ إليه وهو يسرد التفاصيل، بينما كانت لي لي تتحدث بصوتٍ عالٍ فوقه، معبِّرةً عن تقديرها لتعبي، ومتسائلةً بصوتٍ عالٍ أيضًا كيف يكون السفر بتذكرةٍ من الدرجة الأولى، دون أن تطلب مني أن أصف لها التجربة. شعرت أن الحديث المتداخل، والأصوات المرتفعة داخل السيارة، مألوفان ومريحان -نمطٌ من شبابي- فجلستُ مسترخيةً وأنا أراقب الطفل يتأرجح بهدوءٍ على ركبتيَّ.

كان الطفل بدينًا للغاية، لا بدَّ أنهم يُفرطون في إطعامه ليصبح بهذا الحجم. وجنتاه متدليتان، وجفونه سميكة. كان ينظر إليَّ ويكرر: «با با با با». ويشبه والدته أكثر من ابني. ربما بسبب ما مررتُ به في الأسابيع الأخيرة، لكنني شعرت كما لو أنني مستنزفةٌ من أي مشاعر،

وراقبتُ الطفل كما لو كان مجرد طفلٍ في برنامجٍ تلفزيونيٍّ. تساءلت متى سأتمكن من غسل يديَّ على نحوٍ صحيح.

وصلنا إلى المنازل، التي سبق وشاهدتها مراتٍ عديدة في الصور، إذ كنت أتابع عن كثبٍ اختيار شي لينغ وأختي المواد، وصُنعهما للتصاميم، ثم بعد ذلك مراحل البناء. لكنني لم أرَها بعيني إلا لأول مرة خلال احتفالات زفاف شي لينغ. كانت المنازل لافتةً للنظر، وهي عبارةٌ عن: مبنيين متطابقين من الطوب الرمادي الفاتح، تعلوهما أبراجٌ مدبَّبةٌ تمتدُّ نحو السماء، ويربط بينهما ممرٌّ زجاجيٌّ في الطابق الثالث.

كان الممر فكرة شي لينغ، وقد بدا مذهلًا بالفعل. في أثناء الزفاف، زُيِّن المبنيان بأكاليل حمراء زاهية، وفوانيس مشتعلةٍ في كل زاوية. أما داخل المنازل، فامتلأ بالناس، من الجيران الذين جاءوا لتناول الطعام المجاني الذي قدمناه لأسابيع قبل وبعد الزفاف، ولتفقُّد المنازل وجودة أثاثنا، وبالطبع لتهنئة شي لينغ ولي.

أما الآن، وفي ضوء المساء، وبدون تلك الزينة الاحتفالية أو صخب الناس، بدت المنازل خاويةً وكئيبة. كانت أختي غائبةً في زيارةٍ لزوجها السابق وابنتها، ولن تعود إلى القرية حتى الأسبوع المقبل. وكانت الأراضي الزراعية والتلال المُنخفضة تحيط بالمنازل بقدر ما تستطيع العين رؤيته، متناثرة فيها البيوت والمخازن.

أُخذتُ إلى غرفة ضيوف، ورأيت صورةً لزوجي الراحل، تعود إلى حفل زفافنا الذي مضى عليه أكثر من ثلاثين عامًا، معلَّقةً على أحد الجدران. سُعِدتُ باختيارهم لصورةٍ من شبابه، فهكذا عرفتُه وأحببته، وهكذا أُفضِّل أن أتذكره، ليس كما أصبح لاحقًا، بعد أن شاب بسبب التدخين والشرب، وبعد أن أصبح شخصًا غريبًا عني، وفقدتُ العد لعدد

السنوات التي قضيناها بعيدين عن بعضنا، ولعدد النساء الأخريات في القرية اللواتي أقام معهنَّ علاقات.

سرعان ما أفرغت حقيبتي، وحرصت على فرد الغطاء الذي أهدتني إيَّاه والدة يُومِي على السرير، حيث ترقص الفتيات في المنتصف. لم أُشعل الضوء، وعندما عدت من الاستحمام، بدا الغطاء الأبيض كأنه يتوهج في الظلام.

خارج النافذة، كانت الشمس قد غابت، واستطعت رؤية ظل التلال السوداء البعيدة. كانت غرفتي في الجهة الجنوبية من المنزل، وكنت أعرف أن إحدى تلك التلال هي جبل دفْن عائلتنا. دُفن فيه بالفعل والداي، وزوجي، وأختي الكبرى، وطفلاها اللذان ماتا مبكرًا بسبب بعض المضاعفات. هناك أيضًا ثلاثة أجيال من أسلافنا. وقفت عند النافذة، أحدق حتى غرق الليل وفقدتُ رؤية الجبال. حينها فقط شعرتُ بجوعي الشديد ما إن وصلت رائحة الطعام إلى أنفي، فتوجَّهت لتحضير العشاء والاهتمام بالطفل.

كان بينغ بينغ يزحف في المطبخ بينما تقلي لي لي الطعام. والدة يُومِي لم تكن لتسمح لي أبدًا بإحضار الفتيات إلى المطبخ في أثناء استخدامي للزيت الساخن. أخذتُ الطفل إلى غرفة المعيشة، ولاحظت أن حفاضه كان ممتلئًا، فمددته حيث أعدُّوا مكانًا صغيرًا للتغيير قُرب الأريكة. نزلت على الأرض، وشعرت بألمٍ خفيفٍ في ركبتيَّ، إذ كنت أعاني من بعض مشكلات المفاصل بعد سنواتٍ من حمل وهز الأطفال.

أخذت حفاضًا جديدًا من الكومة وبسطته. تمدَّد بينغ بينغ بهدوء، وهو يُحملق بي ويلعب بأذنيه. ففككت الأزرار واحدًا، اثنين، ثلاثة. وضعت الحفاض المتسخ جانبًا، وضحكت ضحكًا مفاجئًا لما رأيته، ليس لأنني لم أكن أعلم أن بينغ بينغ صبي، لكن بعد تعوُّدي على رعاية

الطفلات الإناث، وجدت الأمر مُضحكًا أن أرعى طفلًا ذكرًا، وشعرت بصدمةٍ بسيطة. فبعد أكثر من عقدٍ من تنظيف ورعاية الفتيات، كدتُ أنسى كيف يبدو هذا «الفلفل الصغير».

لكن، لم يكن الأمر مُعقدًا. إذ تناولت منديلًا مبللًا وبدأت بتنظيفه. ضحك بينغ بينغ ضحكةً خفيفة، وكانت المرة الأولى التي أرى فيها هذا الطفل يبتسم. ابتسمتُ له بدوري وقرصت وجنته، فضحك مرةً أخرى، مما جعلني أضحك أيضًا. وفي تلك اللحظة، ابتسم ابتسامةً أوسع، وارتجف قليلًا، ثم أطلق فجأة تيارًا دافئًا من البول مباشرةً في وجهي. حتى أنني شعرت ببعضه في فمي! صُدِمتُ بشدةٍ، لكنني لم أستطع إلا أن أضحك حتى انحنيت من الضحك. وتمتمت في أذنه: «يا لك من وحشٍ صغير!». بعد أن جفَّفت نفسي، ناديت ابني، وأنا ما أزال أضحك: «لن تصدق ماذا فعل ابنك!». جاء شي لينغ وابتسم لي ولبينغ بينغ. وشاركنا جميعًا في الضحك.

في تلك اللحظة، اجتاحني شعورٌ قويٌّ بأنني أعيش لحظةً سبق وعشتها، كما لو أنني أعيش من جديدٍ لحظةً مضت منذ زمنٍ بعيد، ودُفنتْ عميقًا في ذاكرتي. نعم! حدث ذلك قبل سنواتٍ طويلة، حينما كنت أغير حفاض ابني (كان من القماش آنذاك)، وزوجي واقفٌ بجانبي يراقبنا، حين أطلق ابني تلك الرشقة المشاغبة نفسها في وجهي.

وضعت الحفاض بسرعةٍ على بينغ بينغ، واحتضنت الصغير بين ذراعيَّ. كان ناعمًا كالغيوم، لكنه أخفُّ وزنًا من كيكو، التي رغم أنها صارت في المدرسة، إلا أنها لا تزال تحب أن تُحمل بين الذراعين كأنها مولودةٌ جديدة. ضغط بينغ بينغ على أنفي وأطلق صيحة انتصار. فقلت له، وأنا أشعر أنني أعود إلى طبيعتي شيئًا فشيئًا: «أوه، أيها الصبي المشاغب! هل ستقرص جدتك؟ إذًا ستقرصك جدتك أيضًا!».

قرصتُ أنف الصبي بلطفٍ، فتقلَّص وجهه، وبدا غير متأكِّدٍ مما إذا كان سيضحك أم يبكي من هذا الإحساس. ضغطت بخدي على خده ـكان ممتلئًا ودافئًا وناعمًاـ وأصدرت صوت نقرٍ بلساني لصرف انتباهه. «أوه، يا صغيري. لا داعي للبكاء! فهذه القرصة تعني فقط أنني أحبك. هل تعرف ذلك؟ ماذا تعرف؟ هل تعرف أن ناي ناي تحبك؟».

شممت رائحة النكهات القوية لمنطقتي الشمالية الشرقية التي تتصاعد من المطبخ، والتي تختلف تمامًا عن الطعام الياباني الخفيف الذي تعلمتُ طهيه في مطعم يُومِي، وجلست لألعب مع بينج بينج قبل العشاء، وقرصت فخذيه السميكتَين وبطنه. لم أكن لأترك هذا المكان، حتى يضعوني داخل جبل العائلة. قلت لحفيدي: «أيُّها الصغير، أيُّها الملاك الصغير. يا ملاكي الصغير».

مكتبة
t.me/soramnqraa

حياةُ الأزقَّة

مارس/ آذار 2018

عاشت إيكو وليو في شقَّتهما الجديدة في الطابق الثاني من بيت زقاقٍ ضيِّق في شانغهاي مدَّة ثلاثة أشهر، عندما انتقلا للعيش هناك، كانت السقَّالة الخشبية المصنوعة من البامبو تمتد على طول المبنى المقابل، مما يحجب جميع نوافذ المنزل، وكانت المنطقة تخضع لعملية تجديد للهياكل التاريخية. لم تمنع السقَّالة إيكو وليو من فتح نوافذ شقتهما، لكنها ملأت الزقاق بشبكةٍ كثيفةٍ من البامبو، مما حجب معظم الضوء، وقتل أي أملٍ بإطلالةٍ مُحتملة من النوافذ. اشتكى الزوجان من هذا الأمر لشركة إدارة المبنى «حياة الأزقَّة» فور وصولهما، حتى قبل أن يفرغا حقائبهما، مؤكدين أنهما قد خُدعا قبل الانتقال من باريس. كيف يمكن أن يعيشا في مكانٍ مُظلمٍ كهذا؟ لكنهما سبق ووقَّعا العقد، والشقة مريحةٌ على كل حال.

أما العمال، فكانوا رجالًا نحيلي القامة وسُمر البشرة، يرتدون الخوذ ويتسلقون السقَّالة طوال اليوم. يظهرون حوالي التاسعة صباحًا، ويتفرَّقون عند الخامسة. لم يرهم ليو أبدًا لأن ساعات حضورهم تزامنت مع أوقات وجوده في العمل، لكن إيكو كانت تراهم، وسرعان ما شعرت بعدم الارتياح تجاههم. في البداية، حاولت تجاهل الموقف، وواصلت عملها في المنزل، كالتنظيف، والطهي، وقراءة كتاب «ماذا تتوقعين عندما تكونين حاملًا»، رغم أنها لم تكن حاملًا بعد، لكن زوجها اشترى لها هذا الكتاب الضخم عندما وصلا إلى شانغهاي، وكانت الأريكة التي تجلس عليها لتقرأ موضوعةً بجوار النافذة، فبدأت تتخيل العمال وهم يراقبونها من خلف الزجاج وهي تقرأ، ويرون الرسوم البيانية للأجنة التي يمكن لأي شخصٍ أن يراها.

في مرحلةٍ ما، بدأ العمال يتناولون غداءهم على السقَّالة المقابلة لنافذتها، حيث يجلسون القرفصاء في صفٍّ واحد، وصندوق الغداء في يدهم وعيدان الأكل في اليد الأخرى. هل عليهم حقًّا أن يأكلوا هناك؟ أليس بإمكانهم الجلوس على الأرض؟ هل أصبحت هي وسيلة ترفيههم في منتصف النهار؟ يا لها من جُرأة! عندما جلست إيكو لتناوُل غدائها، شعرت بالانزعاج والقلق المعتادَين، مع وجود الرجال مصطفين كطيور الحمام خارج نافذتها. لقد طفح الكيل، قامت وأغلقت الستائر السميكة، مما جعل الشقة في حالةٍ يُرثى لها من انعدام الضوء، وقد استمرَّت من التاسعة صباحًا حتى الخامسة مساءً طوال الأشهر الثلاثة التالية.

لكن ذات صباحٍ، استيقظت إيكو على صوت ضجيج، وعندما خرجت من غرفة النوم لتطلَّ من نافذة غرفة المعيشة، رأت أن السقَّالة قد أُزيل نصفها بالفعل. وكانت أعمدة البامبو تتمايل في الهواء تمايلًا خطرًا، والعمال مشغولون بقطع الأسلاك وتفكيك الأُطر. وفجأةً، أدركت أن

كمية الضوء التي تدخل شقتها قد زادت كثيرًا، وأكثر مما كانت تتخيل. تحولت شقتها بالكامل! وكادت أن ترقص فرحًا مع تدفق الضوء. وعبر الزقاق، رأت نافذةً لم يسبق أن رأتها من قبل، مستطيلة الشكل، ويظهر منها بابٌ عُلِّقت عليه طبقاتٌ من المعاطف والملابس والحقائب.

وُلد في قلب إيكو أملٌ جديدٌ مع هذه الشقة المشرقة الجديدة، وفكَّرت: «الآن سيتغيَّر كلُّ شيء». أعدَّت شايَ أوراق التوت الأحمر ودارت حول جزيرة المطبخ، وهي تفكِّر في جسدها، وتتمنى أن ينجح في مهمة الحمل والإنجاب، ربما ما كان ينقصها طوال هذا الوقت هو جرعةٌ من ضوء الشمس وفيتامين د. تمددت على الأريكة، والستائر مسحوبة، والنوافذ مفتوحة على مصراعيها. تدفَّق الضجيج من الزقاق: إعلانٌ متكرِّرٌ من متجر الفاكهة في الطابق السفلي، ودلو ماءٍ يُصبُّ على الأرض برذاذ، وأزيز مفصَّلات كوخ القمامة المُشترك.

دخلت نحلةٌ سمينة تتهادى إلى الغرفة، وحدَّثت إيكو نفسها قائلةً: «ربما سأخبره اليوم». خرج ليو من غرفة النوم مرتديًا ملابسه بالكامل، وأعرب عن إعجابه بالتغيير الجديد في ضوء الشقة، قائلًا: «يا له من منظر!»، ثم قبَّل خدها وأخذ خوذته وغادر. ليست إيكو من النساء اللواتي يحتفظن بالكثير من الأسرار، لكنها أخفت عن ليو شيئًا واحدًا فقط، وهو عملية الإجهاض التي خضعت لها في الجامعة، فعندما بدأت بمواعدته، لم تجد أنه من المناسب الإفصاح عن شيءٍ حسَّاسٍ كهذا. ومع مرور الوقت، خافت أن يدفعه هذا السر بعيدًا عنها. وعندما تزوجا، شعرت كأن الأوان قد فات على ذلك بالفعل. لقد تحوَّل كتمان تلك التجربة إلى كذبة، أو ربما إلى شيءٍ بلا أهمية، إلى نقطةٍ تتضاءل في البعد. لذا فمن الأفضل المضي قدمًا.

إذا لم تحمل إيكو خلال الأشهر القليلة المقبلة، ستُشخَّص رسميًا على أنها عقيمة. عندها ستبدأ الفحوصات والأشعة الصوتية، وربما يكتشفون أن هناك شيئًا ما داخلها معطوب أو متضرر. سيتفاجأ ليو، بل سيُصدم، ويغضب، وينفر، فهو ليس من الأشخاص الذين يُخفون مشاعرهم، بل سيظهر كلّ ذلك جليًّا على وجهه أمام الطبيب. ستسود لحظةٌ من الصمت، ومن ثم سيواصل الطبيب حديثه بلباقة، وفي الليلة ذاتها، سيشتعل جدالٌ حادٌّ بين ليو وإيكو في المنزل، وعلى وجه الدقَّة، سيبدأ الجدال قبل أن يصلا إلى البيت، بل سيبدأ بمجرد خروجهما من مكتب الطبيب، في المصعد.

***

ارتدت إيكو بنطالًا من الجينز وقميصًا أبيض، وأُعجبت بجسمها في المرآة، وهي تُلاحظ بساطة أناقة مظهرها، وبدأت تتجول في الشقة. إن رغبت في الخروج، سيتعيَّن عليها أن تقرِّر إلى أين تذهب، إذ لا يمكنها البقاء في مقهى، فالكافيين يجعلها عصبيةً جدًّا، ويزيد احتمالية تعرُّضها لنوبة قلق، حيث تتسارع دقات قلبها، وتتقطَّع أنفاسها، وينتابها إحساسٌ بوخزٍ من أطراف أصابعها حتى كتفيها. كما أنها لم ترغب في التجول بلا هدف، فقد تضيع. لذا جلست على الأريكة، وفتحت كتابًا، ثم تناولت هاتفها وطلبت بعض البقالة لتحضير العشاء.

في تلك الليلة، وبينما كانت تقف في المطبخ المفتوح تفكِّر في الخضراوات وكيف تبدو جميلةً قبل أن تُقطَّع، وملأى بقطرات الندى، شعرت بأنها رأت حركةً بطرف عينها، فالتفتت لترى رجلًا يقف في النافذة -النافذة المقابلة لنافذتها، التي كانت محجوبةً بالسقَّالات من قبل-، كان يقف في منتصف الإطار المربع، مرتديًا قميصًا أبيض بلا أكمام، كأنه في أواخر العشرينيات من عمره، وكان وحيدًا. اعتقدت إيكو

بناءً على حركة ذراعيه أنه يغسل شيئًا ما، فأدركت أنه هو أيضًا يستعدُّ لتحضير العشاء.

ظلَّت تراقبه بنظراتٍ خاطفةٍ بينما تحضِّر معكرونة بالكريمة، كان مندمجًا تمامًا بما يفعله، ولم ينظر مرةً واحدةً باتجاه شقتها. تركت التلفاز دائرًا -الموضوع بجانب نافذة غرفة المعيشة- تحسبًا لاحتمال حاجتها إلى تحويل انتباهها بسرعة. لاحقًا، وفي أثناء العشاء، قالت إيكو لليو: «يبدو أن لدينا جارًا في الشارع المُقابل». أجابها بصوتٍ يوحي بأن ما تقوله واضحٌ، ولا حاجة إلى قوله: «بالطبع. ثمَّة جيران حولنا من كل جانب».

لطالما شكَّل موضوع السكن نقطة خلافٍ بينهما، ففي باريس، عندما حان وقت اختيار شقةٍ من القائمة التي قدمتها له شركة الهندسة التي يعمل بها، اختار ليو شقةً في الطابق الخامس والثلاثين من برجٍ حديث، وقريبٍ من مكتبه. ولكن إيكو التي تُعاني من خوفٍ شديدٍ من المرتفعات، وخوفٍ طفيفٍ من المصاعد، جادلته ليغيِّر قراره لصالح شقةٍ في الطابق الثاني في مبنى «حياةُ الأزقَّة»، في البداية تذمر ليو من قلة الخصوصية ومن غياب الإطلالة، لكنه في النهاية وافق على مضض.

أشارت إيكو إلى النافذة، وقالت: «يبدو أنه شابٌّ أعزب. انظر إلى حجم شقته الصغيرة. يمكنك رؤيتها هناك»، فالتفت ليو إلى الغرفة المضيئة. لم يرَ أحدًا، لكن إيكو رأت زوجها يتفحَّص الفوضى المتمثلة في المعاطف والحقائب المعلقة على خطافات الباب، وكان هناك رفٌّ قريبٌ يحمل قدورًا، ومقالي، وصناديق ملونةً صغيرة. سبق وراقبت إيكو الشقة من زوايا مختلفة طوال المساء، ومن زاويةٍ معيَّنة، رأت سريرًا بطابقين ملتصقًا بالجدار. كانت الغرفة صغيرةً وممتلئةً للغاية.

خارج المنزل، في الزقاق والشوارع، تتعرَّض إيكو لوابلٍ من اللغة الصينية، وبالرغم من تمكُّنها من قراءة الحروف الأساسية بعد دراستها الكانجي خلال فصلٍ دراسيٍّ في الجامعة في كيوتو، إلا أنها وجدت اللغة المنطوقة قاسيةً وغريبة، ولم تحب لكنتها، وبالرغم من تصفُّحها أحيانًا للكتاب الذي تمتلكه والخاص بتعليم الصينية لمن هم في مستواها الابتدائي، لم تكن تُتقن سوى قول «ني هاو» (مرحبًا)، و«شيه شيه» (شكرًا). كانت تردَّدت هاتين الكلمتين كثيرًا. ني هاو. ني هاو. شيه شيه. شيه شيه. لكنها لم ترغب البتة في خوض محادثةٍ باللغة الصينيَّة، ولم تستطع.

كان جيرانها يمضون وقتهم في ترتيب الشرفات الصغيرة المنخفضة، يجلسون عليها ويراقبون اليوم يمضي. أو يقفون في مداخل بيوتهم، أيديهم أو أوراكهم مسنودةٌ إلى إطارات الأبواب المتشققة. وكان معظمهم كبارًا في السن، ومن بينهم رجلٌ قصيرٌ جدًّا ونحيفُ الجسد، يجلب كرسيًّا قابلًا للطي كل يوم ويضعه في الشارع، حيث يجلس متربعًا ويقرأ جريدة طوال الصباح. فكرت إيكو أن احتمال ممارسته لهذه العادة الصباحية منذ خمسين عامًا احتمالٌ واردٌ جدًّا.

تعرف إيكو كيف يكون الجيران، ففي النهاية، تتشابه أنماطهم في كل مكانٍ من العالم. ففي كيوتو وباريس، كانت الجدَّات يحدقن من نوافذهنَّ المحاطة بالدانتيل، ثم ينزلن الدَّرجات الحجرية للثرثرة حول ما رأينه. تُرى، ما الذي يتهامس به جيرانها في شانغهاي الآن؟

- انظر، زوجان جديدان انتقلا إلى هذا المبنى.

- سمعت أن الشقة تكلف...

- إنها جميلةٌ جدًّا. هل تعرف ما يقولونه عن الزوجات اليابانيات؟

- زوجها لا يتواجد في المنزل أبدًا.

كانت إيكو تمر بجوارهم في الشارع دون أن تبادر بالتحية، قد تبتسم أحيانًا بخجلٍ لطفلٍ ما، لكنها من أنصار الاعتقاد القائل بأنه من الأفضل ألا تتورَّط بالعلاقات كثيرًا. لم تُحب إيكو الصين. نعم، تلك هي الحقيقة. كانت تعلم أن ليو لن يرغب في سماع ذلك، وأنه سيقول لها: «إيكو، إنها ثلاث سنواتٍ فقط. عليكِ أن تمنحيها فرصةً قبل أن ترفضيها»، فمنذ أن تزوجا، اعتاد ليو السفر من باريس إلى شانغهاي على نحوٍ متكرر، إذ كانت الأمور تزدهر في شركته الصغيرة في الصين، وقبل ستة أشهرٍ قال إن هذه هي فرصته لفعل شيءٍ حقيقي. لم تعد الشركة تُدار من خلال المكالمات الهاتفية أو عبر مديرة العمليات بيبي، أو الاجتماعات الافتراضية، بل أصبح وجوده ضرورةً لا بدَّ منها.

اتفقا على منح هذه الشركة فرصةً مدَّتها ثلاث سنوات، وسيعمل خلال هذه الفترة، كمستشارٍ للشركة في باريس عن بُعد، بينما يحاول أيضًا تنمية شركته الخاصة. ولكن بعد بضعة أشهرٍ فقط، بدأت إيكو تشتاق إلى باريس، حيث يمكن لليو أن يعود بسهولةٍ إلى وظيفته بدوامٍ كامل. حتى كيوتو قد تكون أفضل، حيث قضت إيكو أيامًا سعيدة خلال دراستها الجامعية. كان ليو يصفها بأنها متعاليةٌ يابانية، ورغم أنها كانت قانونيًّا فرنسية، وقد أمضت معظم حياتها في باريس، إلا أنه لم يصفها أبدًا بـ «الفرنسية». فمن هي إذن؟ هل هي متعاليةٌ يابانيَّة أم فرنسيَّة؟ وعندما سألته، قال لها بلا تردد إنها ثقافيًّا لا تزال يابانيَّة.

توسَّعت الفجوة بين ما يراه ليو وما تشعر به إيكو، وتفاقمت في داخلها. وبعد فترةٍ، بدأت تنظر إلى ليو فتراه يتحول تقريبًا إلى شخصٍ غريبٍ. ما هي أفكاره، ما هي مشاعره تجاهها؟ هل يراها بوضوحٍ أكثر مما ترى هي نفسها؟ كان يقدم ملاحظاته وتحليلاته، ويقول إنه، قبل كل شيءٍ، موضوعيٌّ وعادلٌ. فهل هي المخطئة إذًا؟

ما الذي جعلها تنفر من هذه المدينة؟ إنها لا تحبُّ الناس الذين يدفعونها في المترو، ولا تحبُّ الرجال الذين يخرجون البلغم من حلوقهم استعدادًا للبصق في الشارع. كما أنها تكره الشقة التي تقع في زاوية الزقاق، حيث تنظر بقلق إلى النافذة المحاطة بالشبك في الطابق الأرضي وترى دائمًا صناديق مُكدَّسةً بطيور الحمام المحبوسة في الغرفة المظلمة والمغبرة، دون أن يظهر أيُّ أثرٍ لوجود إنسان. كانت الطيور مسجونةً، وبائسةً، ولم يبدُ أن أحدًا يكترث.

كل مساءٍ، يعود الرجل في المنزل المقابل منزله في السادسة مساءً، ويطهو العشاء. اكتشفت إيكو أنه متزوجٌ من امرأةٍ قصيرة القامة، يبدو أنها تتبع جدولًا مختلفًا عن زوجها، إذ إن وجودها في المنزل لم يكن محكومًا بساعاتٍ أو أوقاتٍ معيَّنة، وغالبًا ما تكون غائبة، وفي أوقات وجودها في البيت، تتجنَّب إيكو النظر إلى شقتهما.

في إحدى الليالي، عندما كان ليو خارج المدينة في رحلة عمل، وبعد أن استمتعت إيكو بطهي العشاء في صُحبة جارتها البعيدة، وجلست لتناول الطعام وحدها على طاولة الطعام، أطفأت أنوار غرفة المعيشة، وزحفت إلى السرير. وفجأةً سمعت صراخًا. تجمَّدت في مكانها. جريمة؟ في زقاقها؟ أصغت السمع: كانت امرأةً تصرخ بالصينيَّة، بصوتٍ عالٍ، لتسمعها الجموع. كانت تبكي وتصرخ صراخًا هستيريًّا، وتتدفَّق الكلمات من فمها بسرعةٍ مدهشة، يملؤها الألم والشقاء.

اتَّجهت إيكو إلى نافذة غرفة النوم ونظرت إلى الخارج، لكن الشارع بدا مظلمًا، إذ ليس ثمَّة أي أعمدة إنارة. كيف ستتصل بالشرطة؟ فهي لا تعرف رقم الشرطة، وحتى لو عرفته، لن تتمكن من مهاتفتهم، فهي لا تتحدث الصينية بما يكفي لتقول: «هناك اعتداءٌ يحدث في شارعي»، لم تكن حتى تعرف كيفية إعطائهم عنوانها باللغة الصينيَّة. كانت تحتفظ

بملاحظةٍ على هاتفها تحتوي على عنوانها والتقاطعات القريبة منه، لتعرِضها على سائقي التاكسي.

انتقلت إلى غرفة المعيشة، وعرفت على الفور أن الهجوم لم يكن يحدث في الشارع. نظرت من النافذة المربعة ورأت أن المرأة الصارخة هي الزوجة، وكان زوجها ينظر إلى الأرض، والنافذة مفتوحةٌ على مصراعيها، ولم يبدُ أنهما يهتمان بأن الجيران جميعهم يمكنهم سماع شجارهما. انحنت إيكو بسرعة، وزحفت تحت النافذة، بعيدًا عن الأنظار. كانت الغرفة مظلمةً، لكنها لم تُغامر بأن يراها أحدهما، فبقيت مختبئة.

خفق قلبها بشدةٍ، وانتبهت إلى أن الزوجة تكرِّر العبارة نفسها مرارًا وتكرارًا. كانت تسأل سؤالًا، وتعرفت إيكو على كلمة «لماذا». كانت الزوجة تطالب بإجابة، وتضرب شيئًا ما لتؤكد كلامها مع كل جملة. يا ليتها تفهم ما يحدث! تخيلت إيكو أكثر السيناريوهات وضوحًا.

«لماذا فعلت ذلك؟ لماذا فعلت ذلك؟» تخيلت أن الأمر يتعلق بامرأةٍ أخرى. هل نظر إليها فقط، ما أثار غيرة زوجته وانعدام أمنها؟ أم أنه تجاوز الحد؟ ربما لم يكن السؤال «لماذا فعلت ذلك؟» بل «لماذا فعلتها مرةً أخرى؟ لماذا تستمر في فعل ذلك بي؟».

رفعت إيكو عينيها ببطءٍ فوق حافة النافذة، وشاهدت المرأة تكرِّر نفسها بلا كلل. بدا كأنها لن تتوقف أبدًا. لم يرفع الرجل عينيه، واستنتجت إيكو أنه يشعر بالخجل، نعم، إنه لمذنبٌ بشيءٍ ما، وربما بخطأ متكرِّر، وقد تكون قد أخطأت في بعض التفاصيل في السيناريو الذي تخيَّلته لسبب شجارهما، إذ ربما كانت لديه مشكلةٌ مع القمار، وأن المال الذي جمعاه بصعوبة انتهى في يد مقامرٍ محتال.

فجأةً، سحبت المرأة يدها ونزلت بها بقوةٍ على وجه الرجل، وتوقفت أنفاس إيكو. لم يفعل الرجل شيئًا في المقابل. كررت الزوجة سؤالها

مرةً أخيرة، ثم انهارت بالبكاء. أمسك الرجل بها وجعلها تجلس، على الأرجح على السرير السفلي، لكن إيكو لم تستطع رؤية تلك الزاوية من مكانها في الغرفة، ولم تجرؤ على التحرك، ثم توجه الرجل إلى النافذة وأغلقها بلُطف.

انتظرت إيكو بضع ثوانٍ قبل أن تمدَّ أطرافها وتزحف بصمتٍ إلى غرفة نومها على أطرافها الأربعة. كانت ساقها اليمنى قد خُدرت. أغلقت باب غرفة النوم، ودخلت السرير، وغطت نفسها بالأغطية. استلقت هناك وهي ترى الصفعة تتكرَّر في ذهنها مرارًا وتكرارًا.

***

في إحدى الأمسيات، وبينما تزامن طبخها للعشاء في بيتها مع طبخ جارها في بيته، اكتشفت إيكو أن البيض نَفد من عندها. وقفت ويداها على وركيها تفكِّر، وطبق البيض الفارغ يتدلَّى من أصابعها. كان بإمكانها الذهاب إلى السوق خارج الزقاق، أو إلى محلِّ الفاكهة القريب، حيث يبيعون بيض الدجاج الأزرق السماوي، لكنها تكره أن تتوقف في منتصف مهمتها. هل يمكنها إعداد العشاء دون بيض؟ لا، لن يعجب ذلك ليو. فهو يفضل أن يكون طبق الأرز بالكاري مغطى بطبقةٍ من الأومليت الرقيق المخفوق، لذا لا بدَّ لها أن تخرج. تنهدت وألقت بالعلبة الفارغة في سلة المهملات، وهي تسمع صوت ليو في رأسها يؤنِّبها لتركها العلبة الفارغة في الثلاجة من الأساس.

استدارت لترى ما الذي يفعله جارها، متظاهرةً أنها تؤجل خروجها. ولدهشتها، رأته ينظر إليها مباشرةً، فتجمَّدت في مكانها. مدَّ يده إلى يساره ورفع بيضةً زرقاء واحدة فأومأت برأسها. نعم، هذا هو ما ينقصها. ابتسم وأشار بإصبعه كما لو كان يقول: «انتظري». استدار،

وفتح الباب خلفه، وغادر. نظرت إيكو إلى النافذة، التي بات الآن يشغلها الباب المُغلق فقط.

في أيِّ طابقٍ يعيش؟ في الثاني مثل إيكو، أم الثالث؟ تصاعد القلق في داخلها. كم من الوقت سيستغرقه للوصول؟ دقَّ جرس الباب، فذهبت إلى جهاز الاتصال الداخلي وشغَّلت الكاميرا. كان هو، ويمسك البيضة بالقُرب من الكاميرا. ماذا تفعل الآن؟ لا يمكنها تركه واقفًا هناك، أليس كذلك؟ ولكن ما الذي سيفكر فيه بشأنها؟ وماذا قد يفعل إذا رفضته؟ فهو يعرف مكان إقامتها، في النهاية. إنها فعلًا بأمسِّ الحاجة إلى البيضة، بل في الحقيقة، تحتاج إلى اثنتين. بعد هذا، لن تستطيع الخروج إلى المتجر أو السوق، وسيتلف العشاء، مما سيضع ليو في مزاجٍ سيئ، قد يستمر سوؤه طوال الليل، وربما حتى اليوم التالي، وستضطر إلى السير على أطراف أصابعها حوله. لا، من الأفضل أن تأخذ البيضة. فقط تأخذ البيضة. فتحت الباب الكهربائي واستمعت إلى وقع خطواته على الدَّرج. ظنت أن ركبتيها ستنهاران من شدة الخوف. ومع ذلك، البيضة. ركَّزت كل تفكيرها على تلك البيضة الزرقاء الوحيدة. يمكنها التعامل معه كما تتعامل مع أيِّ عامل توصيل: تأخذ البيضة، ثم تشكره، وتغلق الباب. طَرق الباب بلطفٍ شديدٍ، ففتحت، وتنهدت بعمقٍ وهي تفتح القفل.

كان يقف عند مدخل الباب، يمسك البيضة. كان أطول مما توقعت، وربما مردُّ ذلك إلى صدمتها من رؤيته عن قُرب. «شيه شيه»، قالت، وهي تأخذ البيضة. حاولت قدر الإمكان تجنب لمس بشرته، لكنها شعرت، برعبٍ، أن إصبعها قد لامس راحة يده. احمرَّ وجهها وارتجفت يدها على مقبض الباب.

ومن مكانه عند العتبة، نظر حوله، محدقًا إلى كل زاويةٍ من زوايا الشقَّة، لو أنه اعتاد أن يراقبها من نافذته، لكان قد رأى كل شيءٍ من

قبل، لكنه استغرق وقته. عندما عاد لينظر إليها، ابتسم، وأشار إلى نفسه قائلًا: «نيو». بدا صوته حادَّ النبرة قليلًا بالنسبة إلى رجل.

- إيكو.

لم تجد في جُعبتها من الكلام أكثر من ذلك. لوح لها مودعًا، وأومأ بجديةٍ، ناظرًا إليها مباشرةً في عينيها. حدقت إليه، خائفةً كما لو كان حيوانًا بريًّا، وعندما نزل السلم، أغلقت الباب وركضت إلى غرفة النوم.

ركضت إيكو واختبأت هناك، لم تُرد أن يراها من نافذته في الحالة التي وضعها فيها، إذ شعرت كأنها مشلولةٌ، ومسكونةٌ بالتوتُّر. لقد أصبحت لديها البيضة. فتحت الباب، واستلقت على السرير، تحاول التقاط أنفاسها، والبيضة مستلقيةٌ بجوارها. كانت تفكر في صوته اللطيف، شبه الأنثوي. اسمه مألوفٌ جدًّا لكنه غريبٌ في آنٍ واحد. نيو. أمضت إيكو الأيام التالية في عذاب، لم تعد تجرؤ على النظر من النافذة، ولم تستطع مغادرة المبنى خوفًا من أن تصادف نيو، ولم تذهب لتناول القهوة الصباحية مع ليو، بل عادت لإغلاق الستائر المُعتِمة مجددًا.

كلما اضطرت إيكو إلى المرور قُرب الباب، كانت تتحرك بحذرٍ حول المكان الذي وقف فيه نيو، وعندما تصل إليها الطلبيات، كانت تدور في قوسٍ واسعٍ حول جسده الحاضر في خيالها كما لو أنه لا يزال هناك، يمنعها من المرور. أراد فقط أن يعطيها بيضة، هذا كل ما في الأمر. ومع ذلك، لم تستطع أن تخبر ليو بما حدث. سينعتها بالفوضويَّة، ويقرِّعها لأنها تركت البيض ينفد، محتفظةً بعلبةٍ فارغةٍ في الثلاجة. سيقول إنها تسمح لقلقها بالسيطرة عليها مرةً أخرى، وإنها تختار الطريق السهل، وتسمح لشخصٍ ما بمساعدتها في حلِّ مشكلتها الخاصة. سيقول إنها بحاجة إلى استعادة السيطرة على حياتها. لم تُرد سماع هذه الكلمات، لقد سمعتها مراتٍ كثيرة من قبل، وبما فيه الكفاية.

أحرقها سرٌّ نيو من الداخل، وشعرت أن خطرًا جديدًا قد تسلَّل إلى حياتها في هيئة جارها. ولكن ماذا يمكنها أن تفعل الآن؟ في اليوم الأول بعد حادثة البيضة، أقنعت نفسها أنها لن تراه مرةً أخرى. لكن ماذا عن النافذة؟ فليس من المعقول أن تبقيها مغلقةً إلى الأبد، خاصة الآن بعد أن عاد الضوء أخيرًا إلى شقتها، لن تنتقل هي وزوجها إلى شقةٍ أخرى بسبب بيضةٍ فقط.

لكن بنهاية الأسبوع، بدأت إيكو تهدأ، ففي النهاية هي لم ترتكب أيَّ خطأ، كل ما فعلته هو أنها أخذت بيضةً من جارٍ لطيف. في باريس، كانت والدتها غالبًا ما ترسلها إلى الجيران لطلب ملعقةٍ صغيرةٍ من الفانيليا، أو بعض الحليب حين ينفد. في طفولتها، لم يكن لديهم ما يكفي، وكان الجميع في المبنى يتشاركون فيما لديهم.

في باريس، ساد شعورٌ بالترابُط في كل مكان. باريس، تلك التي يمكنك اعتباها قريةً مقارنةً بشانغهاي، كانت مكانًا ودودًا. أصبحت تفكِّر في ذلك كثيرًا مؤخرًا، فما المتعة في العيش في مدينةٍ ضخمة، حيث يتجمع خمسة وعشرون مليون شخصٍ لغاية كسب المال فقط؟ شانغهاي ليست سوى مدينةِ الغرباء.

ربما ما جذبها إلى المبنى الذي تُقيم فيه حاليًا هو وصف: المُجتمع الضيق في أحد أحياء شانغهاي القديمة. قبل أن تنتقل هي ووالدتها إلى شقتهما المُحببة ذات الغرفة الواحدة في الحي الخامس عشر، قضت إيكو طفولتها في شقةٍ صغيرة في الحي العشرين. كان لكل بيتٍ نافذةٌ تطلُّ على الفناء المركزي، وكان كبار السن يراقبون طوال اليوم الأطفال وهم يجرون، والنساء يتبادلن الحديث والبضائع. وبدا ذاك الفناء معزولًا عن العالم، وهو كذلك بالفعل، إذ ارتفعت جدران المبنى الحجرية حوله كقلعة، مدعومة بحواجز الحديد الثقيلة التي تلتف حول الشُّرفات

والسلالم بين الطوابق. ومن الفناء، كان بإمكان المرء رؤية أبواب الشقق، التي يظلُّ الكثير منها مفتوحًا قليلًا، تنبعث منه روائح الطعام التي تتصاعد من طابقٍ إلى آخر. كانت تعرف جميع مَن في المبنى، وقد اعتاد الناس في الليالي الدافئة على الخروج إلى الشرفات، أو النزول إلى الفناء لتبادل الأحاديث وتداول الأخبار. لقد كان عالمًا كاملًا.

في المرة التالية التي تجرَّأت فيها على النظر إلى نيو وهو يطهو، التقت عيناها بعينيه وابتسم. أومأت برأسها. وبعد لحظات، كان عند بابها. أصبح يزورها تقريبًا كل مساء، كأن زيارته هذه نوعٌ من المزاح الخاص بينهما، إذ دائمًا ما يحمل معه بيضة، يعرضها على كاميرا الاتصال الداخلي عندما يرنُّ الجرس. كان يساعد إيكو في تحضير الطعام، ويعلِّمان بعضهما البعض أسماء الخضراوات والفواكه باللغتين الصينيَّة والفرنسية: الباذنجان، والطماطم، والملفوف الصيني الصغير. كان الأمر كما لو أن إيكو لديها طاهٍ مساعد، ومعلم لغةٍ في آنٍ واحد. وكان بارعًا في التقطيع، والقصِّ الدقيق، والغسل.

فهمت ذات يومٍ، من خلال حركاته التي تشير إلى الطهي والنوم، أنه يحاول إخبارها بأنه يعمل في ورديَّة الليل كطاهٍ في مطعم. وفي ثلاجتها، بدأ البيض الأزرق يحلُّ تدريجيًّا محلَّ البيض الأبيض والبني.

كانت تفكِّر في باريس كثيرًا في أثناء طهيها مع نيو. لم يكن يتحدث أي لغةٍ أجنبية، ولم تكن هي تتحدث الصينية، ومع ذلك تمكنا من إعداد طبق الكاسوليه، والبطاطا الدوفين، وحساء البصل الفرنسي. ومع وجود شخصٍ يقوم بنصف العمل، سعدت إيكو بإعداد أطباق أكثر تعقيدًا، بعضها لم تتذوَّقه منذ طفولتها.

في اليوم التالي بعد أن صنعوا حلوى البروفيترول معًا، أحضر نيو زلابية واحدة محشوة باللحم والثوم المعمَّر، وملفوفةً حديثًا ومغطاةً

بطبقةٍ خفيفةٍ من الدقيق. وقال: «صينيَّة»، ثم أسقطها في وعاء من الماء المغلي. عندما طفت على السطح، متأرجحةً في حمامها اللبني، أخرجها بزوجٍ من عيدان الأكل، وأمسك بها، وهي لا تزال ساخنةً، بين إصبعيه، ونفخ عليها بلطفٍ، ثم قرَّبها من شفتي إيكو، وعيناه مركزتان على فمها، وعلى أسنانها، وعلى الجلد المتشقِّق والبخار المتصاعد.

يتمتَّع نيو بجمالٍ موضوعيٍّ لا يُنكر، وبرأي إيكو فإن أي امرأةٍ ستجده جذَّابًا لا محالة، فهو نموذجٌ ممتازٌ لجنسه، وربما كان أكثر جمالًا من ليو، فهو أطول منه، ووجوده في الشقة جعلها تبدو فجأةً أصغر حجمًا، وأكثر اكتظاظًا، وقد أحبَّت إيكو هذا الشعور.

أدركت إيكو تمامًا ما يعنيه نيو بالنسبة إليها، إنه هديتها الثمينة، والشخص الذي جعل حياتها في الصين أسهل وأمتع، ولم يكن ليو ليفهم ذلك. على سبيل المثال، يعرف ليو أن الجميع في الصين يوظفون من يساعدهم في الأعمال المنزلية، ولكن عندما ذكرت لها مرة إمكانية استئجار شخصٍ للمساعدة في التنظيف، ولو مرةً أو مرتين في الشهر، حصلت بالطبع على محاضرةٍ كاملة حول المسألة وتحليل لطبيعتها «الكسولة» التي تعود جذورها إلى طفولةٍ غارقةٍ في دلال والدتها الحنونة. وأصرَّ على أن الأمر لا علاقة له بالمال، بل بالمبدأ. لماذا يجب أن تتجنب إيكو الأعمال المنزلية لمجرد أنها لا تحبها؟ فالجميع يضطر إلى فعل أشياء لا يحبها، وهذا ما يُسمى بالحياة الحقيقيَّة، كما أنها لا تعمل حتى. لكنها تعرف أن الأمر بالنسبة إليه له جانبٌ يتعلق بالمال أيضًا، فعلى مر السنين، ومع نمو ثروتهما، نما معها اقتصاد ليو المُفرط، وهو شيءٌ لم تدركه في بداية علاقتهما، ولم تحبُّه فيما بعد على الإطلاق.

ربما تنازلت إيكو عن موقفها القوي عندما تخلَّت عن دخلِها، فهل كان ليو سيرفض المساعدة لو أنها تعمل أيضًا؟ هل كانت ستحتاج حتى

إلى أن تطلب؟ لكن ربما ليو على حق، فالقيام بالأعمال المنزلية اللازمة لا يتطلَّب منها الكثير، وكانت مستعدةً لِفعل ذلك بها على الأقل في الوقت الحالي.

أما نيو، فقد بدا أنه يستمتع بتحضير الطعام. كان يغسل ويُجفف الأطباق في أثناء التحضير، ولأسبوعين وبعد أن يوضع الطعام في الفرن، لم يعرفا ماذا يفعلان ببعضهما البعض، إذ يتذوقان بعض الطعام، لكنهما لم يتناولا العشاء معًا، فالطبق الذي يعدَّانه مخصصٌ لليو. كانا ينظفان المكان، وتصبُّ إيكو كأسًا من النبيذ لنيو، ثم يبدأن بالإشارة إلى الأشياء والتعرُّف على أسمائها باللغتين الصينيَّة والفرنسية. وعندما يرسل ليو رسالةً يخبرها فيها بأنه بدأ رحلته التي تستغرق أربعين دقيقة للعودة إلى المنزل، تشير إلى أن الوقت قد حان للرحيل.

ليست إيكو بالمرأة الغبية، أو الغافلة، فهي تعرف تمام المعرفة ما قد يصبح حتميًّا مع نيو، وما الذي دعته إليه عندما قررت أن تفتح الباب. لكن نيو لم يتَّخذ أي خطوةٍ في هذا الاتجاه، فانتظرت بمزيجٍ من الإثارة والخوف، متعجبةً من القوة التي بدا أنها تمتلكها عليه.

ومع مرور الأيام، ولكي تملأ الصمت، بدأت إيكو تتحدث أكثر فأكثر. ومع عدم وجود خوفٍ من الحُكم، بدأت تخبر نيو أشياء لم تخبرها لليو من قبل، أشياء لم تكن حتى تدرك أنها تشعر بها. في أحد الأيام، أخبرته عن وظائفها في باريس، فبعد أن حصلت على شهادةٍ جامعيةٍ في العلاقات العامة، واكتشفت أن العمل في هذا المجال كان تنافسيًّا ومجهدًا للغاية بالنسبة إليها، بدأت تعاني من نوبات قلقٍ في أثناء تجهُّزها للذهاب إلى العمل. وبناءً على إلحاح ليو، انتقلت لدراسة التصميم الداخلي، وهو مجالٌ اعتقد ليو أنه يتناسب مع مواهبها، (حيث

قال لها: «حتى شقتكِ الطلابية كانت مصممةً بأناقة»). شعرت حينها باهتمامه الحقيقي بسعادتها، وتأثَّرت بفهمه الدقيق لطبيعتها.

أدركت أنها تجد الراحة في العمل مع الأشياء والفن أكثر من التعامل مع الناس، وفي وظيفتها الجديدة في التصميم الداخلي، استمتعت بالشعور الرائع عندما يكتمل ترتيب الغرفة بعد تخطيطٍ دقيق. ورغم ترددها أحيانًا، إذ قد تقضي عشر دقائق فقط في تحريك مصباحٍ بضع سنتيمترات يسارًا أو يمينًا، لكنها أحبَّت تلك التفاصيل الصغيرة، واستمتعت بالإنجاز الهادئ الذي يصاحب ذلك العمل. لكن ليو أراد الانتقال إلى شانغهاي بعد ستة أشهرٍ فقط من بدايتها في العمل، ولم يكن لشركتها مكتبٌ دوليٌّ في الصين. عندما غادرت، وعدتها مديرتها بأن مكانها سيظلُّ شاغرًا بانتظار عودتها في حال قررت العودة. ورغم ذلك، كان جزءٌ منها سعيدًا بالتخلي عن العمل، فحتى مع ملاءمة العمل لها، كانت البيئة المكتبية وزملاؤها يسببون لها القلق. وبما أنها لا تتحدث الصينيَّة، كانت فرصها في العمل في شانغهاي معدومة، لذا خططت هي وليو أن تضع تركيزها كاملًا على إنجاب وتربية الأطفال. كان نيو يساعدها في المطبخ بينما تتحدث، وأشعرها حضوره الهادئ براحةٍ تامَّة.

أخبرته عن ليو، المهندس الإنشائي الذي حقق نجاحًا كبيرًا في باريس بعد حصوله على الدكتوراه، وعن انتقالهما إلى شانغهاي. كان ليو بارعًا في عمله بطبيعته، ولم يكره شيئًا أكثر من الفوضى والمخاطر، ولم يحب شيئًا أكثر من الدقَّة. على مر السنوات، تكرَّرت شجاراتهما المتعلِّقة بفشل إيكو في إتقان الأعمال المنزلية وفقًا لمعاييره الصارمة، حتى أنها صرخت في وجهه ذات مرة: «لستُ خادمتكَ!»، بعد أن علَّمها للمرة الألف كيف تطوي البطانية وتضعها تحت السرير بطريقةٍ مثاليَّة. بعد تلك

الحادثة، لم تحاول ولو لمرةٍ واحدةٍ أن تطوي البطانيات بالطريقة التي يُفضلها، بل أنجزت ذلك كما يفعل الأشخاص العاديون، بشكلٍ جيد، ولكن ليس كما علمها، رغم أنها اعترفت في داخلها أن طريقته أجمل.

يمكن القول إن إيكو كانت في حالة انسحابٍ بطيءٍ من حُبها لليو خلال السنوات الخمس الماضية. وقد ألقت باللوم جزئيًّا على عدم إنجابهما أطفالًا، فالأمور كانت تسير على المنوال نفسه لفترةٍ طويلةٍ جدًّا. كانا يقولان لنفسيهما وللآخرين إنهما ينتظران، لكن ماذا ينتظران؟ شعرت إيكو بالملل أو ربما بالاستياء من علاقتها بليو. لقد بدأت تشعر كأنها طفلة، كأن ليو يحاول تدريبها وتعليمها دائمًا. هل كان يُدربها للحياة؟ للعمل؟ للأمومة؟ لقد استهلكت ملاحظاته الدائمة طاقتها.

أحيانًا كانت تلقي نظراتٍ خاطفةً نحو المستقبل، وتتخيل ليو بجبهته العريضة فوق عينيه المستديرتين، ومظهره الغاضب، رغم وسامته، ووجهه المربع الذي يُبهر الناس عندما يبتسم بسهولة، ويبدأ في الحديث بحماسةٍ لساعات. يحبُّ ليو أن يُبدي رأيه حول كل شيءٍ في العالم: العلوم، والسياسة، ومُستقبل شانغهاي والصين، وطبخ إيكو، وملابسها، واختياراتها للكتب، والأصدقاء. تخيلت النسخة الأكبر سنًّا من ليو على أنها أكثر غضبًا، وأكثر وسامةً، وأكثر حماسًا. لكن ما لم تستطع رؤيته بوضوح كان مستقبلها هي. وبينما هي تتحدث، كان نيو يراقب، ويبتسم، ويومئ برأسه.

أخيرًا، أخبرته عن فيليب. في أيام الجامعة، فقبل ليو، قضت ليلةً واحدةً فقط مع شابٍّ ذي عينين زرقاوين لامعتين كالألماس. كانت في سنتها الأولى، والتقت على الفور بأجمل رجلٍ رأته في حياتها. بدا لها أن كل ما عليه فعله هو النظر إليها، والتركيز على عينيها البُنيتين، حتى يأسرها ويجذبها إلى فِراشه. كانت العلاقة الجسدية عابرةً لا تستحق

الذكر، لكن ما لم تنسه هو عيناه، تلك الجوهرتان اللتان لمعتا فوقها في الظلام الخافت كأنهما ضوء نيون. في تلك الليلة، أوصلها بسيارته من شقته إلى سكنها الجامعي، وقال لها إنه سيتخرج من كلية الأعمال خلال عامٍ واحد، وكان هذا كلَّ ما عرفته عنه إلى جانب اسمه الأول. عندما وصل إلى أمام مبناها، قال: «شكرًا»، واكتفى بذلك. أرادت أن تمسكه، أن تطالبه، أن تضحك وتبتسم له بإغراء، أن تقبِّله بعنفٍ وشغف، لكن الخوف والشك سيطرا عليها، ولم تستطع إلا أن تقول: «عفوًا» وتنزل إلى الشارع. خلال الأسابيع التي تلت تلك الليلة، انتظرت أن تسمع أي خبرٍ منه. إذا أراد «فيليب» أن يعثر عليها، فبإمكانه أن يجدها، لكنها لم تسمع شيئًا منه.

حملت إيكو من فيليب، وتمكنت من العثور على طبيبٍ منحها خصمًا على الإجراء بسبب سنِّها وظروفها. لم تتردَّد سوى بشأن أمرٍ واحدٍ فقط، وهو خسارتها لطفلٍ قد يحمل عينيه الزرقاوين، لكنها في النهاية لم تشعر بأي ندم. بعد انتهاء الإجراء، شعرت بالكثير من الألم، لكن كلَّ شيءٍ عاد إلى طبيعته بعد بضعة أشهر. وبعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ، بدأت تواعد زميلًا لها، ديفيد، رغم أنه دائمًا ما كان أقرب إلى صديق. ثم التقت بليو -الرجل الجاد، ذو البشرة الداكنة، الأكبر سنًّا والوسيم- الذي وقع في حبها بسرعةٍ وشموليَّة، وبثقةٍ لا تتزعزع. جعلها تشعر كأنها أجمل إنسانةٍ على وجه الأرض، وأراد أن يعرف كلَّ شيءٍ عن اليابان، وعن فرنسا، وعن طفولتها، وعن أفكارها حول الفن والتصميم. بدا كأنه يلهث للوصول إليها، كأنه يريد أن يوجد بالكامل داخل جسدها وعقلها.

متى وقعت في حبه؟ تتذكر أنها قالتها أول مرةٍ قبل أن تشعر بها، لكنها شعرت بها لاحقًا بعد وقتٍ قصيرٍ للغاية من قولها. كان جماله، نعم، وقُوته، أمرين لا يمكن إنكارهما، لكن أيضًا فضوله، وقدرته على

الحديث والاستماع لساعات، وطبيعة حبه النقي والمُركَّز مثل شعاع ليزر، جعلها تعلم أن حبها له لن يزول أبدًا. كانت سعيدة، وشعرت بالاكتمال، فتوقفت عن التدخين والشرب، وأصبحت أفضل نسخةٍ من نفسها عرفتها على الإطلاق.

لطالما افترضت إيكو أنها ينبوعٌ للخصوبة، لذا صُدمت بواقع وضعها الحالي، ماذا ستفعل بحياتها إن لم تنجب أطفالًا؟ كانت تُراقب نيو، بحركاته الدقيقة والسريعة، المُتناقضة مع بنية كتفيه وذراعيه القويتين. سألته كيف ينبغي لها أن تملأ أيامها، التي باتت تبدو لها كثيرةً جدًّا عندما تنظر إليها من هذه الزاوية الجديدة، زاوية العقم، فلم يحرِ إجابة.

تعرف أن ليو سيطالبها بالبحث عن عملٍ قريبًا إن لم تحمل، وأنه سينتظر الفترة المناسبة، ويطرح الموضوع للنقاش بحذرٍ ورفقٍ، لكن بجديةٍ أيضًا، بحيث يتعذَّر التملُّص من تلك المحادثة. تخيَّلت إيكو ذلك الحوار الحتمي، وأدَّت دورها أمام نيو: بدايةً سيسألها ليو: «ماذا ستفعلين الآن؟ ما هو مخطَّطكِ؟». وهي لم تضع أي مخطَّطٍ للعمل بعد أن أدركت أنها لا تحب بيئات العمل. عندما عملت في استوديو التصميم، وجدت صعوبةً في مجاراة الحشود الثرية والمغرورة التي تحيط بها، إذ كانوا جميعًا على درايةٍ عميقةٍ بالأمور، وأذواقهم متطورةٌ جدًّا، متى وكيف أصبحوا واثقين هكذا؟ في بعض الأحيان، عندما كانت تتخذ قراراتٍ في العمل، كانت تحاول أن تستدعي شخصية والدتها. ماذا ستقول دافني؟ ماذا سترتدي دافني؟ ماذا ستفضل دافني؟ لكن تقمُّص شخصية والدتها يتطلب جهدًا، لذا فضَّلت البقاء في المنزل. وهنا، في هذا المكان الغريب، في مدينةٍ لا تعرفها، بدت لها حياتها المنزلية

منطقيَّة. كانت تشعر بصِغر حجمها، نعم، ولكن أيضًا بالأمان. لطالما علمت أنها ستكون أُمًّا جيدة.

في الآونة الأخيرة، بدأت تفكر كثيرًا في التبنِّي، وقد أحبَّت الفكرة، ربما يناسبها أن تتبنَّى طفلًا صينيًّا، يكون من الريف، وراحت تطرح الفكرة أحيانًا على ليو على نحوٍ عرضيٍّ: «أتساءل، ما رأيك في التبنِّي؟ كما لو أن الفكرة قد خطرت على بالها لتوها، أما في خيالها، فكانت تتلاعب بنبرة صوتها وهي تطرح السؤال، لكنها شعرت بالفعل أن الأمر لن يعجبه.

خلال حديثها مع نيو عن فيليب، أدركت إيكو أنها احتفظت بهذه القصة لنفسها طوال هذه السنين ليس خوفًا، بل بدافع الحماية. أرادت أن تحتفظ بها لنفسها، فتلك القصة كانت جوهرتها، ومغامرة حياتها. ما زالت ترى بوضوح تلك الأعين الزرقاء اللامعة. لم يفهم نيو ما تقوله، ولكن مجرد البوح بالقصة كاد يفسدها.

وجاءت اللحظة التي تغيرت فيها الأمور بين إيكو ونيو، ففي أثناء تحضير طبق «كوك أو فين»، كانا يقفان جنبًا إلى جنب، يُقطعان الفطر، وشعرت بالطاقة التي ينبض بها قُربه منها. كان صامتًا. ثم وضع سكينه وأسدل يده على يدها. توقفت عن التقطيع، لكنها لم تستطع أن تتحرك، بقيت يده على يدها، وهي تمسك سكينها الرفيع، هكذا، لفترةٍ بدت كأنها طويلةٌ جدًّا. أخيرًا، جذبها نحوه، وعندما التقت الأعين، رأت في عينيه الخوف وعدم الثقة مما يفعله، وارتجفت شفتاه، فتأثرت بخوفه، واختفى خوفها بسببه.

في إحدى الأمسيات في الأسبوع التالي، استلقت إيكو بجانب نيو، ورأساهما عند أسفل سريرها. من هذا المنظور، بدت غرفتها مختلفةً تمامًا. وضعت يدها على رأس نيو، تمرر أصابعها بين خصلات شعره

الخشن، شعرت أن الصمت معه مُريح، إذ إنها نادرًا ما تقضي لحظةً هادئةً مع ليو. ليس هناك لغةٌ مشتركةٌ بينها وبين نيو، وقد أحبَّت هذه الفسحة، هذا الإعفاء من التواصل، من الحاجة إلى الإثبات، أو الدفاع، أو التخطيط. لاحت لها لمحةٌ من ستارةٍ تتحرك في نافذةٍ طويلةٍ بالبناية المجاورة. لم تكن قد لاحظت أي نوافذ من المكان الذي تستلقي فيه عادةً، ولم تعرف من يسكن هناك.

لم تعد تفكر في أي شخصٍ في الحي الآن باستثناء نيو، الذي بات وجوده يملأ شقتها، حتى عندما يكون في الجانب الآخر من الشارع. لكن هذه النافذة كانت أقرب، والآن أدركت أنها تطلُّ مباشرةً على غرفة نومها. ارتدت قميصًا بسرعةٍ ورفعت هاتفها، مشيرة إلى نيو أن الوقت قد حان للذهاب. لم يكن بينهما وبين نيو سوى هذه الإشارات والتخمينات للتواصل.

منذ ذلك اليوم، عاد القلق إلى قلبها. هل الناظر هو صاحب متجر الفواكه، أم الرجل الذي يقف في الشارع يبيع الأطباق والأوعية على عربة؟ أم أنها تلك المرأة العجوز التي تعاني من ورمٍ كبيرٍ في الجانب الأيمن من بطنها؟ تضاءلت رغبة إيكو الآن في مُغادرة المنزل أكثر من أي وقتٍ مضى. من في الشارع رآها؟ من في الشارع يتحدث عنها؟

- الفتاة الأجنبية، لن تتخيلي أبدًا ما رأيت! رأيتها في السرير مع نيو!
- إنها تفضل الرجال المحليين.
- لو كنت أعلم ذلك، لربما جرَّبت حظي معها!

كما أنها أبقت ستارتها مغلقةً معظم الأوقات والأيام.

في بعض المساءات، يرغب ليو أحيانًا بالخروج لتناوُل مشروب، وتصحبه إيكو على مضض، وبينما يسيران في الزقاق، مُتشابكي الأيدي غالبًا، تشعر كما لو أنها تسير والأحكام تتوالى من خلفها، وأن جيرانها

خلف النوافذ المُعتِمة والستائر الشفافة يراقبون، ويتهامسون بما يعلمون: هذه هي المرأة الخائنة.

تساءلت إيكو، بمرارةٍ، كم من العلاقات الصينيَّة بدأت وانتهت في هذا الزقاق على مر العقود، وما وجه الاختلاف بين هذه العلاقات وعلاقتها هي نفسها؟ عندما كانت تخرج، كانت تسلِّط عينيها على الأرض قدر الإمكان، ولكن عندما تصادف أن تلتقي عيناها بعينَي بائع الفواكه أو رجل القمامة، كانت تومض بنظرةٍ باردةٍ، مفعمةٍ بالكرامة، كأنها تقول لهما: تجرأ على الحكم عليَّ، لترَ إن كنت أبالي!

ولكن بعد ذلك كانت تضغط على رقم الدخول إلى مبناها وتركض صاعدةً الدَّرج، ويدها ترتعش، فتُسقِط مفتاحها مرةً، أو مرتين، وبمجرد أن تتجاوز عتبة الباب، تندفع لإغلاق جميع النوافذ والستائر التي فتحها ليو في الصباح، ثم تنهار على الأريكة.

لا تزال إيكو وليو يعيشان لحظاتهما بين الحين والآخر، عندما تشعر كأنها النسخة الأصغر من نفسها، تلك النسخة الجامعية التي أحبته منذ زمنٍ بعيد. وكانت العلاقة مع نيو، بما تحمله من إثارة، تجعلها عرضةً للسعادة مع ليو مرةً أخرى. أحيانًا، وهي مستلقيةٌ في السرير، كانت تضحك على كلمةٍ جديدةٍ تعلَّمتها، أو شيءٍ فعله نيو لها في تلك الظهيرة. كانت توجِّه ابتسامتها نحو ليو لتخفف من دلالتها. فيسألها: «ما الذي يُضحككِ؟»، لتردَّ: «لا شيء»، لكنها بعد ذلك تداعب خدَّه بملامح مرحةٍ، فتنتقل سعادتها إليه، ثم يتحركان إلى وضعيتهما المعتادة.

***

انهمك ليو في التحضير لمؤتمرٍ طوال عطلة شهر أبريل/ نيسان، وسأل إيكو عن رغبتها في البقاء معه في فندق بارك هايات، حيث سيتمتَّعان بحمَّام السباحة وصالة الألعاب الرياضية. لكنها اعتذرت،

مشيرةً إلى خوفها من الأماكن العالية، لكنها في الحقيقة، كانت تتطلع لقضاء الوقت مع نيو، وربما حتى أن يبقى في منزلها. كانا سيُبقيان الستائر مغلقةً لعدة أيام.

لكن بعد وقتٍ قصيرٍ من مغادرة ليو إلى الفندق، نظرت إيكو إلى النافذة المقابلة لنافذتها، ورأت زوجة نيو تدخل الشقة. كان من الممكن أن يكون ذلك مخيبًا للآمال بما فيه الكفاية، ولكنها بالإضافة إلى ذلك رأتها تحمل بين ذراعيها شيئًا لم تتخيل قط رؤيته في تلك الشقة الصغيرة عبر الشارع: طفلٌ صغير، صبي، يشبه والده تمامًا. شعرت إيكو بالهلع.

أين كان هذا الصبي؟ أيعيش مع جدَّيه؟ هل نيو وزوجته من العمال المهاجرين؟ وكيف يمكن أن يكون لدى نيو طفل طوال هذه المدة دون أن يخبرها؟ ولكن بالطبع، لم يخبرها، فهو بالكاد يخبرها بأي شيءٍ، ولا يمكنه التواصل معها البتَّة تقريبًا.

رأت نيو في الجهة المعاكسة للنافذة، وهو يرفع الطفل لأعلى ولأسفل، بينما تقترب زوجته لتُداعب الطفل الضاحك كلما سقط في أحضان والده. طوال هذا الوقت، كان لنيو طفلٌ. وقفت إيكو خلف باب غرفة نومها، تتلصَّص لترى إن كان نيو سينظر نحو شقتها، أرادت أن ترى وجهه، ماذا كانت تنتظر؟ كانت تنتظر رؤية تعبير السعادة على وجهه. لكنه لم يلتفت نحوها البتَّة، انقلبت معدتها، وركضت نحو الحمَّام، وركعت فوق المرحاض، لم يخرج شيء، ثم بدأت تتقيأ، لكن الغثيان لم يتوقَّف، واستمرَّ على شكل موجاتٍ طوال اليومين التاليين. أخيرًا، خطرت لها فكرة، فركضت إلى الصيدلية واشترت اختبارًا للحمل، كان عليها البحث عن صورةٍ واحدةٍ على هاتفها وإظهارها للعاملين

خلف الطاولة. وعندما عادت إلى المنزل، حيث الباب المُغلق والستائر المُنسدِلة، اكتشفت أنها حامل.

لم تخبر إيكو أحدًا خلال الأيام الثلاثة التالية. ففي تلك الأيام، كان ابن نيو مع والديه، وكان ليو في الفندق، وهي منحنيةٌ فوق المرحاض، تشعر بالمرضِ، وتفكّر.

لقد توخيا الحذر، لذا من غير المُرجَّح أن يكون الطفل ابن نيو. ولكن حتى لو أنه كذلك، لم ترغب إيكو في أن تحلَّ محلَّ زوجته على السرير العلوي. أدركت أنها لا تحب نيو بالقدر الذي يجب أن تشعر به، فلو أنها تحبه حقًّا، ألن تقبل بالذهاب معه إلى أي مكان، وأن تشاركه أي سريرٍ في أي غرفةٍ ضيِّقة، لتصفعه وتدمِّر نفسها أمام نافذتهما الصغيرة الوحيدة؟

في نهاية الأيام الثلاثة، قررت إيكو أن تُخبر ليو، وألا تُخبر نيو قط، فنيو لديه طفل. وبمجرد أن اتخذت قرارها، شعرت بصبرها ينفد، وبتبخُّر قدرتها على الانتظار. سيحظيان بطفلٍ، وستسير الحياة كما يجب، كما أنها لم تكن ترغب في انتظار عودة ليو إلى المنزل لتخبره، بل أرادت أن تخبره في مكانٍ لم تطأه قدم نيو أبدًا، وربما لن يذهب إليه قط.

***

تقع «غرفة المعيشة» في فندق بارك هايات في الطابق السابع والثمانين من مركز لوجيازوي المالي العالمي، في الحي التِجاري. سبق وزارت إيكو هذا المبنى مرتين: مرَّة، قبل أشهر، في بداية إقامتهما في شانغهاي -موعد عشاء مع ليو-، ومرةً أخرى بعد ذلك بقليلٍ لتناوُل شاي الظهيرة. كان ليو يحب أن يأخذها إلى المباني الشاهقة، ليضعها وجهًا لوجه أمام خوفها من المُرتفعات، فبرأيه مواجهة المخاوف هي

السبيل الوحيد للتغلب عليها. من خلف النوافذ، يمكنك أن ترى المدينة بمشهدٍ بانوراميٍّ، وتظهر أيضًا ناطحات السحاب الأخرى المحيطة بلوجيازوي. لم تكن إيكو تعرف سوى القليل جدًّا عن ماهية الأمر، ففي المرة الأولى التي تناولت فيها العشاء هنا، كانت خائفةً للغاية، إذ اهتزّ المصعد السريع قليلًا، واضطرت إلى إغلاق عينيها. لكن هذه المرة، وضعت تركيزها على التحكُّم في شعورها بالغثيان، فلم تلاحظ المصعد السريع. عندما خرجت ووجدت نفسها على الأرضية الثابتة مرةً أخرى، شعرت بهدوءٍ ساحرٍ يتفشَّى داخلها.

كانت الغرفة الواسعة المفتوحة مزيَّنةً بكراسٍ منخفضةٍ مبطنةٍ بألوان الأبيض والبيج، وبدت السماء خلف النوافذ زرقاء باهتةً، ومعتمةً مثل جداريةٍ أو ورق حائط. توجهت إلى مقعدٍ جوار النافذة، ونظرت إلى المدينة في الأسفل، فبدت لها أشبه ببطاقةٍ بريديَّة لا تثير الخوف، ومع ذلك، بدأ قلبها ينبض بسرعة. لقد كانا يحاولان إنجاب طفلٍ، ولكن هل سيكون ليو سعيدًا؟ جاءت نادلةٌ وسألتها إذا كانت تريد بعض الشاي، فأجابت بالإيجاب واختارت شيئًا رخيصًا نسبيًّا من القائمة. ثم أرسلت رسالةً نصيَّة إلى ليو، كتبت فيها: «أنا في الفندق. غرفة المعيشة. هل يمكنك المرور عندما تتاح لك الفرصة؟».

سرعان ما رأت ليو يسير نحوها، وتتبعه النادلة مع الشاي.

- يا لها من مفاجأةٍ! أجئتِ بمفردكِ؟

أومأت إيكو برأسها بينما جلس ليو. راقبا معًا النادلة وهي تصبُّ الشاي، ثم انحنت قليلًا قبل أن تغادر. التفت ليو نحو إيكو، وسألها: «هل كل شيءٍ على ما يرام؟».

- أنا حامل.

أرادت أن يخرج الخبر من فمها بسعادةٍ وحماس، لكنه بدلًا من ذلك بدا كأنه مليءٌ بالخوف والتردُّد. مدَّ ليو يده عبر الطاولة الصغيرة وأمسك بيدها، وسألها: «هل أنتِ متأكدةٌ؟ كيف عرفتِ؟».

- نعم، ليو. أجريت ثلاثة اختبارات، وأشعر بتوعُّك، كما أنني تخلفت عن موعد الدورة الشهرية.

ابتسم ليو بسعادةٍ وقال همسًا: «سنكون والدَين. كيف؟».

هزَّت إيكو كتفيها وقالت: «يبدو أننا محظوظون». ثم أضافت: «ولكن ربما نحتاج إلى الانتقال إلى مبنى به مصعد قبل ولادة الطفل. ربما إلى شقةٍ في مبنى عالٍ»، وأشارت إلى النوافذ، قائلةً: «انظر، لم أعد أخاف».

بعد العطلة، عندما رفع نيو بيضةً وقدَّمها من نافذته، هزَّت إيكو رأسها بالنفي. كانت راضية، بعد أن انتقلت إليها سعادة ليو ورضاه. أغلقت جميع الستائر تلك الليلة لتكون وحدها مع طفلها، مع ذاتها، وأعادت قراءة كتاب الحمل بتركيزٍ جديدٍ، وهدفٍ واضح.

رافقها ليو في أول موعدٍ لها مع الطبيبة النسائية، وفي غرفة الأشعة الصوتية، وضعت الطبيبة جلًّا باردًا على بطنها المسطح، ونظر الجميع إلى الشاشة الصغيرة في صمت. ظهر شكلٌ غير واضح، وركَّزت إيكو على هذا الكائن، تدرس شكله وحركاته. فجأةً، انزلق كائنٌ آخر إلى الشاشة، فشعرت أن العالم ينسحب بعيدًا، كما لو أن هذين الكائنين قد تضخما، ولم تعد ترى أو تسمع شيئًا سواهما، كأنهما ملأا كامل عقلها. في مكان ما في الخلفية، كانت تسجل كلمات الطبيب، باللغة الإنجليزية المتكسرة: «خطر»، «حذر»، «توأم»، «عنق الرحم». أومأت إيكو برأسها بطريقةٍ غامضة.

كان الطبيب يقول: «إيكو، إيكو! تهانينا. هل لديك أي أسئلةٍ فوريَّة؟» ظلَّ ليو صامتًا ينظر إليها بفرح. شعرت إيكو برغبةٍ في الهروب، في ألا تُرى، وأجابت: «نعم. أيها الطبيب، هل يمكنني السفر؟».

- ما نوع السفر الذي نتحدث عنه؟ إجازةٌ قريبة، أم رحلةٌ طويلة؟

أمال الطبيب رأسه وفكَّر للحظةٍ قبل أن يجيب عن سؤاله بنفسه: «حسنًا، من المحتمل جدًّا أن تكوني مضطرةً إلى الراحة في الفراش خلال الثلث الأخير. نحن عادةً لا نُوصي بالسفر في الثلث الأول، لأنكِ لن تشعري بحالةٍ جيدة. أما الثلث الثاني، فدعينا نرى بدايةً كيف يتقدم الحمل. قد تُتاح لكِ نافذةٌ صغيرة للسفر».

***

في طريق عودتهما من الموعد الطبي، رأت إيكو وليو مجموعةً من الرجال واقفين بالقُرب من عربة السيراميك في شارعهما. وشعرت إيكو بنظراتهم تلاحقها من بعيد. تُقدم أحدهم، بائع الفاكهة، نحوهما بينما اقتربا، وقال: «ني هاو!».

توقف الزوجان في مكانهما. وكان باب منزلهما على بُعد خطواتٍ قليلةٍ فقط. بدأ الغسق ينسحب، والسماء تزداد ظلمة، وتحوَّل الرجال تدريجيًّا إلى ظلال. تساءلت إيكو في سرِّها: هل يمكنهم أن يعرفوا؟ هل لاحظوا أنني حامل؟

ردَّ ليو التحيَّة: «ني هاو»، ووقفت إيكو تحدق إلى الرجل، وتتوسَّل بصمتٍ ألا يقول أيَّ شيءٍ عن نيو.

سأل بائع الفاكهة باللغة الإنجليزية: «هل تحب الصين؟». فأجاب ليو: «نعم، أنا صيني».

أشار الرجل نحو إيكو قائلًا: «هي أيضًا تحب الصين». أجاب ليو: «نعم». استدار بعدها الرجل نحو أصدقائه معلنًا: «هي تحب الصين!» ثم أضاف قائلًا: «أريغاتو!»[1] وبدأ الجميع بالضحك. وانضمَّ ليو إلى جوقة الضحك أيضًا.

سألت إيكو: «ما المُضحك؟».

- لا أعلم، إنه فقط مُضحك.

لوح بيده للرجال مبتسمًا، وقال: «ليلةً سعيدة، أيها السادة».

في تلك الليلة، وبعد هذا الموقف في الزقاق، اتخذت إيكو قرارًا آخر. أدركت أنها لا تحبُّ الصين وأن ليو، بعد كلِّ هذه السنوات، لا يعرف شيئًا عنها حقًّا، لذا قررت أنها ستتركه، قد يستغرق الأمر وقتًا، لكنها ستفعل في النهاية.

قبل أن تظهر عليها علامات الحمل، انتقلا إلى شقةٍ في مبنى شاهق، تطلُّ نوافذه على مناظر شاسعةٍ للمدينة، وهو المبنى الذي أراد ليو العيش فيه في المقام الأول. قال ليو تعقيبًا على المسكن الجديد: «نعم، هذا هو العيش الحقيقي في شانغهاي».

استأجرا مربيةً بدوامٍ جزئيٍّ لتساعد إيكو في رعاية التوأم والأعمال المنزلية. إذ يمكنها التعامل بمفردها مع طفلٍ واحد، ولكن مع توأم، حتى ليو أقرَّ بأنها ستحتاج إلى مساعدة. فكَّرت إيكو مرارًا وتكرارًا، وكانت تستطيع الذهاب إلى باريس، وربما لن تعود أبدًا.

مرَّت الأسابيع، وبدأ ليو وإيكو يتشاوران في اختيار أسماء للأطفال، وأصرَّت إيكو على الأسماء اليابانية، لذا اتفقا على تسويةٍ: اسمٌ يابانيٌّ، واسمٌ صينيٌّ. ولكن في الشهر الثالث، وفي أثناء فحص روتيني بالأشعة

(1) تعني شكرًا لك. (المترجمة)

الصوتية، اكتشفا أن أحد التوأمين قد فارق الحياة. أو، كما أخبرهم الطبيب، ربما تمَّ امتصاصه من قِبل الآخر. حزنت إيكو بصمتٍ على الفقد، لكنه جعل خطتها أبسط. انتظرت، قرَّرت أن تبقى لمدة عامين، حتى تنتهي من أصعب مراحل الطفولة المبكرة، ثم ستعود إلى باريس مع طفلها، لتكتشف ماذا ستفعل.

لم تفكر إيكو أبدًا في التواصُل مع نيو، ولكن كانت تفكر فيه أحيانًا. دائمًا، في خيالها، كان يقف عند نافذته، مرتديًا قميصه الداخلي، مبتسمًا، ممسكًا تلك البيضة الزرقاء.

عندما وُلدت يُومِي، كانت جميلةً على نحوٍ استثنائيٍّ، تتمتَّع بشعرٍ أسود كثيفٍ، وبشرةٍ ناعمةٍ مثل الزبدة. نظرت إليها إيكو، وشمَّت رائحتها، ولم تستطع التوقف عن لمسها. ولكن في لحظاتٍ غامضةٍ كانت تتساءل: هل يختبئ توأمها في مكان ما داخل هذه الطفلة؟ هل اندمجت عينا التوأم مع عينَي يُومِي، أم بقيتا غير مكتملتين، تائهتين في رؤيةٍ جامدةٍ لمشهدٍ غامض داخل كبد ابنتها أو طحالها؟ كلما نظرت إلى يُومِي، فكَّرت في كليهما معًا.

«نعم أقبَل» وباللغتين الصينيَّة والفرنسيَّة

يوليو/ تموز 2014

دائمًا ما يسير الرجل بمفرده إلى مذبح عقد القران. تركت إيكو مقعدين فارغين في المقدمة، وعلى كلِّ كرسيٍّ منهما وردةً ورديَّة شاحبة، رأى ليو الورود بزاوية عينه. تتمتَّع إيكو بموهبة القيام بمثل هذه اللفتات الرائعة كأن تُخصص مقاعدًا للراحلين، فهي إنسانةٌ مبدعة ومتفهِّمة. لكن هذه اللفتة آلمته أيضًا، وما آلمه أكثر عدم معرفته هل يجب أن يشعر بالحرج منها، أو أن يتجنب النظر إلى هذين الفراغين، كأنهما ثقبان أسودان يجذبانه نحوهما.

ما الذي كان هناك؟ روحٌ، أم حزنٌ، أم ذكرى، وهذه أيضًا تتلاشى وتتغير مع مرور الزمن. ماذا يأتي بعد ذلك؟ ظلَّ هذا السؤال يطارده منذ أن كان صغيرًا. منذ أن كان في الثامنة من عمره، حين أخبره والده عن الموت خلال رحلةٍ صيفيَّة، على شُرفة الفندق المطل على البحر

في فوجيان، حيث ذرف ليو دموعه للمرة الأخيرة في حياته. الجميع سيموت، الجميع سيختفي من هذا العالم.

قُرِعت الأجراس، وكان النسيم لطيفًا، واليوم الذي توقعوا فيه هطول الأمطار بدا مشمسًا وجميلًا. وقفت إيكو في نهاية الممر، وبدت بعيدةً جدًّا. ابتسم ليو، جزئيًّا لسخافة الموقف: وجهها الجميل مغطى بالمكياج، وفستانها ثقيلٌ وطويل، ومرافقاتها يُصلِحن الذيل، يعدلنه ليكون مستقيمًا ومسطحًا للرحلة. انطلقت موسيقى «الشرق أحمر» من برج الجرس في الفُندق المجاور، وكانت مسموعةً فوق جميع المباني المحيطة على طول النهر، وفوق سطح فندقهم، وفوق مراسمهم. توقفت إيكو، وبدت غير متأكدةٍ مما يجب أن تفعله، همسوا لها بشيءٍ في أُذنها، فوقفت ساكنةً. لعلَّهم قالوا لها أن تنتظر حتى ينتهي قرع الأجراس.

«الشرق أحمر، الشمس تشرق. من الصين ينهض ماو تسي تونغ» فكَّر ليو في والده، لقد رسم صورة عن الرجل على مر السنين، مدعومةً بالقصص التي سمعها من أعمامه. لم تبقَ الآن سوى بضع ذكريات خاصةٍ به، وكان يعيدها مرارًا في ذهنه: الرحلة إلى الجبال عندما كان في الرابعة، ورحلة قطارٍ طويلةٍ مليئةٍ بالناس المُدخنين، حيث وقف هو ووالده لمدةٍ شعر كأنها دهرٌ، بالإضافة إلى المرة التي اشترى له والده فيها وجبةً من كنتاكي في بكين، من أول فرع افتُتِح في الصين. لم يعرفا كيف يأكلان البطاطس المقليَّة، كانا يتناولانها بعِيدان الطعام. وصوت والده وهو يغنِّي أوبرا سوتشو على الشرفة -اللحن الأنفي الرقيق يعبُر الهواء- في صباحات يوم الأحد. أم كانت مساءات السبت؟ وأخيرًا، الجيران يركضون في الزقاق، ينادون باسم ليو. لقد صدمت شاحنةٌ والديه، وهما في المستشفى. ركض ليو، وكان صدره وذراعاه نحيفين في ذلك الوقت، يتحركان بسرعةٍ، وعبر الشوارع راكضًا رغم السيارات

والدراجات التي تندفع أمامه، يصرخ في وجه الممرضات، ويتنقل في الممرات المظلمة والمربكة في المستشفى. والده ووالدته كلاهما كانا في حالة موتٍ دماغيٍّ.

عندما سمع ليو الخبر، بدأ عقله يسرد الحديث التالي: «أرجوك، أرجوك، أرجوك. يا إلهي أنقذ أحدهما فقط على الأقل، حتى لو كان مشلولًا. دعه يعيش»، لكنهما تُوفيَا في تلك الليلة. ومنذ ذلك الحين، وفي اللحظات الحرجة مثل هذه، يتعمَّق شعوره بغيابهما -وخاصة غياب والده-، لحظات كتلك التي حقَّق فيها أعلى درجةٍ في امتحان الرياضيات على مستوى المدينة، وعندما تدرَّب على المسابقات وحصد أعلى الدرجات، وعندما نال مقعدًا في الجامعة، ومنحةً إلى باريس، ودرجة الدكتوراه، والوثائق، وعند التقائه بإيكو.

والآن، وهو يعود إلى المنزل ليتزوج في شانغهاي، متجولًا حول العالم من أجل الحفل النهائي من سلسلة مراسمهم واحتفالاتهم، ماذا كانا سيفكران؟ ماذا كانا سيقولان؟ هل بإمكانهما تصوُّر حياةٍ مثل حياته، عندما كانت حياتهما ضيقةً، ومقيدةً، ومحكومة بأهواء سياسات هذا البلد المتقلبة؟ نشأ ليو في المؤسسات، على أيدي المعلمين، وكان اسميًّا تحت رعاية أعمامه وأجداده، الذين أقام عندهم في عطلات نهاية الأسبوع والأعياد، إذ التحق بمدرسةٍ داخليَّة منذ الحادث، منذ سن الثامنة. وكل ما فعله، فعله بمفرده.

بعيدًا، في نهاية الممر، كانت إيكو تبدو غير حقيقيَّة، كأنها دميةٌ في واجهةِ متجر، عروسٌ مصغرةٌ على قمَّةِ كعكة، وصورةٌ لما يجب أن تكون عليه الزفاف والحياة. شعر بأنه يدخل في واحدةٍ من لحظات انفصاله عن الواقع، حين بدا الوقت كأنه يتباطأ، وأصبح هو كأنه محاطٌ بفقاعةٍ، أو عُلبةٍ واقيةٍ ناعمةٍ تتيح له استيعاب جميع تفاصيل العالم

من حوله، وتسمح له برؤية الأشياء من مسافةٍ بوضوحٍ وموضوعيَّة. يحدث ذلك غالبًا في نوعين من المناسبات: عندما يحلُّ مسألةً رياضيَّة، أو عندما يدخل في جدال. توقفت الأجراس، وبدأ الرباعي بعزف آلاتهم.

ها هي العروس. إنها تمشي نحوه الآن، وهو يفكر في اليوم الذي وصل فيه بسيارته ليلتقطها من حفلة صديقٍ في الريف الفرنسي، حيث جرت نحوه، وقدَّمته لأصدقائها بوصفه حبيبها، لكنهما لم يكونا قد مارسا الحبَّ بعد، ولم يتبادلا حتى القبلات. قادها إلى المدينة، إلى النهر، وجلسا هناك، يشاهدان القمر يتدلى منخفضًا فوق الماء كصحن، وانعكاسه الفضيُّ العصبي يتأرجح، ويرتجف، تمامًا كما كانت هي في ليلة الصيف المتأخرة. ثم، لفَّ ذراعيه حول كتفيها، واقترب وجهه ليمسَّ وجهها، وشفتيها الناعمتين، بينما جسمها يلتفُّ حوله.

في لحظات تحليقه فوق الحياة، يستطيع ليو رؤية كل شيءٍ كما لو أنه نموذجٌ يمكنه تكبيره وتجميده، ويمكنه الاقتراب منه وفحصه من زوايا مختلفة. حدث ذلك في تلك الليلة، مع إيكو، ليلة قبلتهما الأولى إلى جوار النهر، تحت القمر. إذ توقف الوقت، واستطاع رؤية كل شيء، وشاهد المُستقبل أمامه: أول مرةٍ يمارسان الحُب، وأول جدال لهما، وشقتهما الأولى في باريس، وطفلهما، في حضنها، يُعطى اسم والد ليو أو والدته.

استطاع أن يرى ماضيها أيضًا. في كيوتو: طفلةٌ متهورة. في باريس: مراهقةٌ تتدلى ساقاها فوق نهر السين، وربما تتدلى أيضًا سيجارةٌ من بين شفتيها. تخيَّل الرجال والصبية الذين أحبَّتهم من قبل، الفرنسيين منهم والجزائريين. أراد أن يكون أفضل من الجميع. إيكو، هذه الأنثى الغريبة، سيفعل كلَّ ما في وسعه ليعرفها، سيسافر إلى الماضي، إلى تلك القصص، وإلى المستقبل معًا، حتى إنه رآها وهي مسنَّةٌ نحيفة،

ورقيقة، وأنيقة. ورأى نفسه، والقمر، وبحيرةً يجلسان على ضفتها جنبًا إلى جنب. لم يختبر ليو تلك الفقاعة، تلك الوقفة، مع فتاةٍ من قبل. كانت تلك الليلة جوار النهر هي المرة الأولى، فاعتبرها علامة، فبالنهاية ما هو الحُب سوى الإحساس بأن الوقت ينسدل من لحظة.

اختبر ليو قبل إيكو علاقاتٍ أخرى، بما في ذلك علاقته الأكثر إرباكًا، الأولى له. عندما وصل للتو إلى باريس والتقى بفاي، زميلته في البرنامج، من بكين. ولكنها كانت علاقةٌ مزدحمةٌ بالمُشاجرات الدائمة، والأخطاء، والشكوك. هل كانت فاي هي المناسِبة، هي الصحيحة؟ إنه يعرف، نظريًّا، أن لا أحد مثالي. لكنه لم يستطع إلا أن يطمح إلى الاقتراب من الكمال، أقرب ما يمكنه.

علم ليو أن احتمالات زواجٍ ناجح، وفرص سعادةٍ حقيقيَّة ضئيلة. ومع ذلك، ماذا يمكنه أن يفعل سوى المحاولة؟

***

يعود الشهر الذي قضاه على شاطئ فوجيان إلى ذاكرته مرارًا وتكرارًا، فيتذكَّر تحديقه إلى المحيط، وتأملاته في الموت، وفي حتميَّة زوال كل كائنٍ حيٍّ. خلال تلك الرحلة، ركب الطائرة لأوَّل مرةٍ في حياته، وأمضى الأيام القليلة الأولى يتخيل كيف سيخبر زملاءه عن تلك التجربة: عن الطائرة، والمضيفات، والإقلاع، والسحب في السماء. إذ لم يسبق لأحدٍ من مدرسته أن ركب طائرةً من قبل.

كان ليو دائمًا الأول في كثيرٍ من الأشياء: الرحلة إلى بكين، والجنود في الشوارع، ثم تجربة تناوُل الدجاج، والبيبسي كولا، والبطاطس المقليَّة.

بعد عودتهم إلى المدينة، أخذهم والد ليو إلى تعاونيةٍ تابعةٍ للشركة، وبطريقةٍ ما استطاع الحصول على شقةٍ بغرفة نومٍ واحدة، وهي رفاهيةٌ

حينها، تم تخصيصها لعائلتهم من قِبل الإدارة. حين يتذكر تلك الأيام، يتخيل ليو المفاوضات، والوعود، والرشاوى أو السجائر التي تم تبادلها، وكيف كانت تُقتنى الأشياء حين لم يكن المال يعني الكثير. كان والده أيضًا قادرًا على رؤية الأمور من مسافة.

لكن ليس لديه أحدٌ ليُراجعه بشأن تلك الحقائق، فقد ذهب والداه سريعًا بعد فوجيان، كما لو أن والده قد خطَّط لكل شيء، كأنه كان يعدُّ ليو لمواجهة حقيقة وفاتِهما. على شُرفة غرفة الفندق في ذلك اليوم، وعمره ثماني سنوات، حدق ليو إلى البحر الذي يمتد بعيدًا ويلتقي بالسماء، وكان بإمكانه رؤية موت كلِّ شيءٍ وكلِّ شخص، يمتدُّ بعيدًا إلى الماضي، وبعيدًا إلى المُستقبل. ما الهدف؟ ما جدوى كل هذا؟

شعر بذلك اليأس ذاته بعد أربع سنوات، حين حصل على أعلى الدرجات في امتحان الرياضيات بين جميع طلاب المرحلة الإعدادية في شانغهاي. إذا كان هو الأفضل، فهذا يعني أنه لا يوجد أحدٌ آخر، لا يوجد أحدٌ أعظم. إذا كان هو الأفضل، فإنه فعلًا وحيد. هلَّل أعمامه وعماته، ونظروا إليه بدهشة، واتصلوا بأصدقائهم، وصرخوا في الممر لإخبار الجيران. لكن تغلَّب عليه شعور الوحدة، وخيبة الأمل. هل حقًّا هو أفضل ما يمكن أن يكون؟

في فترة مراهقته، وخلال رحلةٍ طويلةٍ بالحافلة، في طريقه لزيارة عائلته المُمتدة خلال احتفالات رأس السنة القمرية، أخبر ليو عمَّه الأصغر عن ستيفن هوكينغ وعن النسبية. كان قد انتهى للتو من قراءة «موجز تاريخ الزمن»، ومسكونًا بالحماس لكلِّ شيء، وللعالم المعرفي الذي بدأ ينفتح أمامه. يتذكر أنه استمرَّ في الحديث دون توقُّف لساعات، كانت الحافلة مكتظة، وقد أزيلت المقاعد لخلق مساحةٍ أكبر، وكان بعض

الفلاحين يحملون ثلاث أو أربع دجاجات على ركبهم، وقُبيل وصولهم إلى وجهتهم، نفد وقود الحافلة وتوقفت مصدرةً صوتًا مُرتجِفًا. فهم ليو على نحوٍ غامضٍ ما يحدث، لكنه كان في وسط حديثه عن الثقوب السوداء وأفق الحدث، ولم يرغب في التوقُّف. نزل الجميع -ليو، وعمه، والفلاحون، والدجاجات- وجلسوا على جانب الطريق، يفركون أيديهم معًا في البرد بينما جاء أحدهم ليملأ خزان الوقود. واصل ليو حديثه، محاولًا شرح ما يحدث عندما يصطدم ثقبان أسودان، وكيف تنبعث منهما جزيئات (وكيف أن كبرياء هوكينغ جعله يقاوم هذه الحقيقة!)، وعن الثقب الأسود البدائي، وارتباطه بمصير الكون. كان عمه يهز رأسه موافقًا، ويهمهم، ناظرًا يمينًا ويسارًا بحثًا عن شاحنة الوقود اللعينة. أما ليو، فغاص في حديثه، مناديًا عليه -»عمي، عمي!»- ليساعده في التركيز على المُحادثة الجارية. جاءت الشاحنة تتهادى على الطريق.، وعاد الجميع -ليو وعمه والفلاحون والدجاجات- إلى الحافلة. بعد وقتٍ قصيرٍ وصلوا إلى وجهتهم، وبينما كان ليو وعمه يتسللان عبر الحشد نحو المَخرج، نظر الجميع إلى ليو كما لو أنه مخلوقٌ فضائيٌّ يتحدث طوال الوقت بلغةٍ غير مفهومة.

***

في الجامعة، وبناءً على نصيحة مدير والده السابق بالاستثمار في الشقق، اقترض ليو المال من كلِّ أفراد عائلته، ومن زملاء والده في العمل، ومن أصدقائه. لطالما حلم والده بامتلاك منزلٍ خاصٍ بهم، لذا اشترى ليو وحدتين في «غوبي»، وظلَّتا فارغتين لعدة سنوات، لكن بعد أن أصبح ارتفاع أسعار العقارات حقيقةً لا يمكن إنكارها، وحديثًا يجري على ألسنة الجميع، اقترح عليه عمه الأكبر تأجيرهما. كانت قيمة العقارات وأسعار الإيجار ترتفعان، فلماذا لا ينقل الملكية إليه ويتولى

هو إدارة الأمور؟ فقد تم شراء الشقق بمبلغٍ زهيدٍ، وأصبحت اليوم تساوي أكثر بكثير.

كان ليو جيدًا في الأرقام، لكنه لا يتمتَّع بعدُ بفهمٍ واضحٍ لقيمة المال أو معنى الاستثمار، لكنه فهم الأرقام، وفهم أن هذا النمو هو ما كان والده يريده له. بحث ليو عن كل ما يمكن معرفته حول الشُّقق والاستثمار في شانغهاي، وعندما لم يكن يدرس للحصول على درجة الهندسة، كان يقرأ عن سوق العقارات. في تلك اللحظات -في أثناء زيارته لشركة والده القديمة للتحدث مع المدير نيو، أو عند قراءته الصحف لمعرفة آخر تطورات الإسكان والمشاريع- شعر بأنه قريبٌ من والده، كأنه يتجسَّد فيه.

سرعان ما بدأ يجني الإيجارات من الشقق. بحلول ذلك الوقت، كان على وشك الرحيل إلى باريس، فوظَّف مساعدةً لإدارة ممتلكاته، وكان محظوظًا، فقد تبين أن مساعدته بيبي تتمتع بالحنكة واللطف في الوقت ذاته. على مر السنين، نمَّت بيبي العمل. وبينما كان ليو في باريس، غارقًا في عوالم الفيزياء وأبعادها غير المرئية، كان عدد شققه يزداد أيضًا.

أصبحت بيبي، التي تشغل الآن منصب المدير التنفيذي لشركتهم العقارية الصغيرة، تخرج مع المسؤولين والمطورين لتناول المشروبات، فتمكَّنت من الحصول على عددٍ من الشقق في مشروع تطوير وسط المدينة، بالقُرب من «جينغان». وعندما أُعلن عن مشروع «شينتياندي»، كانت بيبي هناك، واشترت بعض الوحدات. لم يكن بإمكانهم منافسة الشركات الكبرى التي تمتلك الأموال والعلاقات الأفضل، لكنهم كانوا موجودين.

بحلول الوقت الذي أنهى فيه ليو دراسته، كان ثريًّا جدًّا. واختفت شانغهاي التي عرفها في شبابه -حيث الهدم، والتطهير، والتدمير، والبناء-. المدينة التي بدت كأنها منطقة حربٍ لا نهاية لها، اختفت. وفي مكانها ظهر مزيجٌ غير متناسقٍ من المباني الزجاجية اللامعة الضخمة والكُتل الحجريَّة من الطوب التقليدي على طراز «شيكومين»[1].

انتشرت شققه في جميع أنحاء شانغهاي، مبعثرةً على خريطة المدينة، شققٌ وعائلاتٌ، وحيواناتٌ أليفةٌ وأطفال. المستأجرون يتدفقون داخل وخارج وحداتهم، بينما المال يتراكم. وفقًا للقانون، كان سيمتلك هذه الأماكن لمدة سبعين عامًا، ففي الحقيقة، كان هو أيضًا مستأجرًا، فالحكومة هي المالكة لكل الأراضي. كان يخطط للرحيل قبل انتهاء العقد، فإدارة منازل، حيث يأكل الناس وينامون ويموتون، والتجديدات، والتحسينات، والمستأجرون المتأخرون في دفع الإيجار، والتفاوُض حول الإيجارات، وفسخ عقود الإيجار، مع كل ذلك بدأ ليو يشعر بالملل من التفاصيل. لم يكن لديه صبر على الاجتماعات الطويلة والمكالمات الهاتفية التي تجريها بيبي. لكن ليو وإيكو كانا قد ناقشا الانتقال إلى الصين بعد الزواج، فخلال بضع سنوات، ربما يتركان باريس، ويؤسسان أُسرة، ويستكشفان فرصًا جديدةً في الوطن. في شانغهاي، كان بإمكانه أن يجد شيئًا يليق به، شيئًا ذا حجمٍ حقيقيٍّ، شيئًا يدوم.

***

(1) «شيكومين» (Shikumen) هو نوعٌ من المباني التقليدية التي كانت شائعة في مدينة شانغهاي، الصين، خلال أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. يتكون هذا الطراز المعماري من منازل أو مجمعات سكنيَّة تجمع بين الطرازين الصيني والغربي، ويتميز ببوابةٍ حجريَّة أمامية (وهذا هو معنى «شيكو» أي «بوابة حجريَّة» بالصينية) تؤدي إلى فناءٍ داخليٍّ مشترك بين عدة منازل. (المترجمة)

قبل أن تخرج إيكو إلى الممر، وصفتها والدتها بأنها «دميةٌ صينيَّة»، ولكن ليس على نحوٍ لطيف. لماذا لم تستطع والدتها أن تحتفظ بآرائها لنفسها؟ كانت الموسيقى تدقُّ في أذنيها، وحاولت أن تجعل خطواتها تتماشى مع الإيقاع، لكنها وجدته بطيئًا للغاية، في ظلِّ كل الناس الملتفِّين من حولها يحدقون إليها. شعرت بوخز العرق عند خط شعرها وتحت ذراعيها، وفجأةً أدركت، بأسفٍ، أن الفستان كبيرٌ وثقيل، ووجهها مغطى بطبقةٍ سميكةٍ من المكياج. كانت إيكو قد اقتربت الآن، ولم تسقط، لا، لم تتعثر، نظرت إلى والدتها ورأتها تبكي، أكانت تلك دموع الفرح أم الحزن؟

أخبرتها دافني مرةً واحدةً فقط، وبعباراتٍ صريحة، أن ليو ليس الشخص المناسب لها. إذ قالت: «لا يتعيَّن عليكِ الذهاب إلى الصين»، بهذه الطريقة قالتها، وكانت هناك دموع ارتياحٍ لبعض الوقت، حيث جلستا في سيارتهما قبالة شارع «رو دي تيرموبيل». لكن والدتها تراجعت فورًا، وأضافت: «الحبُّ صعب»، ثم أخبرتها أن هي وليو متشابهان بطريقةٍ ما، وأنهما مناسبان لبعضهما: «طفلان كبيران».

لكن الآن، كان القرار قد اتُّخذ. وهناك أشياء جيدةٌ أيضًا، أشياء أفضل مما جرَّبته من قبل: القبلة بجانب النهر، ويداه على فستانها المصنوع من حريرٍ أخضر زيتونيٍّ رقيقٍ جدًّا لدرجة أنها شعرت كأن يديه الدافئتين تلامسان بشرتها. وفي وقتٍ لاحق، عندما كانا يتنقَّلان بالدراجة عبر المدينة، أزالت إيكو يدًا عن المقود لتقطف زهرةً عابرةً من شجرة، وفجأةً كانت تسقط -وكان السقوط لا مفرَّ منه- لكنه كان هناك، في اللحظة، ليمسك بها وبالدراجة ومعصمها. كان الأمر مذهلًا، حقًّا، كيف تحرَّك بسرعة، وبعد أن تحقق من الخدوش، عاد في تلك الليلة ليقطف تلك الزهرة الوردية بالضبط من تلك الشجرة بعينها. وضعها في

صندوق مجوهراتٍ من المخمل الأسود، وقال لها، وهو يفتح الصندوق: «أنتِ أجمل وأشجع شخصٍ عرفته». شعرت، عندما تكون بجانبه، أن كلَّ شيءٍ سيكون على ما يرام. فقد قطف لها تلك الزهرة بعينها.

ها هي تقف عند المذبح الآن، وبدأت الأيمان تُقرأ، ثم سأل الكاهن بالصينيَّة: «هل تقبل؟»، فأجاب ليو: «نعم، أقبَل»، أولًا بالصينيَّة ثم بالفرنسيَّة، ثم قالت هي أيضًا: «نعم، أقبَل، يوآني»، ثم «جي لو فو» بالفرنسية.

- يمكنك الآن تقبيل العروس.

تبادلا قبلةً خفيفة، لا تُشبه قبلة النهر، ربما لن يتبادلا يومًا قبلةً مثل تلك أبدًا، لكن رغم ذلك، كانت قبلةً جيدةً جدًّا. تعالت الهتافات من الحشد، وكانت يدها في يده. وهكذا كان الأمر، إذن. هذه هي الحياة الزوجية.

وعندما وقفت إيكو أمامه، بعد أن انتهت الموسيقى، شعر ليو بأن الفقاعة التي غلَّفته بدأت تتلاشى. حاول أن يحتفظ بها، أراد الاحتفاظ بسحرها، وبهدوئها، ووضوحها. لكنه لم يكن قادرًا أبدًا على اختيار متى وأين تحلُّ عليه. انساب الوقت بعيدًا، وطلب منه الكاهن أن يقول: «جي لو فو، أقبَل». ثم قالت إيكو تلك الكلمات بنفسها.

وبعد ذلك حان وقت الصور، ثم المشروبات والمُصافحات والكفوف الدافئة التي تُربِّت على كتفه، ثم الانتقال البطيء إلى الداخل، حيث بدأ الجميع بالتحرُّك دون أن يلاحظوا، عندما انتهت المقبِّلات، وتفكيك الكراسي.

الشُّكر والتقدير

أودُّ أن أشكر من أعماق قلبي كلَّ من ساهم في دعم هذا الكتاب: وكيلتي ستيفاني ديلمان من Trellis Literary، وأليسون ماليشا، وخالد مكالا. سو أرمسترونغ من C&W. جوي ماغارفي من Spiegel & Grau، وسيندي شبيغل، وجولي غراو، والفريق بأكمله. هانا تشوكو وكل العاملين في Dialogue Books. مُرشِدِي ليام كالانان، وجوان سيلبر، وفانيسا هوا، وتوني نيلسون. وديب ألبيري. زملائي في برنامج الماجستير، وخاصة روزان بيريرا وجوي دينغ، ومايك فو وروز سميث، وآن هورورويتز، ويوري باكستر-نيل، ولولا ميلهولاند، وشايا دورنانو. لقد ساعدتم جميعًا هذا الكتاب على النمو كثيرًا، وأنا ممتنةٌ لكم إلى الأبد لمشاركتكم عبقريتكم.

شكرًا لليسيت على سنواتٍ عديدةٍ من التعلُّم وتشكيل أحلامنا معًا. لأليسون مكديفيت، صديقتي الحقيقيَّة في الكتابة وفي الحياة. لعائلتي المُخلصة في TSLR. لبيتر هاغان على المُحادثات حول الهندسة المعمارية والتصميم. لقرية شانغهاي الخاصة بي، يييه، وناي ناي، والآييز اللواتي قدَّمن لنا الدعم بكل حُب. لآلان، الذي جعل الكثير ممكنًا

خلال الثلاثين عامًا الماضية. لكلير، التي تعرفني أكثر من أيٍّ أحد. لجدي وجدتي، اللذَين أفتقدهما بشدة. لوالدتي: لقد علَّمتني كلَّ شيء، أنتِ نجمة الشمال التي توجِّهني.

لهانا وماكس، أطفالي: أنتم أعظم أفراح حياتي. ولهايدونغ، حبيبي، محبوب قلبي، الرجل الشانغهاييُّ الفريد: أعتزُّ بكل جزءٍ منك، وأحبكَ حتى نهاية الزمان.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ملاحظات

الأسطُر المقتبسة في «مولودٌ بقلبٍ عليل» مأخوذة من المانغا Ghost in the Shell لمؤلفها ماساموني شيرو. أغنية «Stayin’ Alive»، وهي أغنية ديسكو صدرت عام 1977 لفرقة البي جيز، اقتُبست في نص «هانامي». المعلومات الملخَّصة عن طائر الطنَّان في «خَدَر» جُمعت من مصادر متعددة على الإنترنت حول الطيور والطبيعة. أغنية «الشرق أحمر»، التي اقتُبست في نصِّ («نعم أقبَل»، وباللغتين الصينيَّة والفرنسيَّة)، كانت النشيد الوطني لجمهورية الصين الشعبية خلال ستينيات القرن الماضي.

Shangahailanders

أبناء شانغهاي

روايةٌ مذهلةٌ وجريئةٌ تأخذنا في رحلةٍ عبر الزمن لسبر أغوار أسرةٍ تعيش في شانغهاي العالمية، حيث نبدأ من عام 2040 ونتحرك تدريجيًّا إلى الوراء عبر الزمن، مرورًا بحاضرنا والماضي القريب، لنكتشف أسرار هذه الأسرة، وخسائرها، وكيف يعيد أفرادها تشكيل أنفسهم عبر السنين.

تُبحر بنا الرواية داخل الحياة المشتركة والمنفصلة لأفراد عائلة يانغ، حيث نعيش تجاربهم من خلال كلِّ فردٍ، ومن خلال أعين الشخصيات المحيطة بهم.. من مربيةٍ قادمةٍ من الأرياف، إلى سائقٍ خاص يعشق المخاطرة، إلى جدةٍ تحمل في ذاكرتها أصداء الماضي. كما نرى في لمحاتٍ من المستقبل مدينةً مهددةً بارتفاع منسوب المياه، واقتراب شبح النهاية.

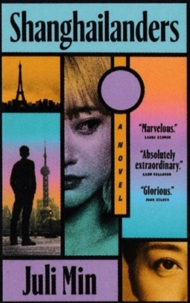

لكننا أيضًا نُدرك في رواية جولي مين أن بعض الأشياء لا تتغير: فالحب معقَّدٌ، والحياة ليست عادلةً، والعائلة ستظل دومًا متصلةً بقوَّة الدم، والأسرار، والشوق.

"أبناء شانغهاي" هي روايةٌ مبنية ببراعةٍ وتلامس القلب بعمقٍ، وتقدم لنا استكشافًا لا يُنسى للزواج، والعلاقات، والعائلة، وتجربة الزمن المعقَّدة.

غلاف: محمود هشام

مكتبة
t.me/soramnqraa

عصير الكتب

www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb